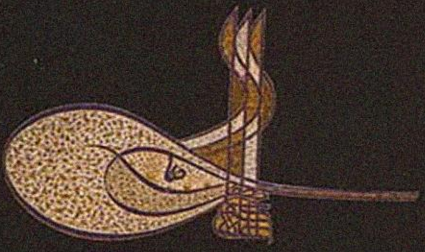
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
THAQAFA ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.



القانوني

السيف لا يقيم العدل



أوقاي ترياقي أوغلو

رواية



القانوني

السيف لا يقيم العدل

KANUNİ

Kılıcın Yapamadığını Adalet Yapar

رواية

أوقاي ترياقي أوغلو

OKAY TIRYAKIOĞLU

ترجمة

مصطفى حمزة

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م
THAQAFA Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0637-6

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية
KANUNİ Kılıcın Yapamadığını Adalet Yapar
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع
Translation is sponsered by TEDA
T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi
Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu
Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası)
06030 Ulus/ANKARA/TURKEY
e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr - Web: www.tedaproject.com

القانوني

تأليف: أوقاي ترياقي أوغلو

ترجمة: مصطفى حمزة

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة

معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (+961-1)

ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

ثقافة THAQAFA

للنشر والتوزيع ذ.م.م.

Publishing & Distribution L.L.C.

أبوظبي	هاتف: 6345404 (2-971+)	فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي	هاتف: 2651623 (4-971+)	فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت	هاتف: 786233 (1-961+)	فاكس: 786230 (1-961+)

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

الإهداء

إلى والدي

(1950-2009)

المحتويات

﴿ ...وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ... ﴾

بقلم المترجم

سقطت القسطنطينية على يد السلطان محمد الثاني «الفاتح» عام 1453، وبذلك فُتِحَتْ إسطنبول، وتحققت بشارة النبي صلى الله عليه وسلم: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ». وتردد صدى هذا الفتح في أوروبا كلها واستنفرها، ثم امتدت بعد ذلك الفتوحات، وبلغت أسوار فيينا في محاولةٍ من المسلمين لاستكمال الطوق والاتصال بالأندلس من الشمال، وشكل ذلك ضغطاً كبيراً على أوروبا، وحرضها على تعديل بنيتها؛ لتتجاوز الإمارات الصغيرة نحو الإمبراطوريات الكبيرة. في المقابل، كانت الأندلس تعيش حالة ترف وبذخ وتمزق وضياع رسالة الفاتحين المسلمين لتحرير الإنسانية كلها من ربق العبودية والجاهلية إلى عزة السجود لله، ولم تلبث بعد ذلك أن تهاوت غرناطة آخر ممالك المسلمين في الأندلس عام 1492 (أي بعد أربعين عاماً فقط من فتح إسطنبول).

كان الأوروبيون يبحثون عن مصادر القوة الاقتصادية للتعويض عن الممتلكات التي يفقدونها أمام الزحف العثماني، فكانت محاولةُ الالتفاف على الدولة العثمانية وبلاد المسلمين نحو الهند والصين تدفعهم لتجاوز نظرة الكنيسة عن الكرة الأرضية، وتجعلهم يعتمدون مشروع كريستوف كولومبوس للدوران حول الكرة الأرضية، واختراق بحر الظلمات والمحيط الأطلسي، وبلوغ جزر الأنتيل ظناً أنها الهند، وعندها اكتشف

بحيرةً إسلاميةً... إذا كانت الرواية لا تتناول السرد التاريخي لمثل هذه الأعمال العظيمة، ولا تسلط الأضواء على التحليل السياسي فيها؛ فإنها تركز على بنية الدولة العثمانية، وعلاقات القوة فيها بين الأتراك والتركمان، والخلفية السياسية للعلاقات السنية والشيعية، وتبيّن جانباً إنسانياً مهماً في قضية الرق، فالرقُّ في الدولة العثمانية كان مقيداً بمدةٍ زمنيةٍ معينةٍ، ولم يكن مفتوحاً مطلقاً، وإنما كان مقيداً بنظام المكاتبة (فكان أن خرج من بين أولئك عمالقةٌ من المبدعين كالمعماري سنان المشهور بآثاره المعمارية التي تثير الذهول والإعجاب). كما تحاول الرواية تقديم تحليلٍ لنفسية الجواسيس، وبذلك تقدم الرواية الدولة العثمانية كدولةٍ أولى في الموقف الدولي، تسعى لزرع عملاء في قلب أوروبا، وتقوم بما تقوم به أمريكا وإنجلترا وغيرهما من الدول الفاعلة اليوم في المسرح الدولي. وربما وأنا أتعرف شخصية أورخون، كان يخطر في بالي مايلز كوبلاند بشخصيته وكتابيه **(لعبة الأمم، واللاعب واللعبة)**...

والروايات التاريخية بطبيعتها، فيما تحاول بث الروح في الحقبة التاريخية التي تتحدث عنها تسعى في الوقت نفسه إلى إعادة تشكيلها، وتحمل رسالة ما، وهي ما أترك تقديرها للقراء الكرام...

إنها سنة التدافع التي لا مفر منها في الحياة الدنيا بين الخير والشر، والحق والباطل، والخطأ والصواب... لن تنفع معها نظريات الأبراج العاجية التي يختلي فيها بعض فلاسفة العصر، وينشئون فيها مدنهم الفاضلة؛ من خلال مبادئ السلم والسلام العالمي، ومذهب ابن آدم الأول، واللاعنف، واللاتكفير... إنها سنة التدافع وغايتها الابتلاء، وغاية الإنسان فيها أن يشتري نفسه، «**فكُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»...

الأحد، 16 شوال، 1433
الموافق لـ 2012/09/02

مُقَــدِّمَــة

قارئي الوفي، اسمح لي هذه الليلة أن أتقاسم معك قبل الشروع في قصتنا ذكرى قديمة من ذكرياتي. لن أقتطع الكثير من وقتك، وكل ما أريده هو أن أخفف عبء تلك الذكرى عن كاهلي.

كانت درجات الحرارة تزحف نحو الخامسة والخمسين عندما كنا نتوجه نحو مرتفعات جبال طانري من مدينة أوش جنوب وادي فرغانة في قرقيزستان. وكان والدي قد ودع آخر مئتي دولار في جيبه عند صرافٍ قرب الحدود يُذَكِّرُ بابه العملاق بفرن قديم. لم تنفع محاولاتي بإقناع شرطي الحدود بأنني كاتبٌ، وأن ما أحمله على كتفي هو جهازي المحمول؛ فدفعنا له خمسين دولاراً كرشوةً، ودفعنا مئة دولارٍ لسائق التاكسي التتري ذي العينين الخضراوين، وبقينا مدينين له بخمسين دولاراً. كانت عيوننا تدمع، وكنا نشعر بالغثيان بسبب رائحة البنزين التي تفوح داخل السيارة...

كنا صامتين في أثناء عودتنا إلى بلدنا صفر اليدين بعد كل تلك المغامرات الطويلة التي قمنا بها. وكنت أشعر بارتياحٍ روحيٍّ كبيرٍ في سهوب الاستبس[1] الموحشة الممتدة إلى ما لا نهايةٍ والتي أصبحت بيتي ومسكني وحياتي. ولم أكن أعرف إن كنت سأعود إلى خلوات

(1) اصطلاح يطلق على أراضي جنوب وجنوب شرق روسيا الأوروبية وجنوب غرب الاتحاد السوفياتي الآسيوي. وهي سهول مستوية لا أشجار فيها، وكانت أصلاً مناطق حشائش، ولكن أصبح معظمها الآن أراضي زراعية. ومع أن الاصطلاح مقتصر في الأصل على روسيا؛ إلا أنه أصبح يطلق في الواقع على كل السهول الزراعية في العروض المعتدلة (مثل براري الولايات المتحدة). انظر إلى الموسوعة العربية الميسرة.

بودلير[1] هذه مرة أخرى أم لا. كنا قد انهزمنا ونتجرع الهزيمة دائماً. وفي كل مرة، كنا نسعى لهزيمة أفضل من سابقتها؛ بعزيمة أقوى ترضي صمويل بيكيت[2].

ولكن روحي هذه المرة كانت تحترق، وكنت أحس بأنني أقترب من نهاية حياة جذابة ومليئة بالقلق والتشرد ولا ترحم مع والدي. كنا ذات يوم سعيدين في حياتنا، نكسب جيداً، ونُمضي يوماً هنا وآخر هناك، ووالدي مستمر في متابعة حياته غير مبال بتحذيرات الأطباء. فقلبه يعمل بطاقة الثلث، وضغطه يتقلب باستمرار صعوداً وهبوطاً، وأنا عاجز عن فعل أي شيء. وكان التوتر الذي يأكل بدنه يفعل فعله في دماغه أيضاً. أما أنا فكنت ألتقط أنفاسي في القراءة والكتابة، ولم نعد نستطيع الكلام إلا قليلاً، وغالباً ما يدور كلامنا حول كرة القدم. لذا، كان ما فقدناه تدريجياً، وموت والدي البطيء أمام عيني يتركان أعماقي مزقاً وأشلاء.

وصلنا إلى بشكك عاصمة قرقيزستان عند العاشرة ليلاً، وعلى الرغم من أن الوقت كان في نهاية الصيف، والطقس في أنديجان حار إلى حدٍّ لا يطاق، فإن الجو في بشكك على سفوح جبال طانري كان بارداً جداً. وكانت المستنقعات المائية قد بدأت تكتسي طبقةً من الجليد. وأسوأ ما في الأمر أنه لم يكن لدينا بيتٌ نأوي إليه، ولذلك لم يكن لدينا مالٌ ننزل به في أحد الفنادق، ومشاكل والدي مع الشرطة لا تنتهي؛ ولذلك لم يكن الاتصال بأي صديق مُيَسَّراً... اقترح علينا سائق التاكسي أن يستضيفنا في منزله رغبةً منه في تحصيل نقوده، ولم يكن لدينا خيار إلا أن نقبل دعوته آملين بوصول المال من إسطنبول بعد أن قررنا أن نبيع آخر ما

---

(1) بودلير (1867-1821) شاعر وناقد فرنسي، ويرى أن النظر إلى عمق الحياة مهمة الشاعر الحقيقي... ويعتبر شاعر الحداثة في القرن التاسع عشر، ولم يفهم شعره جيداً إلا بعد وفاته...

(2) صموئيل بيكيت (1989-1906) أديب إيرلندي أسس مسرح العبث أو اللامعقول، والصمت إحدى ميزات هذا الفن.

نملكه فيها. وعندما وصلنـا إلى قريته خارج المدينـة، فوجئنا ببيتٍ حديث البناء فـي الحديقة الخلفيـة، لم يكتمل سـقفه بعـد، وكانت جدرانـه كافيةً لحجب الريـاح لكنها لا تمنـع البرد. كنـا جائعين ومرهقين، وقـد أخذ منا النعاس كل مأخذٍ، ولم نكدْ نبسـط البطانيات التي ألقاها إلينا السـائق على الأرض الخشبية، ونَلُفّها على جسـدينا، علاوةً على السترة التي تفوح منها رائحة روث الأغنـام؛ حتى غَرِقْتُ في نـومٍ عميقٍ. لم تكن تلـك هي الليلة الأولى التي أبيت فيها هكذا، فقد أمضيت الكثير من الليالي في اصطبلاتٍ فارغةٍ وقاطراتِ شـاحناتٍ روسـيةٍ قديمـةٍ مهجورةٍ في قمة جبـال طانري، لكن، هذه الليلة، كان البرد المتسـلل إلى عظامي يسـتقر في كليتي كخنجرٍ خفيٍّ، ويوقظنـي مراتٍ ومـراتٍ من شـدة الآلام التـي صاحبتني مـدة عامٍ ونصف. أما أبي، فقـد بقي مسـتيقظاً يراقب النجوم بعينيـه الجميلتين وهو يدخن سجائره المتبقية.

أحياناً تمر فـي حياتكم لحظـاتٌ فريدةٌ تُحـس قلوبكـم بدفئها الذي يَسْرِي فيها طيلَـةَ حياتِكُـمْ. وأنا فـي تلـك الليلة كنت أشـعر أننـي أعيش تلك اللحظات النادرة. سَـعَلْتُ سـعالاً خفيفـاً، وتمتم والدي بـكلام أكاد لا أتذكـرُّهُ... ربما كان يتحـدث عن النجـوم وعظمة الكائنـات... هممت بالنهوض قليلاً ومشـاركته ببعض الكلمات، فربما تكون تلك هي الفرصة الأخيرة. ولكن الأمر الوحيد الذي اسـتطعت القيام به هـو أنني نظرت إلى النجـوم بألوانها الزرقـاء المخضرة في صفحة السـماء البـاردة، وغبت عن الوجود مجدداً. ربما كان بإمكاني حمل نفسـي على السـهر معه، لأقاسمه وحدته وصمتـه كما كنت أفعل فـي الآونة الأخيرة، لكننـي حينها كنت في غاية التعب والإرهاق... وكان البرد قد جمـد الدماء في عروقي وأعضائي الداخلية... لـذا، استسـلمت للنوم وأنا أحـدق إلى خيال والـدي المتوجه نحو اللانهاية وكأنني مريضٌ أصابه الشلل.

منذ ما يزيـد على الشـهرين، لفظ والدي أنفاسـه الأخيـرة في إحدى

مغامراتنـا، فـي غرفة فنـدق يبعـد سـتة آلاف كيلومتر عـن منزله. لـم أكن برفقته، ولو كنت فما الذي سـيتغير؟! ألم تكن حياتنـا كالانتحار؟ ألم نكن مشـردين هنا وهناك؟ لقد كان وحيداً، وجيبه الفارغ يشكل مأساة وحده... وحياته التي سـعى فيها للفوز دائماً ختمهـا بالهزيمة. لكنـه كان رائعاً حتى في هزائمه، وربما كانت الانتصارات الصغيرة التي تسـللت إلى منعطفات هزائمه أكثر قيمة.

ربما تعجـز الكلمـات في أكثـر المواقـف عـن التعبير عن المشـاعر وتقزمها، وتكون مبعث ملل في الدماغ، وتثير أسـئلة التعجب والاسـتفهام فـي العيـون، لكننـي أعتقـد أنـك تفهمني يـا قارئـي الكريـم. أكتـب هذه الكلمات مـن غرفة فنـدق منعزل بمدينـة بلخ في شـمال أفغانسـتان، أطل منها على أطلال هـذه المدينة التاريخية القريبة من مزار شـريف. أتأمل في ظلالها، وتطن فـي أذني نداءاتها ودعواتهـا، وأنت تكاد تحـس بما ينتاب أعماقي من مشاعر...

موسم (سانري)

I

«لأن البطولة هي التي تبقى بعد أن أمضي،
ولأن المسعى كان باسم الله، وبإذنه كل ما
عملناه، ولأن نداء الإيمان يدعونا؛ تركنا خلفنا
كل متاع الدنيا وظلت عيوننا معلقةً بالقمم».

جاهد ظريف أوغلو

21 تشرين الثاني 1520 إسطنبول

كنت أركض وأركض، وأنا أشعر بحدة البرد المندفع إلى رئتي المنقبضتين... فأستند في اكتئاب وألم إلى الجدران، وألتقط بعض الأنفاس، ثم أتابع الجري... كانت قبعتي قد سقطت وغابت في الأوحال، وثيابي المبللة تلتصق بجسدي، وسروالي الممزق لا يحميني من حدّة البرد، وجزمتي الممزّقة تخترقها السّيول التي تشكّلها الأمطار... ورجالي، آه من رجالي! لقد فقدتهم... ولم أكن سوى أبله تورّط في فخّ... فإن لم أبادر إلى النهوض من عثرتي، ولملمة ما تبقى من هيبتي، فإن هيبة تشكيلاتنا في أنظار العالم ستنهار! أبعدت شعري المنسدل على جبهتي إلى الوراء بيدي الملطخة بالطين، وتلفّت حولي... لم يكن أحدٌ يبدو في الأفق!

كان المطر شديداً هذا الشتاء في دار السعادة[1]، والتجار الصغار

(1) إسطنبول.

يغلقـون محلاتهم لأداء صـلاة العصر. لقـد أعياني التعـب وداهمتني نوبة سـعال وتغير صوتي فلم أعد أميـزه، وهمهمت فـي سـري: «ليتنـي أتمكن من جمع رجالي، فألقي القبض على أولئك السـفهاء في سراي بورنو قبل حلول الظلام!». توجهت إلى باب قرة كوي سـاعياً بفـارغ الصبر للوصول إلى أش خانة؛ نقطة التجمع الأولى في الحالات الطارئة.

منذ سـاعتين وأنا أتقدم في الشـارع الحجـري الموحـش هابطاً نحو الحديقة المسـتقرة خلف كنيسـة كيركور لوسـافوريج. وكان صـوت أذان العصـر يصدح مـن مـآذن المسـاجد، قبـل أن تصمت مجـدداً واحـدةً تلو الأخـرى. تابعت سـيري على الطريـق الترابيـة المطلـة على المينـاء، وقد تكاثرت علـى طولهـا المحلات التجاريـة بواجهاتهـا الحجريـة، ومخازن التجـار الأغنياء الأجانـب بأعدادهـم المتزايدة فـي الآونة الأخيـرة. كانت الخيول المغبرّة المتعبة مـن أحمالها التي تفوق طاقتها فـي حركةٍ دائمة لا تهدأ، والحمالون الأتراك والقبط يجهدون في نقل البضائع، والعرق يسيل على جباههم السمراء معانداً حدّة البرد.

كان البـلاط الحجري الممتد أمـام الصومعـة الكبيرة تغطيـه طبقة من الأوحال. وكان جاويش العسـس يحقق في مشـكلةٍ ما. وقعـت عيناه عليّ، وتجاهلني متعمـداً... يبدو أنه تلقـى أمراً بذلـك. كانت هناك قافلـةٌ صغيرةٌ من الجمـال التـي تحمـل بضائـع قيمة يحيـط بها عـددٌ كبيـرٌ مـن الحراس المسـلحين، وكانت الرماح المزركشـة التي تتدلـى في نهاياتها «شـرابيات» حمراء مصنوعة مـن أذيال الخيول تشـكل تهديداً وردعاً لمـن حولها. تقدم القافلـة يهـوديٌّ متعجرفٌ يمتطـي حصانـه ملتفتاً يمنةً ويسـرةً، وهـو يتصنع الابتسامة، ويلوح بيده، ويرجع طربوشه الأحمر إلى الوراء، ويلقي التحية... كان لا بد لي من الإسـراع في السـير في مثل هـذا الوقت من النهـار قبل أن ألفت انتباه تجار المنطقة الأغنياء، لذا أطرقت برأسي و سارعت خطواتي...

* * *

ارتحل ولي نعمتي وناصحي ومصدر فخري وسيدي وخصمي الأكبر الذي قتل والدي؛ السلطان ياووز سليم خان الذي أحبه إلى درجة الجنون، ولا أتردد في القتال لأجله... إلى الدار الآخرة، وغاب في الثرى قبل أن أدرك جنازته. كانت أسناني تصطك من شدة الغيظ، ودموعي تجري أنهاراً، وأنا أوجه لكماتي إلى الجدران، وأضحك تارةً وأبكي أخرى مثيراً دهشة الآخرين حولي.

لم أكن أتخيل قط أن يقتل والدي بلا رحمةٍ في شبهة خيانةٍ، وأن أرتقي في اليوم نفسه من مجرد بائعٍ متجولٍ بسيطٍ إلى قائد لأركانه الخاصة، وأن تصبح عائلتي في طرفة عينٍ في وضعٍ معيشيٍّ يفوق الخيال... لقد كان كل ذلك بفضل أبي، فأنا لم أكن عسكرياً، ولا أجيد القتال، ولم أكن سوى رجلٍ متسكعٍ مجادلٍ عنيدٍ.

على الرغم من اعتماري قبعتي الخضراء المثلثة، وارتدائي سترتي الخضراء المذهبة، وسروالي القطني الأبيض، وانتعالي حذائي الأصفر، كنت في حاشية السلطان في وداعه الرسمي إلى أدرنة. كان الوقت بعد الظهر، والسماء تمطر على الحشد المصطف خلف الإمام في فناء القصر، وأنا مطرقٌ لا أستطيع النظر إلى عيني أحدٍ. هكذا هي الدنيا، غالبٌ ومغلوبٌ، وليس أمامي سوى الرضى والرضوخ. لقد خسرنا - أنا ووالدي - المعركة، ونحن مهزومان في أعظم نصرٍ، كنا نحفر حفرةً، وحفر الآخرون كذلك، وفي نهاية المطاف طأطأنا رأسينا كسائر المذنبين الذين يعترفون بما اقترفوه. الهزيمة لها طعمٌ آخر؛ طعم الخيبة والذل... نحن في الأصل من عشائر التركمان قرة كچي [العنز الأسود] الذين اشتهروا بالتمرد الدائم على الدولة العثمانية. فوالدي جعفر من سيفري حصار، لفتت شجاعته وإقدامه في الحروب انتباه السلطان بيازيد، فاختاره وقربه منه وجعله آغا الخدم... ولقد سافر مع السلطان سليم إلى مصر عام 1517، وكان من رؤوس مثيري الشغب، ولذلك أعدم. كانت عائلتنا تنتظر

عند العودة تفضلاً وإحساناً من السلطان، ولكن... رأس والدي المحشور في كيس من جلد الماعز المطلي من الداخل بالعسل كان في انتظار العائلة عند عتبة البيت، فانهارت الآمال وتلوعت القلوب.... كنت وقتها في السجن بسبب عراكٍ اشتركت فيه، ولم يصلني الخبر إلا بعد يومين، ولم يكن المبلّغ سوى الدفتردار سعد الدين باشا، الموكل بتبليغ الأمر السلطاني.

كان السلطان سليم خان رجلاً مهيباً ذا شخصيةٍ قويةٍ، وكانت نظراته العميقة تفعل فعلها في القلوب. اختارني مع من اختارهم من السجناء، فسرى حبه العجيب في قلوبنا، وصرنا منذ ذلك الحين مستعدين للقيام بأي شيءٍ في سبيله... «أنتم الآن مؤسسو الهلال الحديدي[1]، وأعضاؤه». وتابع قائلاً: «أعرفكم فرداً فرداً، وأقدر مهاراتكم، وأعرف ما ارتكبتموه من أخطاء، وأعفو عنكم الآن. ولكن، كونوا على يقينٍ بأن أي خطأ سيعني النهاية لكم ولعائلاتكم. هل فهمتم؟». كنا نصغي إليه، ونحن نتأمل المرافقين من العسكر الذين يحيطون به، والذين يحملون أسلحة ربما نراها لأول مرةٍ، ومعهم الجلاد قرة عمر بنظراته الحادة التي توقف القلوب، وأجسامنا متلاصقة من شدة الخوف، ونحن نحرك رؤوسنا موافقين، ونكتم أنفاسنا. وتابع السلطان قائلاً: «أنتم لن تخرجوا من هنا عبثاً...». كانت عباءة السلطان تسد الباب، ورائحة الدم التي تنقلها الريح المتسللة من أسفل الباب تقلب الأمعاء. «وأنتم منذ الآن لستم مجرمين، بل إنكم رجال شرفاء تخدمون وطنكم».

كنا خمسةً، وجوهنا مسودةٌ، ورؤوسنا منكّسةٌ، وعاد صوت السلطان ليرتفع مرةً أخرى: «إنكم تحت مراقبتي، وحولكم رجال يتعقبونكم كظلالكم، وبحسب أعمالكم يتوقف المقام والمال، إنكم أبناءٌ بائسون لعائلاتٍ متميزة، ومهاراتكم تقدم لكم فرصة حياةٍ جديدةٍ. رئيسكم

(1) الهلال رمز الدولة العثمانية، والحديدي رمز القوة.

وهيمي أورخون جلبي». عندما سمعت ذلك، رفعت رأسي ونظرت إلى وجه السلطان، وتلعثمت، وحرت في ما عساي أقوله من كلام؛ أأفرح أم أحزن؟!

كان جوفي حاراً كما لو أنه قد ألقي فيه حجر خرج لتوه من تنورٍ، وتجمدت قطرات العرق على ظهري بفعل تيار الهواء البارد، وسرت قشعريرة البرد في جسدي، وارتجفت رجلاي، ولم تعودا قادرتين على حمل جسدي. شعرت بدوارٍ شديدٍ في رأسي، وكدت أسقط على الأرض... شعرت بأن وجهي يشتعل ككرة ملتهبة من النار، حاولت إغماض عيني مقاوماً الشعور بالإغماء. أعرف أن الجدران الحجرية المتفحمة تلقي بظلالها القاتمة على صدري، وقلة الهواء في الزنزانة تكاد تخنقني... أغمضت عيني، وتنفست بعمق، وضغطت على لساني بقوة؛ لأستعيد إحساسي ووعيي، ثم فتحت عيني، وبدأت أتحسس الضوء والظل والألوان وهي تعود إلى طبيعتها. كان الضوء الأحمر والأصفر يشوهان الوجوه، وبدا وجه السلطان عابساً. لعله كان غاضباً مني لأنني لم أشكره... انحنيت على ركبتي أمام السلطان، وقبلت طرف عباءته ووضعته على رأسي... وفكرت في سرّي: كيف يزدهر الحب مع الكراهية في بدنٍ واحدٍ؟ كيف يمتلئ قلبي بحب قاتل والدي؟!

أمرني السلطان بالنهوض، وصرف الجميع بإشارةٍ من رأسه، ولم يبق غير الجلادين الصامتين. رغبت في الهرب والجري على طول الدهليز الممتد الذي لا ينتهي في سجن بابا جعفر. هل يريد أن يقتلني؟! ولكن، لماذا سيلجأ إلى الكذب لو أراد قتلي؟! وعندما أدركت ذلك، شعرت ببعض الطمأنينة، وارتخت مثانتي، وشعرت بالعار يسري في خلايا جسدي... لم أشعر بمثل هذا الاضطراب في أعوامي الاثنين والثلاثين؛ إنها هيبة السلطان!

اقترب السلطان بجسمه الضخم مني وهو يقول: «ابدأ بتنظيم

التشـكيلات سـريعاً عندما يصلـك فرماني». وكدت أسـقط علـى الأرض حيـن وضع يـده القويـة على كتفـي: «وزيـري الأعظـم بيري محمد باشـا سـيبين لك ما نريده من هذه التشـكيلات. أعلم أنك تتقن القراءة والكتابة، ولذلك سـتقدم له تقريـراً مفصـلاً عقـب كل مهمةٍ تقـوم بهـا. وإذا أردت مسـاعدةً خاصةً أو أردت لقائي، فسأرسـل لك بطاقة مـع الفرمان تمكنك من الوصول إلي من دون انتظار».

كان هذا السـلطان ببشـرته البيضاء المشـرقة، وشـاربه الكثيف الذي يهتز عندمـا يتكلم، يخفي سـراً غامضـاً يجعله السـلطان الـذي يتمكن من تحويل مشـاعر البـؤس والوحـدة والغربة والحقـد التي كانـت تجيش في صدر رجـلٍ مثلي إلى الرغبة فـي التضحية في سـبيله، والإخلاص له حتى الممات.

II

توقفت في إحدى الزوايا المطلة على فناء الجامع العربي لأستمع إلى زقزقة عصافير الدوري المتجمعة تحت أشعة الشمس الشاحبة التي بدت كألماسة مغبرّةٍ تحاول إخفاء بريقها وهي تميل نحو الغروب. لست أدري كم مضى من الوقت قبل أن تنتهي الصلاة ويبدأ المصلون بالخروج عبر الباب الرئيس. أسندت ظهري إلى جدار مستودعٍ باردٍ تعلوه الطحالب مراقباً الجموع، علني أرى بينهم سافينو.

كانت الحرب التجارية بين أصحاب المخازن المبنية من القرميد الأحمر من الكاثوليك وسكان الحي الأرثوذوكس أصحاب القبعات السوداء على قدمٍ وساقٍ، بسبب التوتر التاريخي المذهبي بين الطرفين. وكانت الشجارات الدامية التي تحدث من حين لآخر لا تكاد تبدأ حتى تنتهي قبل وصول العسس؛ إذ كانوا يرفضون تدخل الأتراك في مشاكلهم. وكان المستوطنون الأجانب أيضاً لا يرتاحون لازدهار تجارة السكان الأتراك الأصليين في أوطانهم الأصلية ويتآمرون عليهم.

سرت بين المسلمين فكرة كانت ذات تأثير كبير؛ إذ لا ينبغي للمسلمين أن ينخرطوا في التجارة الدنيوية كاليهود والنصارى، وعند بلوغهم الأربعين عليهم أن يحجوا إلى الأراضي المقدسة، ثم يتفرغوا للعبادة بعد عودتهم وينصرفوا عن التجارة كلياً. وكلما انتشرت هذه الفكرة اكتسبت قوةً وترسخت عند عامة الأتراك، وازدادت العراقيل أمام النبلاء الأتراك الذين أقصوا عن الحياة التجارية الكبرى بسبب التحالفات التجارية القائمة.

من جانب آخر، كانت خطوط التجارة قد بدأت تتكاثف في الموانئ

المنتشرة على الخليج، وبدأت تجارة الحبوب القادمة من القرم والبحر الأسود إلى ميناء أون قباني[1] تتخذ الطابع التركي تحت تهديدات اتحاد العمال الأتراك. وربما كان من الطبيعي أن يطالب الأتراك أن تكون لهم كلمةٌ في تجارة البلد؛ غير أن الأتراك بطبيعتهم مزارعون يتميزون بالطيبة وسهولة الطباع. وأنا كتركي لم أكن أتصور أنه بإمكان الأتراك النجاح في هذه الأعمال التي تتطلب المكر والخديعة.

لقد ظهر جلياً أن المعلومات التي تلقيتها من جواسيسنا كانت صحيحة. فها هو لويجي سافينو يصافح جماعة المصلين عند مدخل الجامع العربي. وكان القنديلان المعلقان على ساريتي الباب الخارجي والمصنوعان من المرمر يعكسان ضوءاً أصفر جميلاً ينير الوجوه ويظهر الصفاء المتفجر من القلوب.

ويعتبر لويجي سافينو من أهم جواسيس منظمة الصليب الحديدي التي أسسها البابا ليو العاشر سيئ الحظ بإصداره صك حرمان مارتن لوثر[2] من دخول الكنيسة بسبب آرائه الإصلاحية... نعم، كان لويجي من أكثر جواسيس هذه المنظمة كفاءةً، لكنه ضرب فأسه هذه المرة بالصخر، فقد كنت أنا وهيمي أورخون جلبي ورجالي في مواجهته الآن. لم ينج متورطٌ من قبضتنا حتى الآن، فنحن نستطيع تبديل قيافتنا ولباسنا كما نشاء، ونتسلل بين الجموع، ونمثل أدوارنا بمهارةٍ، ولا فرق عندنا بين مظهر متسول أو أمير في بلاط. وقد كنت في زياراتي المتكررة لأوروبا معجباً بفن المسرح الذي يعرف عندنا باسم المداح، ولذلك كنت أقوم

(1) ربما كان هذا الاسم نابعاً من كون الميزان هناك متخصصاً بوزن الحبوب والطحين. فإن كلمة أون تعني الطحين، وقباني تعني الميزان المعروف.

(2) مارتن لوثر (1483–1546) زعيم ديني نصراني إصلاحي، أهم مبادئ دعوته الإصلاحية: إباحة الطلاق للنصارى، وإلغاء الحج إلى روما، وعدم احتكار البابا الحق في تفسير الإنجيل، وإخضاع رجال الدين للسلطة المدنية، وإباحة الزواج للقساوسة، وإلغاء الرهبنة.

دائماً بالأدوار الصعبة، كما كنا اليد الخفية التي تنزل العقوبات خارج الحدود، وتنفذ الاغتيالات، وتقوم بأعمال التجسس الحرجة والصعبة، وكنا الصوت الخفي الذي يمنح الأمل، والنفس الذي يمنح الحياة للدولة. وكنا السند الحقيقي لمسلمي السواحل الإفريقية الشمالية في مقاومتهم الأطماع الإسبانية، وكابوس البرتغاليين الذين فرضوا خراجهم وأتاواتهم على موانئ المسلمين في المحيط الهندي، وأنصار القازاق في مواجهة الموسكوف الروس، وكنا البلاء المؤكد للصفويين الطامحين إلى توسيع نفوذهم إلى بلاد تركستان الشرقية. وكنا محط أنظار الفاتيكان، ومبعث قلق لها في دعمنا لوثر. لم يكن من الممكن تجاهل جواسيسهم، غير أننا لا نقبل أبداً أن نقارنهم بجواسيسنا.

لقد بلغني بادئ الأمر ظهور سافينو في باحة معمل الشمع الصغير خلف مخازن الفحم في ميناء الزيوت. وبدأت فرائص صاحب المعمل لورنزو دالاسيو ترتعد لدى رؤيته الجلاد قرة عمر واقفاً قربي بحزامه اللامع، وقبعته المصنوعة من شعر الماعز والتي تميل قليلاً على رأسه الحليق. لم يبد أي مقاومة، وترك مبلغاً كبيراً من المال للجلاد حتى يقتله بأسرع طريقةٍ، وسلمني وصيته، وانتزع ميداليته الذهبية وساعته وخاتمه وما شابهها وتركها أمانة عند المعلم الأسطة ليقوم بتوزيعها على زوجته وبعض أقاربه وأصحابه.

أجاب بكامل وعيه ورشده عن أسئلتي قبل أن يموت: نعم، إن سافينو العدوَّ الأولَ لأوروبا والعالم الكاثوليكي يسعى لإعادة بناء تنظيم جديد داخل الدولة العثمانية التي يحتمي بها الأرثوذوكس، مركزه في إسطنبول، وهدفه الأول أن تكسد تجارة السفن التي تعود للمسلمين السنة في الأناضول في كل الموانئ التركية والأوروبية. فمن المتوقع نشوب صراعات كثيرة بين أصحاب السفن وتجار الحبوب من المسلمين الأتراك السنة؛ وعندها سيساند الصفويون سافينو بلا شكٍّ.

كان الشاه إسماعيل راعيا للأتراك المتشيعين، وكان يشكل خطراً وتهديداً ورعباً للأتراك السنة. ومنذ زمن المرحوم السلطان بيازيد والشاه يحرض على العنف الطائفي من خلال شبكاته التجسسية، ولا يتردد في عمليات الإبادة الجماعية للقبائل السنية الثابتة على مذهبها، وفي تهجير القبائل الأخرى من مراكز المدن، علاوةً على اتباعه سياسة مؤثرة في حق القبائل التركية السنية في الأناضول؛ مما أدى إلى تضرر هيكل الاقتصاد العثماني القائم علي الزراعة بشكل رئيس. ومما زاد الوضع خطورة، اتباع السلطان بيازيد سياسة بسيطة تقوم على حقن الدماء. وأصبحت بلاد فارس التركية الصفوية ملاذاً للقبائل التي تقاوم حكم السلطة المركزية، وللعشائر المرتحلة التي تجبر على الاستيطان. وتحولت القبائل التي وجدت تقارباً بين المذهب الشيعي والعقائد الشامانية القديمة إلى مصدر خطرٍ داخل الدولة العثمانية. والطريف في الأمر أنه بينما كانت العشائر الكردية السنية تثبت على مذهبها، وتكون خير مناصرة للسلطان سليم خلال أسفاره إلى بلاد فارس ومصر وبلاد الشام، وتتحول إلى النفوذ العثماني بفضل السياسة الفريدة التي اتبعها العالم الجليل إدريس البتليسي، كانت القبائل التركية المؤسسة للدولة ترسم طرقاً مختلفة ومتفرقة. ولا ننسى هنا أن نعتبر الممارسات السلبية للإداريين الذين استغلوا الآلية اللينة التي كانت إدارة الدولة تقوم عليها من المسببات المهمة في نشوء هذا الوضع.

نعم، لقد كانت حملات المرحوم ياووز سليم خان التي شنها في فترة إمارته من دون الحاجة لقرار من المركز، والمسألة الشرقية التي تتمركز حول الدولة الصفوية في أثناء توليه السلطة من أسباب تأمين وحدة الأناضول والمحافظة عليها. والضربة التي تلقاها الصفويون في جالدران عام 1514 كانت ساحقةً، ولم يتمكنوا حتى الآن من استرداد عافيتهم، ويبدو أنهم لن يتمكنوا في القريب المنظور من الوقوف على أقدامهم،

وهذه الأبيات الشـعرية للسـلطان سـليم خان تبين أنه قد وهـب حياته في سبيل وحدة الأناضول:

القلق من الاختلاف والتفرقة في أمتي
يجعلني عاجزاً حتى في قبري
والاتحاد حيلتنا في دفع العدا
واختلاف أمتي يطعن روحي

III

لم يكن لويجي سافينو رجلاً عادياً مهملاً، ولم يكن أحدٌ يجهل أنه يستمتع بشهرته المخيفة التي يشيعها حوله بوحشيةٍ أحياناً. كانت يداي تمسكان بجانبي خاصرتي، وعضضت على لساني فانتشر الدم في فمي وحلقي، ألهذا الحد أكون غافلاً في أرضي وبلدي!؟ لن أسمح لنفسي بأن تغفل أبداً!

كان سافينو معروفاً بشدة ارتباطه القلبي بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية، لكنه أيضاً كان لعبقريته ودهائه متمكناً في بعض المسائل الفقهية الإسلامية، حيث ألمّ ببعض القضايا الدقيقة في الفقه الإسلامي. وكنت أعرف أنه يحفظ نصف القرآن الكريم، ويطبق أحكام التجويد كالإخفاء والإظهار والقلقلة بدون ترددٍ، حتى إنه كان من المستحيل أن يصدق الناس أنه غير مسلم. كان يبلغ الخامسة والخمسين من عمره، ويملك قوةً بدنيةً وكأنه شابٌّ في الثلاثين. وهو يعرفني جيداً، ولكن الأفضلية التي كنت أتمتع بها هي أن جاسوس الفاتيكان الخبير هذا لم يكن قد رأى وجهي قطّ، وكنت قد رأيته من قبل، وأنا لا أنسى مطلقاً شخصاً أراه؛ ولو لمرة واحدة. فقد كنا عدة مرات في مهمات متقابلة في أراضينا في مرتفعات البلقان ووسط أوروبا، ودخلت ذات مرةٍ مع سبعة عناصر من رجالي فخاً أعده لنا فحاصرنا. حتى إنني اضطررت إلى التضحية باثنين من رجالي في سبيل النجاة من قبضته والفرار. وللأسف، كان أمراً طبيعياً أن يتخلى أحدنا عن صديقه في مهنتنا، وأن يباع من قبل أصدقائه؛ فالجاسوس لا يثق إلا بنفسه، ولا ينتظر المساعدة من غيره، وعليه أن يحل مشكلاته بنفسه.

ورغم كل ما حصل، لم يتمكن سافينو من رؤية وجهي، ومهارته التي لا يستهان بها لا يمكن أن تبلغ قدرتي. لكن، لا يمكن التغافل عن هذا العجوز أبداً، فهو الآن هنا لأمرٍ ما، ولم يكن صعباً أن تعلم أن الإمدادات كلها كانت تأتيه من الأتراك الصفويين، وتمييزهم بين حشود من الناس أمرٌ عسير. ترى، لماذا خطت الفاتيكان هذه الخطوة مباشرة بعد وفاة ياووز سليم خان؟! هل لها علاقةٌ بلوثر؟! كان البابا ليو العاشر - واسمه الحقيقي جوفاني دي ميديشي - يدرك أن الدولة العثمانية الأقوى في العالم تدعم كل من يسعى إلى تفتيت الاتحاد الكاثوليكي، لذا عليّ أن أكون يقظاً لأحول دون أي اغتيال؛ وعلى الأخص في الأيام الأولى من حكم السلطان سليمان. ولهذا السبب، لم أكن أنام الليالي، وكنت أسهر على جمع المعلومات، وتمكنت في الختام من محاصرة سافينو.

لمحني سافينو عند باب المسجد البرونزي المزخرف. كان أنيقاً في مظهره؛ لحيته طويلةٌ شديدة البياض، ويرتدي جبةً من الكشمير الأبيض مطرزة بخيوط الفضة، وعلى رأسه عمامةٌ خاصة بالعلماء. كان ينشر حوله هالة من الاحترام، وكان الناس يقبلون يديه، ويسألونه الدعاء، ويلتمسون منه البركة، وكان يجيب عن أسئلتهم بالعربية الفصحى والأعجمية. وعندما أدرك الناس أنه لا يتقن التركية، بدأت أصواتهم ترتفع بشكل غير معقولٍ وهم يجهدون في بيان أسئلتهم. كان سافينو يعرف التركية كلغته الإيطالية الأم، لكنه رأى أن هذا الأسلوب مناسب لهدفه؛ إذ كان يعرف من تجاربه أن الأعاجم لهم في هذا البلد حرمةٌ مطلقةٌ، وبهذه الطريقة كان يتخلص بسهولةٍ من الأسئلة المزعجة. وأنا لا أستطيع إحصاء عدد المرات التي استجوبتني فيها قوات الأمن في الموانئ الإيطالية التي أتكلم لغتها كلغتي الأم في شبهاتٍ غامضةٍ غير محددةٍ، وفي كل مرة كنت أنجح في التصرف بشكلٍ طبيعيٍّ وأبدو في صورة تاجرٍ ماهرٍ، ولست أدري إلى متى سيستمر هذا الأمر.

لا بدّ أن يكون سافينو قد لمح في نظراتي معنىً مختلفاً حتى تقهقر إلى الوراء وهو يبتسم للجموع، أدركت أنه يحاول اللجوء إلى أحد الأعمدة القائمة خارج الفناء ليحمي ظهره العريض، وفي عينيه الزرقاوين ما يشير إلى توتره. سألت نفسي بغضبٍ: لماذا لا أستخدم حيلةً قديمةً؟ فإذا أردت مراقبة إنسانٍ ما فإن أفضل طريقة هي أن تبدو وكأنك لا تهتم به. لذا، ركّزت انتباهي على محيطه. والصينيون قديماً كانوا يقولون: إن العين ترى محيط نقطة التركيز بشكل أفضل، وهكذا تنشأ الحاجة إلى مراقب جديدٍ متخصص. والطريقة الوحيدة لتلافي هذا الوضع هي القيام بخطوة إلى الأمام.

عدت أدراجي، وتظاهرت بأنني أبتعد، واختلطت بالجموع التي تفوح منها رائحة المسك وماء الورد. كان المصلون يخرجون من الباب الرئيس، وتركت درهماً من الفضة على منديل متسول أعمى كان يقف على بعد أذرعٍ من جدار المسجد المنخفض المغطى بالطحالب، وهمست في أذنه بهدوء. وفي هذه الأثناء، كانت الظلمة تخيم على الشوارع الخالية تماماً، وهبت عاصفةٌ ثلجيةٌ باردةٌ.

لم أكد أبتعد عشر أذرعٍ حتى تعالت ضجةٌ أمام باب المسجد. هذا يعني أن المتسول الذي كان من رجالي اعتدى على أحد فجأةً وفق تعليماتي. وأنا بدوري انسحبت من بين الجموع، وتسللت إلى الزاوية الأخرى في الجانب المطل على البحر، وسرت في الشوارع الخلفية الخالية متجهاً إلى الباب الخلفي لأتسلل منه إلى فناء المسجد. ولكنني أدركت سريعاً أن من أواجهه ذئب مثلي وليس خروفاً، فهو يعرف كيف يحوّل الوضع الصعب لصالحه. تمكنت وسط الفوضى من التقدم بسرعةٍ على طول الجدار الشرقي من دون أن ألتفت ورائي حتى دخلت الفناء، ولكنني فوجئت برجالي وقد اعتقلهم العسس. أما سافينو فلم يكن قد ترك مكانه وهو يراقب المكان خلفه، ولا يمكن القول إن الناس قد قل عددهم

حوله كثيراً. فلا بد أن سافينو قد اشتبه بشيء ما ولكنه لم يكن متأكداً منه. وفي الحقيقة، كان ذلك يكفي لتحركه. ولكن، لا بد لكل إنسانٍ من لحظة يغفل فيها، أليس كذلك؟! تسللت يدي إلى خنجري تحت حزامي الجلدي، فأمسكت به. وعندما كنت أتسلل بين الجموع الحائرة مقترباً من سافينو أدركت أن اثنين من رجالي كانا بالقرب منه، لقد قاما بعملٍ جيدٍ يستحقان المكافأة عليه.

عندما رآني سافينو أقترب منه مرةً أخرى، حسب أنني رجلٌ من عامة الناس لا يخشى منه بأسٌ، ورأيت كتفيه المتوترتين تسترخيان، لكن ذكاءه الشيطاني وخبرته التي تستعصي على الخيال أبقياه في حالة حذر وترقب، وقام بما توقعته، إذ امتدت يده من بين عجوزين كانا يقفان أمامنا، وأمسكني من كتفي، وسحبني إليه... إنه يتبع استراتيجيةً دقيقةً، فالجاسوس المدرّب إن شعر بمصدرٍ للتهديد، فهو لا يهرب كما يفعل معظم الناس، بل يتأكد أولاً. وإن تمكن من التخلص من مصدر التهديد في صمتٍ وهدوءٍ فلن يتردد، وها هي يده تمتد إلى مقبض خنجره الذي وضعه تحت حزامه، يبدو أنه سيتخذ قراره وفقاً لرد فعلي.

إن أولى علامات التوتر عند الإنسان تبدو في عضلات رقبته وكتفيه. والتدريب من أجل السيطرة عليها مهم جداً للجاسوس؛ فعليه تتوقف حياته ومصيره. وقد كان المرحوم سليم خان يولي ذلك التدريب أهميةً كبرى علاوةً على التدريبات البدنية الأخرى. ولذلك، كان رحمه الله بارعاً في السيطرة على غضبه الرهيب، ويسيطر على توتره في ساحات الوغى والقتال، ويتخذ القرارات الصائبة التي تدل على مهارته.

تتم السيطرة المباشرة على التوتر بحني الرأس قليلاً نحو الأمام، وعدم ابتلاع الريق لمدة عشر ثوانٍ، ثم ابتلاعه بعد ذلك. فالأعصاب تنشغل في تلك اللحظة بتأمين إغلاق مجرى التنفس لتأمين سلامة الابتلاع في تأخير بسيطٍ يؤدي إلى استرخاء عضلات الرقبة والكتفين.

والجاسوس المدرب يتمكن من القيام بالعملية بنجاحٍ، ويستغل هذه اللحظات لاستعادة هدوئه ورباطة جأشه.

وضع سافينو يده على كتفي وهو يقول: «نعم يا أخي؟! يبدو أنك تعاني من مشكلة ما!».

دفعني طولي أمامه إلى الانحناء قليلاً، ولا مكان للمفاجآت غير المتوقعة في مهنتنا، وكان لا بد من الرد على مبادرته بأحسن منها، فقلت مبتسماً: «نعم يا سيدي. إن مولانا السلطان المرحوم ياووز سليم خان أسكنه الله فسيح جناته لم يتردد في شن حملاته على العالم الإسلامي بدلاً من محاربة الكفار، والأهالي يفكرون: هل يقاتل المسلم مسلماً؟ وإن قتل فهل يكون شهيداً؟ وإن بقي فهل يكون غازياً؟».

أحسست بأنه بقي حائراً للوهلة الأولى. كان واضحاً أنه يريد أن يتجنب الخوض في مثل هذا الموضوع الحساس الذي كان مثار الفوضى والقلاقل بين الناس.

«أظن أن هذه الأسئلة قد أُجيب عنها في وقتها يا ولدي». وتابع وهو يتصنع الابتسامة: «يجوز الزحف حيثما تطل الفتنة برأسها. وبالتأكيد يكون من يحارب الفتنة فاتحاً».

ولأنني كنت أتوقع منه هذا الجواب حاولت محاصرته بمناورةٍ أظن أنها ذكيةٌ: «إذا كانت الحملة على الصفويين الأتراك الذين عملوا على تحريض التركمان البسطاء وعلى إثارة الفتن الإثنية في الدولة العثمانية محقة ضمن هذا المفهوم؛ فما الذي تقوله بشأن حملته على الدولة المملوكية التركية؟».

أدرك سافينو عندها أنه اصطدم بصخرةٍ صلبةٍ صماء، فبدأ يتلفت حوله وينظر إلى الجموع ممن تجمعوا حولنا، وأجاب وكأنه يريد الهروب: «إن فتوى حضرة مولانا شيخ الإسلام علي أفندي الزنبيللي واضحة في هذا الخصوص».

فبادرت بـدون انتظـارٍ: «لكن مـا قاله حضـرة المفتي أفنـدي لياووز سـليم خان واضح أيضاً: انتبه لنفسـك أيها السـلطان، إن عصيـت الحكم فسـأصدر فتـوى، وأخلـص الأمـة مـن شـر سـلطانٍ لا يسـتجيب للشـرع مثلك!».

«إن صيانة شـرف السـلطان في بعض الأحيان تكـون بمثابة الحفاظ على شرف الدولة أيها الشاب!».

إن الفرصة قـد حانت لشـدّ الحبل الذي أظـن أنني قـد وضعته على عنقه: «وفي مثل هـذه الحالـة، تقولون إنه يحق للسـلطان أن يسـفك دماء المسلمين!».

عقـد سـافينو يديـه علـى بطنـه مـن دون أن يفقـد شـيئاً مـن هدوئه، وضحـك بصـوتٍ جميـلٍ وتابع: «حاشـا للـه، لا يمكنـك أيها الشـاب أن تمسـكني بما لم أتفوه به. وما يمكننـي أن أقوله في هذا المقـام هو التالي: إن المماليك لم يعودوا قادريـن على ضمان أمن طريـق الحجاز، ولم يعد بالإمكان إبقاء مسـؤولية الحفـاظ على أمـن الطريق على عاتقهـم، فطريق الحجاز مهددة بهجماتٍ لا ترحم من قبل فرسـان رودوس والمسـتعمرين البرتغال والقراصنة الإسـبان الذين لديهم أطماع فـي المنطقة. علاوة على أن موقف أمير عشـيرة ذو القادر من سـليم خان كان واضحـاً، على الرغم من كون أبناء العشـيرة أحفاد علاء الدولة بـوز قورت بك. فقـد اتبع دائماً سياسـةً تميل إلى المماليـك، وبقيت كل طلبـات العون منهـم في حملاته ضـد الصفويين بلا جـواب، فكانـوا يخافـون منـه، والخيانة ابنـة الخوف، وقـد أدرك عـلاء الدولة بـوز قورت حذر سـليم خـان وقوته منـذ فتوحاته الأولـى في بـلاد فـارس والقفقـاس. وكان حفيـده يعـرف أنه سـيأتي يومٌ يضع فيه سـليم خان عينـه على إمارتـه، ولذلك اتبع سياسـة الوقـوف تارةً مع الصفوييـن، وتارةً مـع المماليـك، ودائماً ضـد العثمانيين، وقد سـانده السـلطان المملوكي قانصوه الغوري في المحافظة على اسـتقلاليته ليكون

بمثابة منطقة أمانٍ عازلة بينه وبين سليم خان. وينبغي هنا ألاّ ننسى أن الشريك في الفتنة كموقدها».

كاد أن يقنعني هذا الملعون، فأضفت سائلاً: «ألم يكن بالإمكان أن يتبع سليم خان سياسةً يعتمد من خلالها على قوة المماليك ضد فرسان رودوس والمستعمرين البرتغال والإسبان؟ ألم يكن بالإمكان أن يتبع سياسة أبيه السلطان بيازيد وليّ[1] الذي كان شفوقاً بالمماليك وأبناء عشيرة ذو القادر، ولجأ إلى الدبلوماسية مع إسماعيل فقط لأنه كان يخشى سفك دماء المسلمين؟».

«إن أداء الفن الذي يسمى ديبلوماسيةً يحتاج إلى فريق عملٍ متمكنٍ، ولا يكون في الغالب كافياً أيها الشاب».

بدأت الهمهمات تعلو من حولي، ربما تجاوزت حدي في هذا الموضوع، وسافينو مستمر في مناقشتي بمهارةٍ فائقةٍ تجعلني أبدو سطحياً. كان الهواء البارد يطفيء قليلاً النار التي تثير الجفاف في فمي، وكان لا بد لي من المتابعة حتى النقطة التي لا يمكن العودة منها، فقلت في حدةٍ: «إنهم مسلمون، وعلى المرء أن يشير للأخطاء بصوتٍ عالٍ كما يبين الصواب أيها العجوز. وغياب الرحمة التي يحملها سليمان خان وجده بيازيد عن أبيه سليم خان على سبيل المثال، جعل هذا الأخير يسخر العلماء الأفاضل ويشركهم في أهوائه».

شعرت بأن شخصاً ما يمد يده نحوي ويمسكني من كتفي بقبضته القوية، ربما كان يريد أن يوقفني عند حدي، فتدخل سافينو الذي كان يحاول أن ينأى عن أي توترٍ أو مداخلة أمنية، وقال بابتسامةٍ مهيبةٍ وقورةٍ: «إخواني المسلمين، اسمحوا لي أن أتكلم، أنتم تعرفون أن لغتي التركية ضعيفةٌ، وأعتقد أن بينكم الكثيرين الذين يشاطرون أخانا هذا القلق، ولا يكفي أن نبقى صامتين، بل ينبغي أن نناقش المشكلات بتفكير سليم،

---

(1) اسم مركب.

واحترام لآراء الآخرين، وعليكم أن تباركوا لأخيكم هذه الشجاعة».

فهمهم الشيخ الذي أمسكني من كتفي والذي يبدو من انحناءة ظهره أنه في أواخر السبعينيات قائلاً: «إن الصواب لا يقال في كل مكان، فهناك أمورٌ لا يستطيع إدراكها الخونة الكافرون بالنعمة. لقد امتدت دولتنا إلى غنى مصر، وتأمنت طرق الحج، ولا تنسوا أن مقام الخلافة انتقل إلينا بفضل سليم خان جعل الله الجنة مكانه».

وشد صوتٌ غاضبٌ انتباه الجميع وهو يقول: «لا». فالتفتوا إلى بائع سمكٍ معقوف الشاربين تفوح منه رائحة السمك، والذي تابع قائلاً: «إن الخليفة ينبغي أن يكون من قريش، وهذا أمرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يقبل بعد كلامه كلام، ولا بعد حديثه اجتهاد!».

فرد عليه الشيخ: «يا ولدي، عندما تقتضي الظروف، ولا يكون بين القرشيين من هو أهل للخلافة، يجوز لمؤهلٍ من غيرهم من الشعوب أن يتولى الخلافة نيابةً عنهم».

جمد الرجل في مكانه، وعلت وجهه حمرة الخجل، واستعصت في فمه عشرات الكلمات التي لم يتمكن من الإفصاح عنها. على أي حالٍ، لم يلبث الرجل صامتاً لفترة طويلة، فالتقط نفساً عميقاً، وعقد ذراعيه أمام صدره، وشرع في الكلام مذكراً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخلافة من بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون بعد ذلك ملكاً». وأضاف: «ثم من قال لكم إن المماليك لا يمكنهم حماية طريق الحج؟! فكل الناس يعلمون أن قانصوه الغوري رجل خبير ورحيم، وحماية طريق الحج بالتأكيد مسألة تهم كل دولةٍ في بلاد المسلمين. وما يشاع مجرد سياساتٍ، وتلفيقاتٌ مختلقةٌ لتبرير سياسات الدولة، وإخضاع المسلمين تحت سلطتها...».

عندها، صاح رجلٌ من أتباعي قائلاً: «إنه قزل باش[1]! ليس لديه

(1) أي رافضيٌّ، لقب يطلق على بعض فروع الشيعة.

هم سوى إثارة الفوضى في هذا البلد!». وأضاف آخر: «وكل القزل باش يكيلون الشتائم لبعض الصحابة الكرام». وصاح صياد السمك: «وهل قتلتم مئة ألف قزل باش من أجل ذلك؟!».

فتحدث مجدداً الشيخ الذي تكلم آنفاً: «إن هذا كذب وافتراء. لقد اشترك في تلك الغزوة ثلاثة من أولادي، واستشهد منهم كاتب محرر. ولو كانت المذبحة كما تقول، لكنا قد رأينا سجلات ضخمة لدفاتر الضرائب التي تسجل أسماء هؤلاء. ونحن لا نرى في هذه السجلات سوى أسماء ثلاثة آلاف؛ وأولئك كانوا ممن يسعون في الأرض بالفساد ويهدفون إلى نشر الفتنة، ويجعلون بيوتهم مهداً لها».

تلفت الرجل حوله خائفاً وهو يقول: «أنت تتكلم بلسان الدولة أيها الشيخ».

«الدولة؟! لا أيها الشاب. أنا لا أتكلم إلا بصوت قناعتي ووجداني. والحقيقة لن تبقى أبداً أسيرة الكتمان، وكتمانها يخالف طبيعتها. وإن دفنتها ما شئت في الأعماق، فإنك لن تتمكن من منع ظهورها ذات يومٍ!».

«كلما شحت واردات الدولة ازدادت مظالم التركمان. ولا أحد يرى ذلك أيها الشيخ، فطريق الحرير والبهارات لم تعد مجدية، وأنا صياد، وفي الوقت الذي يضيق علينا فيه البحر المتوسط، يتجول البرتغاليون والإسبانيون كما يشاءون في المحيطين الهادئ والهندي. وبينما نحن نتحدث هنا الآن، تراهم يسعون في تلك البقعة التي يسمونها أمريكا، ويصبحون أغنياء، ويتحدثون عن مدينة من ذهب إسمها إلدورادو...».

«كل هذا كذبٌ وافتراء يقصد به تحطيم معنوياتنا. ليست هناك بقعةٌ اسمها قارة أمريكا... ولو كانت موجودةً لاكتشفناها، واكتشفها جكا بك وأمور بك وقرة مرسل بك والريس كمال والأخوان بربروس. لا، ليس هناك مكان اسمه أمريكا».

عقد الصياد ذراعيه أمام صدره في ثقةٍ، وتوترت عضلات فكيه،

وقال في لهجةٍ حادةٍ:

«لقد جننت يا صاحب اللحية البيضاء! يبدو أنك لم تسمع بخريطة البحار العظيم الريس بيري، فهذه الخريطة مفخرةٌ للبحارة الأتراك، وفيها تظهر شواطئ أمريكا الشمالية والجنوبية...».

لم ينتظر الشيخُ الصيادَ حتى يكمل كلامه وقاطعه قائلاً: «إن هذا كذبٌ يرمي للإساءة إلى عالم كبير كالريس بيري...». وهز الصياد رأسه يمنة ويسرة وهمهم كمن يحدث نفسه: «لا أعرف أمريكا! ولكنني لم أر من يواسي نفسه مثلك...».

كانت الكلمات الأخيرة للصياد القطرة التي جعلت الكيل يطفح، ولاحظت بخبرتي الطويلة تحركا خبيثاً يتجه نحوي، وكانت يدي ويد سافينو على مقبضي خنجرينا. وفجأةً، فكت النظرات المشفرة لعيوننا، واستللنا خنجرينا معاً، غير أنني لم أتوقع أن سافينو سيتحرك بمثل هذه الدقة.

أمسك عملاء سافينو الصفويون بذراعي، وكانوا قد أحاطوا بي منذ زمن بعيد، فدفع خنجره نحوي بحركة خبيرة ليغرزه كاملا في قلبي، فهذه فرصةٌ لا يمكن تعويضها. شعرت بالذعر يتملكني، ويسيطر على عقلي، وكأنما الزمان قد تحول إلى ذبابةٍ عالقةٍ في جرة مربى، وظهرت مفاصل أصابع يد سافينو شديدة البياض يغطيها شعرٌ شديد السواد... حاولت التراجع إلى الوراء، وانكمشت على نفسي. كان الخنجر الفارسي بمقبضه المزخرف بالفضة يتقدم مني قاسماً الزمان إلى شطرين، وغدا بريق معدنه المضروب على الرمل شعاعاً يحطم كل أقفال أبواب الغرف المظلمة في عقلي. لقد تحول الخنجر إلى مرآةٍ قديمة، ونافذة مفتوحة على الماضي، واستطعت في تلك اللحظة أن أرى كل المشاهد المهمة في حياتي وهي تتدفق من تلك الغرف المظلمة، وتمر أمام عيني بسرعة خاطفة في ظل سيلٍ من الضوء الأرجواني. في تلك اللحظة، انطلق فجأةً رأس سيفٍ مدببٍ حادٍ ليعترض الخنجر، ويحول دون إصابته هدفه بإصبع أو

إصبعين، وطعن سافينو في ذراعه.

لم يكن صاحب السيف واحداً من رجالي، بل كان الريس شرف الدين طوقاتي رئيس رابطة أصحاب الزوارق الصغيرة، وكنت قد التقيته سابقاً عدة مرات. لقد استل سيفه بمهارة منقطعة النظير، ثم وضعه في غمده واستل خنجره وسط دهشة الحاضرين، واشتبك مع رجال سافينو بجرأة تنتزع منهم الإعجاب. وكان سليم خان قد اختاره بعد بطولاته في جالدران ليكون قائداً لإحدى السفن الحربية[1]، ثم أصبح صاحب الكلمة في البحر الأسود بأسطوله الصغير من السفن الشراعية التي تعمل في صيد السمك، وامتلك مستودعاً كبيراً للحبوب في ميناء القرم. وهو يعمل في التهريب أحياناً، ومن بين الأشخاص المهمين في الرابطة، وكان رجلاً شجاعاً لا يخشى المغامرات، واستطاع أن ينجو من ثلاث محاولات اغتيالٍ... وهذا يعني أنني الآن مدين للرابطة بحياتي، وأنا لا أحب أن تكون لأحدٍ منةٌ عليّ وفضلٌ، فكيف إذا كانت المنة في قضيةٍ مصيريةٍ، ولرجل يقود تنظيماً في غاية الأهمية؛ مثلي؟!

استللت خنجري، وشرعت في القتال إلى جوار الريس شرف الدين، ولم أعد أعرف عن رجالي شيئاً، وإن كانوا على قيد الحياة أم لا. استخدمت خنجري بقوةٍ وغضبٍ، واستطعنا الخروج من ممر آمنٍ يفضي إلى الباب الخارجي للمسجد مع عدد من رجال الرابطة الآخرين الذين شاركوا في القتال إلى جانبنا. والجانب الأسوأ في كل ما تعرضت له هو ما ينتظرني في المساء، إذ ينتظر مني إبراهيم البرغالي آغا صديق سليمان آغا الحميم ونديمه وحافظ سره تقريراً عن سافينو، وأنا لا أعرف ماذا يجب أن أقول له، فقد نجا هذه المرة بأعجوبةٍ... ولكن في جعبتي معلومات مفاجئةٌ ربما تشفع لي...

(1) سفينة حربية متطاولة، تعمل بالأشرعة والتجذيف، ويتألف طاقمها من 25 شخصاً.

لن يثق بي أحدٌ إلا أنت
(إبراهيم البرغالي)

I

النفوس الكبيرة كالأنهار العظيمة تتغير أعماقها دائماً.

Panait Istrati (صياد الإسفنج البحري)

12-22 تشرين الثاني 1520، إسطنبول

كانت الريح قاسية على فروع الأشجار الضخمة، وكان بردها أشد قسوةً وأقل رحمةً كشأن كل الجبارين، وكان كل شيء يشير إلى اقتراب هطول الثلوج في الساحات والشوارع الخلفية التي تغطت بأحلام الفخر والاعتزاز، وكانت النوافذ خلف القضبان البرونزية مغلقة بإحكامٍ، فيما أرخى الليل سدوله على المنازل التي شرّعت وجوهها للشمس المشرقة خلال النهار. كانت الرياح الباردة القادمة من البحر الأسود تهب على طول الخليج والشوارع، وتضرب وجهي وكأنها تحرق جبهتي وعظام خدّيّ.

نعم، كنت أنا المسافر الغريب الذي يسير مفكراً تحت وطأة العاصفة الثلجية التي هبت قبل قليلٍ، والذي يشتم الرياح الرطبة الباردة التي تتسرب عبر ثغرات قميصي الأبيض إلى جسدي، وأنا من كان يتخفى خلف جدران الخانات العالية كمحب ابتلت عيناه من لوعة الأشواق.

في بعض الليالي، كنت أجد نفسي واقفاً مكشراً في باحات المساجد الرخامية المهيبة التي يرتجف لها قلبي كمجنونٍ ينتظر همساً سرياً. وفي

بعض الأحيان، كنت أقابل العسس ذوي المناظر الرهيبة في أعماق الشوارع الموحلة، وهم يحملون أسلحتهم والمشاعل الزيتية التي تحمل القطع المبللة بالسائل المصنوع من خليط بول الجاموس والزئبق ودم الكلب. وكانت رائحة هذا السائل القوية تنتشر لمسافات كبيرةٍ فيشمها الأشرار، ويتوارون عن الأنظار بسرعةٍ قبل أن يداهمهم العسس.

ولكنني لا أعرف كيف يمكنني أن أصف المشاعر التي أحس بها عندما تقابلني الابتسامات العريضة التي ترتسم على أفواه الإنكشاريين[1] المائلة، وبريق عيونهم المتوهجة بالبهجة في ظلال المشاعل التي يحملونها؟ إنه إحساسٌ ثقيل وكأن الزمان يقف. وكنت أبادلهم التزلف نفسه، ولا يمضي زمن طويل حتى تقع عيونهم على الخط الهمايوني المختوم بالختم الذهبي للسلطان عندما أفتح قفطاني، فيختفي بريق البهجة من عيونهم، وينكمشون على أنفسهم من شدة الخوف، ويدركون أنهم في هذه الليلة لن يتمكنوا من جلد أحد جلدة واحدة بلا مبررٍ، بل إنهم يعتبرون أنفسهم محظوظين إن استطاعوا أن ينقذوا رؤوسهم.

كانوا يقتربون من بعضهم إلى درجة التلاصق، ويحاول كل واحد منهم أن يختفي خلف الآخر كما يفعل الأطفال. وفي تلك اللحظات، كنت أشعر بأن وجهي مكفهر إلى درجة التشويه، وتتداخل الخطوط المنتظمة التي تكون صفحة وجهي في مشهدٍ مخيف، وأتخيل تلك الأجسام القوية بين صرير الحديد وخشخشة السلاسل وأصوات الاحتكاك الثقيل للبكرات المشحمة والمشاهد المروعة التي تتجمد لها

---

(1) الإنكشاري: هو في الأصل «الإنكشارية» أو «يكي چري» بالحروف العثمانية. والإنكشارية عبارة عن جيش خاص من أبناء الأسرى الذين يتولى السلطان أمرهم. ومهمتهم خوض الحروب، وكانت لتشكيلاتهم تقلبات مختلفة عبر التاريخ العثماني. وفي هذه المرحلة، كان الإنكشاريون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الأول حرس السلطان والقصر. والثاني حرس المراكز الحكومية والولاة وغيرهم. والثالث، هم الجيش الذي يخوض الحروب.

الدماء. يبدو أنه لم يكن يكفي أن يُعذَّب الآخرون حتى يدرك الإنسان مقدار عجزه. فلإدراك العجز الحقيقي، كان لا بد أن تتسلل إلى السطح شعلة ذلك المشهد الذي يرتسم في ذهن الضحية وهو يتعرض للتعذيب. ولإدراك هذا العجز مع الأسف لا يكفي أن تمارس دور المعذِّب، بل ينبغي أن تلعب دور الضحية.

كنت أشعر كما لو أنني أضع أحد الأقنعة التي يسميها الإيطاليون «شخصية» (persona) وذلك عندما ترتسم على وجهي تلك الابتسامة العريضة. فأنا الآن ألعب دور الممثل البطل المتجول في مسرح الشوارع. لكن أدوار الإنكشاريين كانت أكثر أهميةً؛ لأنه لا يمكنك أن تتخيل ما سيحل بهم عند أي حركة اختراق تحاول تعكير صفو سكنات الليل الجليلة. وما إن يدرك العسس مكانتي حتى تراهم يقبّلون طرف قفطاني، ويعتذرون آلاف المرات، ويفرون وهم يجرّون الهراوات الطويلة المصنوعة من فروع التوت البري خلفهم.

* * *

كان قلبي يحترق هكذا منذ زمنٍ طويلٍ، وعيناي يغطيهما دخانٌ نحاسيّ اللون يثقل روحي بالآلام، وأشعر بجسدي يسحق في بعض الأحيان، وأسمع أنيناً غير إراديّ ينجو من شفتي في ظل عبءٍ ثقيلٍ يلقى على كاهلي... وفي لحظاتٍ تعكس فيها المرايا ضوءاً من زمانٍ قديم، يكفهر وجهي، ويغيب عنه جماله الذي لا ينكر. وحينها، كنت أضع قناعاً يجعل مني شخصاً لا أعرفه أنا نفسي؛ فكنت صاحباً وخائناً في الوقت نفسه، وكنت موجوداً ولم أكن موجوداً أيضاً، وروحي كانت جزءاً من كذبة كبرى بقدر ما كان اسمي ولقبي وعنواني تجلياً من تجليات القدر. خطٌّ رفيعٌ لا تدركه العيون يفصلني عن الواقع، فالإنسان يصغر ويصغر حتى يبدو النمل في عينيه كالجمال.

نُقلت إلى هذا البلد العثماني عبداً، كنت وقتها في السادسة من

عمري. وبعض الأحداث المؤثرة في حياة الإنسان تترك في عقله ذكرياتٍ لا تمحى؛ تماما كآثار الجروح العميقة. كان أبي لوسيانو البرغالي بحاراً من أصلٍ إيطالي، لم يستطع أن يقاوم إصراري، وتمكن من تأمين ركوبي على متن السفينة الشراعية التي كان يعمل عليها في ذلك اليوم الخريفي المعتدل. ولا زلت أذكر كيف تأثر القبطان بلطفي ونضجي، فقبلني في السفينة بعد اعتراضٍ. وربما سمح لي بركوب السفينة لأن السفر كان لمدة قصيرة لا تزيد عن عشرة أيامٍ. لم تكن السفينة كبيرةً، إذ كانت بشراعين ومستودعٍ واحدٍ. مسح القبطان ألكسندروس تاكيس لحيته السوداء، وقال:

«انتبه يا يانكو! إننا في السفينة لا نحب الكسول. وبما أنك تصر على السفر معنا فلا بد أن تدفع الثمن، وهذا الثمن ليس سوى عرقك!».

حينها بدأت بالعمل من دون تأخرٍ، وشعلات السرور تتوقد في نفسي. فأنا الآن صياد سمكٍ حقيقيّ. ركضت فوراً لمساعدة النجار وطاقم مقدمة السفينة على تصفيحها بالأخشاب؛ حيث يجري حفها وشدها إلى بعضها بالغراء المصنوع من خليط شمع العسل وشمع نطاف الحوت والغراء. وما زلت أذكر كيف كنت ألعب بمادة شمع العسل اللينة والمقاومة في آنٍ بتطويعها في كفيّ، والتي لا تلبث أن تغدو طرية وتغطي أصابعي، وكيف كنت أنظر إليها في سعادةٍ وكأنها طبقةٌ سحريةٌ وقطعةٌ من قماش الحرير. سرت خلف النجارين، وعملت على كشط الطحالب التي تغطي خطوط التحام القطع الخشبية. وأذكر أيضا كيف مسح رئيس الطاقم الضخم على شعري بمودةٍ وهو يقول: «لا يا يانكو، لا داعي لأن تضغط عليها». وفتح سترته الطويلة، وظهر قميصه الأخضر وقد زخرفت ياقته وطرفا كمّيه، وجثا على ركبتيه، وتناول مكشطة الطحالب بيديه ليريني كيف أكشط الطحالب. وعرفت في ما بعد أنه نيكوس.

رفعت إليه رأسي وقلت: «إن أمي ديسبينا ليست أجمل امرأة في اليونان فحسب، بل إنها أيضاً أمهرهن. وقد ساعدنا أبي على إصلاح شرفة

منزلنا فـي بارقة، وقد علمتني أمي كيف أحف سـطوح الأخشـاب بشـكلٍ أفضل من أبي».

فقال لـي عندهـا: «واو يا يانكـو! كل الرجـال يحلمون بالـزواج من امرأة مثل أمك». وضحكنا، ووعدني بأن يأخذني إلى أعلى السـارية الثانية إن قمت بعملي بشكلٍ جيد. ولسوء الحظ، لم نجد فرصةً للقيام بذلك.

كانت أوترانتو[1] في يد الأتراك منذ ثلاثة عشر شهراً، وكان القراصنة الأتراك يجولون في السـواحل المحيطة، ويخترقـون المناطق الداخلية في عمليـات نهب عامـةٍ، حتـى إنهم أصبحـوا مصـدر رعب لا يفارق سـكان السواحل. توتر الجميع عند اقترابنا من تلك المنطقة، ونظّم القبطان نوبات الحراسة بدقةٍ، وقال في ثقةٍ: «والآن، هيا تفضلوا». في إشارةٍ إلى الأتراك، وكان يضحك بعصبيـةٍ بالغة، ثم دعاني إليه، وأخرج من جيب سـترته التي تفوح منها رائحة السمك سـواراً من الفضة تتدلى منه أسنان سمك القرش شـديدة البياض، وأمسـكني من كتفي وأضـاف: «لقد أصبحـت الآن رجلاً حقيقيـاً». وما زلـت أذكر لحيتـه السـوداء التي تضفـي عليه هيبـةً غامضةً، والبهجة التي تشع من عينيه الزرقاوين. اتجه إلى والـدي والآخرين الذين كانوا يراقبوننا مبتسـمين، وصاح فيهم: «لِمَ تقفون هكذا؟ هيا قدّموا التحية لعامل السفينة الصغير!».

لم أصـدق عينـيّ عندمـا انطلـق صفيـر «سيليسـترا» القبطـان الأول الحـاد، ليجمـع كل الفريـق لأداء التحيـة لي، نعـم، كلهـم وقفـوا أمامي: الريس نيكوس الضخم الذي قاسـمني سراً سـمك القد، والطباخ الإيطالي (واسـمه - إن لـم أكن مخطئاً - غيسـبي) وهو الـذي أهداني نجمـاً بحرياً مجففاً وردي اللـون، والقبطان الثاني زولتان المجـري الذي دس في يدي بهدوءٍ طعام غدائه من السـمك المبخر والخبز في منديل كبيرٍ قذرٍ لأتناوله إن جعت في الليل... وقفوا جميعاً أمامي وهم يهتفون باسـمي ويصفقون،

(1) أوترانتو مدينة ساحلية في جنوب إيطاليا اليوم.

وحملونـي عالياً، حتـى إنهم قدمـوا لي في تلـك الليلـة شـراباً برتغالياً في كوبٍ صغيرٍ، ونجحت في تجرع ذلك الشـراب الرهيـب بفخرٍ لأثبت أنني أصبحت رجلاً حقيقياً. وهكذا، كان أسعد يومٍ في حياتي يطوى.

لكن طاقـم السـفينة بمن فيهـم الحـراس لـم يتمكنوا مـن الخلاص من شـبح النوم الذي سـيطر عليهم، فغرقوا في سـبات عميق في نهاية يومٍ متعبٍ ومثمرٍ. اسـتيقظت في وقت متأخرٍ مـن الليل، فيما ضبـاب الصباح الحاد يتسرب إلى ظهر السفينة، ويتسـلل إلى قمراتها، في وقتٍ كان البحر فيه مسـتمراً بصمته المخيف. كانـت مثانتي تكاد تنفجر، ربما بسـبب البرد الخفيف الـذي أصابني في النهار. كنت أتقدم بسـرعةٍ نحـو المرحاض في القمرة بين صفوف الأسـرة ثلاثية الطبقات، وإذ بقدمي تتعثر بحذاء خشبي سميك، وأسقط على وجهي.

في تلك اللحظـة، وبينما كنت أحـاول الجلوس في مكانـي، تناهت إلى سـمعي بعض الأصوات، ترافقها خطواتٌ سـريعةٌ يتبين من وقعها أنها تخص أشـخاصاً ذوي أحجام ثقيلة. كما سمعت صليل الحديد، وأصوات الأجسـام الصاخبة التـي تتكدس علـى الأرض بهـدوء. وعلـى الرغم من طفولتي، أدركت أن شـيئاً ما يدور على سطح السفينة، وشـعرت بأننا ربما نتعرض لهجومٍ، وتملكني خوف تحجر له بطني ومثانتي.

تعالت الأصوات المخنوقة حتى تمكنت مـن تمييزها، وتحولت من ضجيجٍ مكتومٍ إلى صخبٍ كبيرٍ، فزحفت تحت أقرب سريرٍ، وبدأت أنتظر على الخشب الرطب البارد في صمتٍ يقطع الأنفاس.

كان بإمكاني أن أصـرخ وأوقظ كل النائمين في القمـرة، لكنني كنت خائفاً، والجبن يشـرع الأبواب للعيـش الذليل دائماً، وإنمـا الآمن أيضاً... كان أبي لوسـيانو مسـتغرقاً في نومه غافلاً عن كل شـيء، وكذلك القبطان الأول تاكيس الذي يحبني كثيراً وأهداني سواره الفضي وكلّ أفراد طاقمه. وكان شـخير القبطان الثاني زولتان يملأ جنبات القمرة وتمتصه أخشـابها.

نعم، كل الكبار الذين يحبونني كثيراً كانوا مستغرقين في نوم عميقٍ.

وهكـذا، كنت أنفـذ خيانتي الأولـى لكل الذيـن وثقوا بـي وأحبوني وائتمنوني عندمـا تمكن الأتراك من الحراس على ظهر السـفينة، وتسـللوا إلى الداخـل بهـدوءٍ، وألقوا القبـض علي وعلى والـدي وعلى عـددٍ قليلٍ مـن الطاقـم أحيـاء، فيمـا اسـتلقى الآخـرون علـى أرض السـفينة صرعى ومضرجيـن بدمائهـم: القبطـان ألكسـندروس تاكيـس، والريـس نيكوس، والطباخ غيسـبي، والقبطان الثاني زولتان... وبعد قليلٍ، تحولوا إلى طعام لأسـماك القـرش. وكان سـروري لا يوصف. فقد نجـا والدي مـن القتل، وحسبت أن كل شيء سيكون خلال وقت قصير على ما يرام.

لم أسـتطع أن أعرف اسـم ذلك الرجل قطّ، وكل ما علمته بعد ذلك أنه قبطـان سـفينةٍ تركيـةٍ اقتربت منـا بهـدوءٍ، وكان يعتمر عمامـة خضراء، ويرتدي قميصاً أسـود وصدارة بـلا كمين وسـروالاً أحمـر، وينتعل جزمة جلدية طويلة تبلغ ركبتيه، يناديه أتباعه بالريس فقط. أجال بصره فينا بنظرةٍ قاسـية، وتناول قبعة القبطان الواسـعة وألقاها في عرض البحر، وتنقل بين الجثث وهو يغـرز رأس سـيفه المدبب فيها، ثـم التفت إلينا وقـال لأتباعه بلسـان يوناني: «العاصفـة قادمة، أنزلـوا هؤلاء إلـى المسـتودع». ثم لمح السوار حول معصمي فانتزعه مني ووضعه في جيبه.

II

كان قد مضى على أسرنا قرابة شـهر عندما وصلنا إلى ميناء فوتشي. وكنا نـدرك بالحـدس، وممـا يتناهى إلى سـمعنا مـن أصـوات، وما يصل إلينا مـن روائـح، وما ندركـه مـن أصـوات الحيوانـات التـي ينقلونها إلى عنبر الحيوانـات أننا توقفنا فـي ميناء، فنتبـادل النظرات محاوليـن توقع ما سيحدث.

أخرجونا إلى ظهر السـفينة تحت شـمس الشـتاء الدافئة والرائعة في فوتشـي وأقدامنا مكبلة بالسلاسـل، فتمتعنا بالهواء الطلق في وضح النهار بعد الانتظار الطويل في الظلام. كنت مقيداً بالسلاسـل مع والدي. وكانت العنايـة بنا جيـدة، فقد قدمـوا لنا شـراب العنـب اللذيـذ، ووجبـات الأرز والمرق حتى امتلأت بطون الجميـع. غير أنني لم أكن أعلـم أنهم يفعلون ذلك في سبيل الحصول على مال وفير في سوق النخاسة.

كنا لا نعـرف ماهيـة السـائل الأخضر الـذي يضيفونـه إلـى القناديل الزيتية فـي الزاوية فينتشـر دخان كثيـف في الأجواء، ويتسـلل إلـى أنوفنا، فنستغرق في نوم طويل وعميق...

في ميناء فوتشـي، في أيام الشـتاء الباردة، تم نقلنا إلـى أقفاص على عربات تجرها الخيول، وكانت الأقفاص المهتزة لا تهدأ، ونحن مخدرون ومقيـدون بسلاسـلنا. كانت حمـرة الشـمس الحلـوة لا تزال تسـيطر على الوديـان، وتناهـت إلى مسـامعنا همهمـات مختلطة مـن هنا وهنـاك، فيما الخيول تتقدم ببطء على طول الضفة الموحلة للنهر الذي يتشـكل من عين قديز، وبلغنا مانيسـا مسـاء بعد مسـير يومين. تقع مدينة مانيسا على سفوح جبال سـيبيل الغنية بغطائها النباتـي وأنهارها الكثيرة التي تمـر بين المنازل

والقصور الخشبية البيضاء المؤلفة من طابقين، والتي تحيط بها حدائق غناء... ما زلت أعتقد أنها على الأقل واحدة من أجمل المدن في العالم. ومانيسا هي المركز الإداري لسنجق ساروخان[1]، وهي نسخة مصغرة عن إسطنبول والدولة العثمانية؛ بخاناتها القديمة، وحماماتها التي تغطي الأعشاب قبابها، ومساجدها اللطيفة المزينة، ومآذنها التي ترتفع عالياً كالأقلام، ومدارسها الحجرية، ومشفى الأمراض العقلية \البيمارستان فيها، والتكيات الخيرية، ودور الأيتام، والمدارس الإبتدائية. عبرت الخيول الطرق الممتدة بين المنازل الكبيرة والأسواق حتى حطت رحالها في سوق النخاسة. وهناك افترقت عن والدي للمرة الأولى، ولفترة امتدت سنوات طويلة.

أوقفت أيبيكة هانم عربتها أمامي، وتوسطت خادمها الكاخيا[2] لشرائي، ودفعت مبلغاً كبيراً لا يمكن مقاومته. ويبدو أنني كنت عرضة للمزايدات بسبب بشرتي السمراء وعيني الزرقاوين وشعري الطويل الكثيف الداكن وعظامي التي تبشر بقوة الشباب مستقبلاً... كل ذلك لم يكن ليغيب عن العيون.

عرضت أيبيكة هانم مبلغاً يفوق بكثير خمسين دوكة ذهبية بندقية، وهو متوسط سعر العبد السليم الفتي، وسيمضي وقت طويل قبل أن أعرف ذلك. لقد كانت أيبيكة أرملة لم ترزق بأولاد. والثروة الكبيرة التي ورثتها من زوجها، ومزرعتها التي لا تبعد كثيراً عن مانيسا والتي تحيط بها كروم العنب وبساتين الزيتون مكنتاها من تكريم العلماء، وتنظيم مجالس العلم والفن، وتقديم الهدايا؛ فكانت لها بذلك مكانتها بين الناس.

سرت الشائعات بين الناس كالنار في الهشيم، «لقد دفعت أيبيكة

---

(1) الخان الأصفر.

(2) الكاخيا: القائم بأعمال المنزل أو القصر، ومدبر شؤونه في تأمين الحاجيات وتنظيم الخدمة وغير ذلك.

هانم ثمانين دوكة ذهبية بندقية مقابل طفل صغير، واشترته من دون الحاجة إلى مزاد». وبدأ الناس يتوافدون إلى منزلها بذرائع مختلفة يريدون رؤيتي، ولا أعرف بالضبط عدد الذين نظروا إلي باحتقار، ولكنها كانت تستمتع بعرضي على الضيوف بجسمي الصغير وكسوتي الرائعة، وتحب سماع الأغاني الشعبية اليونانية التي كنت أتقنها، وتستمتع بعرض مهارتي في العزف على الكمان رغم صغر سني.

وبهذه الطريقة استطاعت أن تثبت فراستها وذكاءها للناس، حيث أدركت أنه لا بد أن يكون لي شأن عظيم في المستقبل. أما أنا، فقد كنت أفتخر باهتمام امرأة شابة بي، فهي أصغر سناً من أمي، وكنت أبذل كل ما في وسعي لأكسب حبها وحنانها. لقد عاملتني أحسن معاملة، وجعلتني أدرس على أيدي أفضل المعلمين، وحولت كل زاوية في بيتها إلى مدرسة من أجلي، وتحملت في سبيل ذلك كل النفقات، وألبستني الثياب الجديدة المزركشة والملونة التي كانت تخيطها غالباً بيديها فأبدو كمهرجي القصور. غير أنها طالما جرحت كرامتي عندما كانت تطوف بي في الأسواق بتلك الألبسة، ولكن أفكاري الماكرة كانت تسول لي دائماً أن أتصنع الابتسامة.

كان الجميع يسخرون مني، والشباب المتجمعون في زوايا المنازل الرطبة والساحات يسمعونني الكثير من عبارات الاستهزاء، وقد أصابني ذات مرة حجر في مؤخر رأسي فخررت على ركبتي. ولكن، ماذا فعلت بعد ذلك؟! نهضت بصعوبة، والتفت إلى مصدر الحجر، وابتسمت، وتعالت منا جميعاً قهقهات لامست عنان السماء، ولم أسمح للكاخيا العربي ولا القلفة[1] حاجي إلياس بك بالتدخل في الأمر؛ لأن صوتاً داخلياً كان يقول لي: «انتظر، انتظر... لم يحن الأوان بعد».

---

(1) القلفة: مساعد الكاخيا (وهو المقصود هنا)، ومساعد الأستاذ في نظام التعليم القديم، ومساعدو رؤساء الحرف (مساعد الأسطة).

هنا، لا بد لـي من أن أبيّـن أنه لم يكن الأسـرى في الدولـة العثمانية يستعبدون بالمفهـوم الأوروبـي الـذي يجـرد العبيـد مـن كل الحقـوق الإنسـانية، بل يجـري إعـداد بروتوكول يسـجل بموجبه الأسـير على دفتر خاص لدى القضاة يسمى «دفتر التّركة»، ويعمل بموجبه إلى أجل مسمى، ثم يصبح حراً. وهو ما يعـرف بقانون «المكاتبة»[1]. غير أنني لم أكن أسـير حرب، وإنما اختطفـت من قبل القراصنـة الذين كانوا ينشـطون في بلادي رغم عقوبة الإعدام الحازمة التي تنفذ بحق من يقـوم بذلك. وتم بيعي في السـوق من غير تسـجيل أو قيود. ولكن المال كما تعرفـون يفتح الأبواب المغلقـة، ومضـت سـنوات طويلة قبـل أن أعـرف بهـذا القانـون، وعندها اعترفـت أيبيكة هانم بـدم بارد بأنهـا كاتبتني بـأوراق مزورة لمدة عشـرين عاماً، ويومها قررت في سري الانتقام منها.

كانت أيبيكة هانم سـيدة شـابة حازمة، وكانت عيناها العقيقيتان منبع الدفء والحياة، ووجههـا الذي يبدو مـن وراء حجابه مكتسـياً بالنور كان ممتلئـاً بالخطـوط والتفاصيل التـي ربما يجد فيهـا الرسـامون الأوروبيون مصدر إلهام لهم. وربما كانت النظرة الأولى إليهـا توحي بأنها امرأة عادية ليس لها حـظ وافر من الجمـال، لكن النظـرة الثانية بالتأكيـد كافية لإظهار حد كبير من الفتنة والجمال؛ فيجد المرء نفسه عندها على عتبة كتلك التي تكون بين النوم واليقظـة في ليل من ليالـي الصيف الجميلة؛ جسـمه يهفو إلى هذا العالم ببريقه وهمسـاته، وروحه تدعوه إلى عالم خفي حالم بعيد. تلك هي أيبيكة هانم بكيانها الذي ينضح بالطمأنينة والحياة.

صحيح أنهـا في البيـت كانـت تعاملني كمـا تعامـل الأم ابنهـا، ولم

(1) المكاتبة: مصطلح شـرعي خاص أتى به الإسـلام، وهو عبارة عن عقد بين العبد (أو الأمة) وبين سـيده على مال أو عمل يؤديه له، أي إنه يشـتري نفسـه من سـيده. وقد حض عليها الإسـلام فأثبتها في القرآن في سـورة النور الآية 33، وجاءت الأحاديث ترغـب فيهـا. والمكاتبـة تظهر أن العبد والأمـة يملكان من القدرة على التكسـب ما يمكنهما من إعالة نفسيهما.

تعاملنـي معاملة العبيد قـطّ؛ لكنها أيضـاً كانت تقاوم رغبتـي في الحصول على حريتي. وإذا كان من الصعب الاعتراف بأنني ابنها ووريثها، فقد كنت في نظرها اللعبـة التي تحرص عليها. تـرى، هل كنت أحبهـا؟ نعم، ولكن هل يمكـن توقع غير ذلـك من شـاب يعيش في قيـد العبوديـة؟! لم تدخر وسـعاً في تربيتي، وتعلمت أعراف الأتراك وتقاليدهم. وعندما بلغت سـن البلوغ، اخترت الإسـلام ديناً لـي بكامل وعيي وإرادتـي، وتوصلت بعقلي الميال إلى التحليل إلى أن اسـم أب الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسـلام سـيكون أكثر تأثيراً ووقعـاً في النفـوس. ولاحظت أن غير المسـلمين أقل حظا في الحريـة والتقدم في المراتب، وأنّ الحساسـية الدينية لدى الأتراك كانت عالية إلـى الحد الذي لـم تكن تعثر عليـه في أوروبا خـلال الأعوام الخمسـين الأخيـرة. وكان علـيّ فـي ظـل هـذا الوضـع أن أعيـد تشـكيل طموحـي وأتصـرف بالممكـن المعقـول؛ وقـد فعلـت... ولكـن كيف؟! إن كل القوة لـدى عبد حقيقي مثلي تكمـن في نظراتـه النقية، والإخلاص الذي يبديه في تصرفاته أيها الأصدقاء. وكانت مسـحة الجمال في طلعتي، والنظـرات البريئة التـي أرتديها كقنـاع خير معين لـي، وتعلمـت ألا أبالي بالدموع التي كنـت أذرفها في الليل عندما كنت أتمدد على فراشـي وأثبت نظراتي على تشققات الجدران.

وكانت الأجـزاء التي تتحطم وتنسـحق في أعماقي فـي وضح النهار تؤكدهـا دموعـي المتسـللة فـي صمـتٍ في جنـح الليـل فتشـحذ حرصي وطموحي للانتقام، ولكنها لا تفسد ابتسامتي أبداً.

خلال دراسـتي عنـد أسـاتذتي المحترمين وجـدت فرصـة للقاء أبي عدة مرات، وقد دفعت أيبيكة هانم ثمن اعتاق أبي فعاد إلى الوطن. وكنت أمنـي نفسـي وأقول: «تـرى، هـل سـتحررني؟!». ولـم يحصل مـا تمنيته، ولكنني كنت متردداً أيضاً ولا أعـرف ماذا أريد: هل أريـد أن أكون حراً أم لا؟! أنا ابنٌ عاديٌّ لصياد سـمك إيطاليٍّ، ولكنني هنـا محبوب ومحظوظ،

وطلبي لا يتكـرر مرتين عند أيبيكـة هانم، فلماذا أسـتصعب العبودية إذاً؟!
لم أكن فـي الحقيقة محكومـاً بوثيقـة مكاتبة أيبيكـة هانم، بل كنت أسـيراً لحياةٍ تتصل بمسـتقبلٍ مشـرقٍ أيها الأصدقـاء. لذلك لـم تكن بسـمة الرياء المسقية بدموعي تغيب عن شفتيّ.

كنت في شـوقٍ شـديدٍ للقـاء أمي، ولـم أكن فـي موقـعٍ يمكنني من الوصول إليها، وكان ينبغي علي أن أصبـر. والآن، أتذكر تلك الأيام بحيرة وعجبٍ وسرورٍ، فها هو طموحي قد بدأ يتلألأ بشـدة وأنا أشق طريقي في الغابـات الغامضة التي تسـمى قدراً. كان ذلـك في بداية عـام 1515، حين كان عمري 18 عاماً، في وقت اشتد فيه عود شبابي. لم تعد مانيسا تسعني، وأصبحـت أتنفس بصعوبـةٍ بالغةٍ فـي خضوعي لطلبـات أيبيكـة الطفولية، وكنـت أتخبـط لأجـد طريقـاً للخـروج، وأتوسـل إليهـا أحيانـاً بالدمـوع والانحناء لتحررني، وكانت تبكي معي، وتمسـح شـعري ورأسي، ولكنها تقول دائماً: «لا، لن أحررك!».

حينها، كنت أجمع الأسـرى الذين يعملـون في المزرعـة - بدءاً من الكاخيـا العربي - وكنت أذكرهـم بأخطائهم، وأعفو عنها بمـا كنت أعتبره تصرفـاً لائقاً ومهذبـاً، وأحكم عليهم بعقوباتٍ عسـيرةٍ بمـا يقتضيه موقعي الخـاص. وعندما بـدأت أبلغ مبلـغ الشـباب، كنـت أعـرف أن الناس من حولي لـم يعودوا يحبونني، وأصبحوا يكرهونني.

ولقد كانت تلـك الأيام هـي الأيام التـي نفث فيهـا التنيـن نيرانه في أعماقي باستمرار. وكنت كلما رأيت الدهشـة على وجوه ضحاياي بسبب حقدي وانتقامي، أتذكر في ألـمٍ أنني أنا أيضاً واحدٌ مـن الضحايا، وأذرف عـذاب ضميري دموعـاً تجري فـي صمـت الليل. ولكـن، كيف عسـاكم تعرفون في أي حفرةٍ يعيش جميع الأسرى؛ حتى أحسنهم حظاً مثلي؟!

وهل فكرتم مرةً في ما يؤلـم العبد من الطبقة السـفلى من الناس أكثر من أي شـيء آخر؟! إنه موقـف عبدٍ يعمل حارسـاً لعبدٍ آخر مثلـه... نعم،

لقد أوصلتني السنوات إلى هذا الموقف، فقد تعلمت باشمئزازٍ وألمٍ كيف أنتبه إلى تصرفاتي مع شخصٍ مثلي، حتى بلغت الموقع المنفر نفسه. إن هذا الأسلوب الذكي يقوم على حسابات لا ترحم لأولئك الذين أنشأوا مؤسسة العبيد. وهكذا، فالإنسان الذليل يحب أن يذل الآخرين ويتحكّم بالمساكين أمثاله؛ فيغدو ذئباً لإنسان آخر مثله.

وأنا الآن صاحب الكلام في أقوى دولةٍ في العالم، ولا أستطيع أن أتخلص من رائحة الأوحال المقرفة التي علقت بي طوال السنوات التي عشتها في تلك الحفرة. إذ لا يزال ذلك الطفل الصغير الذي تصحبه سيدته في الأزقة كالمهرج، ويقوم بكل الأعمال الصبيانية لإرضائها وتسلية ضيوفها، والمراهق المسكين الذي كان يصب حقده كله على الأسرى مثله وينتقم منهم يعيش في مكان ما داخلي. نعم، إنهما لا يزالان يعيشان في مكان ما داخلي، ويختبئان في زاويةٍ منعزلةٍ، ويخرجان فجأةً أمامي، وليس لخروجهما مكانٌ خاصٌ ولا زمنٌ محدد... وكل ما يطلبانه مني ألاّ أنسى من أنا... لكنهما يتظاهران بأنهما لا يعرفان أنني لا أستطيع نسيانهما. وهذا ظلم! ما أفعله بنفسي ظلمٌ! ظلمٌ!

III

عام 1515 هو العام الرابع لتولي الشاهزادة[1] سليمان خان المعظم إمارة سنجق مانيسا. كان يبدي منذ توليه الإمارة حساسية شديدة تجاه كل ما يتعلق بمفهوم العدالة، ويحرص على ممارستها في حكمه، من دون أن يلقي بالا لردود أفعال بعض كبار ملاكي الأراضي، ويردد دائما: «تنجز العدالة ما لا ينجزه السيف».

ترى، أي مصادفة جمعتنا؟! ربما كنت مديناً لذكائي التحليلي المتوقد في كل ما جرى من أحداث. أكاد أتخيل الآن ابتساماتكم الساخرة تعلو وجوهكم! لا، أرجوكم لا تسخروا مني!

كنت أسير على الثلوج الرقيقة التي تخفي خشونة الأراضي الوعرة للغابة، والكمان[2] في يدي، وأنا أنظر بعيداً، وأبحث في صوته الساحر عن ألحان بلادي البعيدة. لم أكن أتجول في الغابة عابثاً، فقد كان الشاهزادة سليمان يصطاد في تلك المناطق في تلك الفترة من السنة كما علمت من قلفة أيبيكة هانم حاجي إلياس بك. نعم، ما الذي كنت أبحث عنه؟! كنت أجمح بخيالي، وأسعى إلى لقاء الوارث الفريد للعرش العثماني، وأبذل في سبيل ذلك ما في وسعي. فهل يمكنني أن أرى وجهه، وأتكلم معه وسط حراسه الذين يعتبر مجرد النظر إلى وجوههم جريمة؟ ربما في أحسن الحالات، سيضربني آغا الإنكشاريين ضرباً مبرحاً، ويتركني في

(1) الشاهزادة تعني الأمير من أبناء السلاطين.

(2) الكمان والكمنجة من الآلات الموسيقية ذات الأوتار أربعة. تعتبر من أحن الآلات الموسيقية الوترية، وربما لا ينافسها إلا البيانو.

بؤسٍ وتعاسة. ولكن، هناك صوتٌ ما ينحدر من أعماقي، وحدسٌ نابعٌ من موهبتي الفطرية... وإحساس غامض يميل إلى تأييد من يقول: «لا وجود لشيء يستحيل تحقيقه».

كنت أعرف أن سليمان خان مولع بالموسيقى، لذا عدّلت أوتار الكمان وشددتها، وعزفت عليه لحناً يتجاوز طبقات الكمان، وأنا واثقٌ بموهبتي.

كانت القوة الحقيقية التي تدفعني حينها هي شجاعتي الفطرية التي أسميها «قدراً» وعزيمتي الماضية. لذا كنت أتقدم على دربٍ ضيقٍ، والخيول تسرح حولي.

انتهى بي الطريق بعد منعطفين واسعين إلى جدول صغير ينحدر نحو الوادي. والتقطت أنفاسي على جذر جاف متحجّرٍ من جذور البلوط الكبيرة، واستمتعت بأخذ نفس عميقٍ رغم الريح الباردة التي تثير دموعي. أسندت كماني على ركبتي، وبدأت أعزف في هدوء، وعيناي تتأملان الماء الذي يترقرق في طريقه نحو الوادي مرتطماً بالأحجار، ويضفي على الطبيعة جماله وألحانه الخاصة الرائعة. كان النظام الذي يؤمن الاستقرار والتوازن عبر الزمن قد بدأ يترنح تحت تأثير الحصار الموسيقي المحكم، وشرعت أعزف أغنيةً يونانيةً قديمةً، لأحاول بعدها عزف أغنية قديمة كانت أمي تترنم بها في طفولتي.

بدأ النهار يميل نحو الغروب من دون أن يلوح أحدٌ في الأفق. وكانت الريح قد سكنت وتركت مكانها لبردٍ خفيفٍ يداعب رئتيّ. وحين اعتدلت أريد الوقوف، وامتدت يداي إلى حقيبة الكمان الجلدية، إذ بصوتٍ جهوريّ قوي يأمرني: «قف».

قفزت في مكاني من هول المفاجأة، وأدرت ظهري لأرى صولاق

باشـي[1] على بعد أمتار مني وثلاثة من الإنكشاريين بأجسـامهم الضخمة، وقفطاناتهم المجردة من الأكمام والمشـدودة حول أجسـامهم كما لو أنها مآزر، وأحذيتهـم الحمراء الموحلـة التي تصل إلى ركبهـم. وكان صولاق باشـي بقفطانه الأحمـر الذي تعلـوه قطعة فـرو تغطـي كتفيـه العريضتين، وجزمتـه الصفـراء، وحزامـه الأزرق المشـدود حـول سـرواله الأخضـر الفضفـاض يبـدو قوياً كبـاب قلعـةٍ كبيـرة! وبالكاد تحـرك شـارباه الكثان المعقوفان وهو يسأل: «چلبي[2]! أأنت عازف الكمان؟!».

تمتمت في حذرٍ وخوفٍ: «نعم، آمل ألا أكون قد أزعجت أحداً».

فرفع رأسه قليلا وهو يقول: «ستأتي معنا».

---

(1) قائد لأربعة من حرس السـلطان، يتقنون رمي النبال والرماح باليسـرى، يسـير اثنان مـن الصـولاق عن يمين حصـان السـلطان، واثنان عن يسـاره، ويتـم اختيارهـم من قادة الإنكشـاريين (الإنكشـارية)، ويتصفون بالجرأة والقوة والطول وسلامة النطق والاحترام بين الناس.

(2) چلبي: لقب للنداء، يقوم مقام «أفندي، سيد...» اليوم.

IV

هكذا بدأ كل شيء. فقد انتزعني سليمان خان من السيدة أيبيكة هانم بأمرٍ بسيطٍ منه، لقاء عقد ألماسي ثمين جداً، وألفين وخمسمئة قطعةٍ ذهبيةٍ. وعلمت أن سيدتي رمت العقد والأموال المقدمة أرضاً، وطلبت استعادتي.

عندها، فغر الوسيط الدفتردار[1] سنان باشا فمه متعجباً - كما حدثني بالتفصيل عما جرى في ما بعد - وقال في حيرةٍ وغضب: «هانم! هانم! ماذا تقولين؟! أهكذا يكون الرد على رجاء سليمان خان الذي سيكون حاكماً للعالم عما قريب؟!».

صرخت أيبيكة هانم التي كانت تقف على قدميها بصعوبة بمساعدة القلفة حاجي إلياس ونظراتها زائغة من الغضب: «لا يحق له فعل هذا».

- أيتها المرأة، إنك تستطيعين شراء مئات العبيد بما قدّمه لك الأمير من مال. ثم هل تظنين أن إبراهيم يود العودة؟!

- لا شك في أنه يود ذلك!

هز الباشا رأسه بوقارٍ يمنةً ويسرةً قائلاً: «إنه لا يريد العودة أيتها الهانم، لا يريد... وإن كنت تريدين له الخير، فدعيه يذهب، فهذا أفضل لكما معاً».

كانت أياماً كدت أطير فيها من شدة الفرح. لقد أصبحت واحداً من الأصدقاء المقربين لثاني أقوى رجلٍ في الدولة. كنا نأكل إلى المائدة نفسها، وربما نسهر معاً في غرفتي حتى الصباح، مستلقيين على فراشين

(1) المكلف بضبط الأمور المالية للدولة، وهو ناظر المالية في مراحل متأخرة من الدولة العثمانية، وهو أيضاً المكلف بضبط الأمور المالية في كل ولاية.

متجاورين، مـن دون أن يرفّ لنا جفن. وهكذا أخيـراً، ابتدأت الرحلة نحو الرقي التي كنت أترقبها بفارغ الصبر، وإن تصرفت بحذرٍ وكما ينبغي؛ فإن المستقبل الباهر ينتظرني.

لـم أذهب قـط للقـاء أيبيكة هانـم التي كانت تسـعى لاسـتعادتي من حيـنٍ لآخر وتأتـي إلى القصـر. نعم، لـم أذهب للقائهـا والترفيـه عنها قط على الرغم من تمكني من ذلك. وبقيت المسكينة أسابيع تروح إلى القصر وتغـدو، وقدمت طلبـات التمـاسٍ كثيـرة، وكان سـليمان خان يسـمح لي بقراءتها كلهـا. فما الذي كنت أحـس به في تلك الأيام؟ الحـزن؟ لا، ربما كنت أتألم لأجلها، ولكنني لم أحزن قط، فلو أنني لم أسعدها بخدمتي لها منذ اليوم الأول؛ أكانت ستتردد في إرسالي مجدداً إلى سوق النخاسة التي جئت منهـا، لأعاد إلى تلك المخـازن الكريهة التي تفوح منهـا روائح الدم والروث مكبـلاً بالقيود والأغلال؟! ولو لـم أكن مباعاً إلى امـرأة ثرية؛ أما كنت سـأبقى منسـياً وأنا مقيد بالأصفاد؟! في سـني تلك، كنت أحس بأنه يجب علـيّ أن أطرق كل بـاب في سـبيل الحفاظ علـى حياتـي، ولـم أكن أفعل إلا ما يجب فعله من أجل تحقيق ذلك. وكان هذا كل شـيء بالنسـبة إليّ. نعـم، كان لأيبيكة هانـم فضلٌ كبيرٌ علـيّ، لا أنكر ذلـك، لكنني أقول دائماً: أن تنتظر معروفاً من عبدٍ فهذا مسـتحيل، إنه فقط ينتقم عندما تسـنح له الفرصة.

لم يتوقف سـليمان خـان عند هذا الأمر رغـم أنه وجدني قاسـياً، بل منحني حريتي بعد فترةٍ قصيـرةٍ، وأفصح بجلاءٍ أنه بإمكانـي المغادرة متى شـئت. لكنني كنت أحس ببداية عهد القوة والسـلطة الدافئ، فلم أفكر قط بالذهـاب إلى أي مكانٍ. لقـد عرض عليّ الشـاهزادة المعظـم ذلك - ولو أنه فعل ذلـك بطرف لسـانه - فاضطربـت قليلاً، ثم سـرعان ما اسـتعدت السيطرة على نفسي واتخذت قراري، واستعملت مواهبي في التصرف بما

تقتضيه ظـروف الزمان والمـكان والموقف، وأطلقت صيحتـي وأنا أقول: «سـيدي، لا أرضى باسـتبدال عبوديتي لك بمال هذه الدنيا كلها». لم يكن لأي مـدّاح[1] أو ممثل مسـرحي أن يجاريني فـي مثل هـذا الموقف، حتى إن سـليمان شـاه أكرمني بخمسـمئة قطعةٍ ذهبيةٍ لإرضائـي، فعاندت قلبي وطلبت توزيعها كلها على الفقراء والمسـاكين، وتركـت قلبي ينفطر حزناً، ولـم آخذ منهـا قطعةً واحدةً. فلما بلغ ذلك سـمع سـليمان خان اغرورقت عيناه بالدموع، وقال: «إننا منـذ الآن أخوان». ووعدني بـأن أعيش بجواره في أمانٍ واستقرارٍ طالما بقي على قيد الحياة.

نشـأت بيننا صداقة حميمة إلى درجة تثير حفيظة الحساد. إذ لـم يكن الشـاهزادة المعظـم يتصف بشـخصية حازمـة كأبيـه، ولـم يسـتغرق فهمي الطفولة البسيطة التي تعيش في أعماقه وقتاً طويلاً. فقد كانت طفولته تلك تظهر عليـه بمجرد لقائـه صديقاً ينـال ثقته، ولم يكـن ذلك عيبـاً في حقه. ولذلـك كان محبوباً أكثر مـن أبيه، وحبه هـذا كان دافعاً للأمـة والإداريين للتمسـك أكثر بمفهوم العدالة. كنت أدرك أنه يحس بالحمل الثقيل الناجم عن كونه الوريث الوحيد للعرش، فهو يبحث عـن صديقٍ يتجاوز به عزلته الكبيرة، وكان سـعيداً بعلاقته مـع صاحب موقفٍ وفـيٍّ مثلي. أمـا أنا فقد كنـت أخطو خطـوةً هامـةً كبـرى، وإن كانت تبـدو للوهلة الأولـى صغيرة ومتواضعـةً فـي نتائجهـا. ولسـت أدري أي قـوةٍ خفيـةٍ في أعماقـي كانت ترشدني وتهديني إليها بكل مهارةٍ وذكاءٍ، وأنا مدينٌ لتلك القوة بالتأكيد.

كنت أغسل قدميه مساءً في الوعاء الموشى بالذهب، ثم أشرب الماء حتى آخر نقطة فيه، وتتملكني السـعادة وأنا أرى عينيه تغرورقان بالدموع. كنت موقناً بأننـي أصبحت نقطة ضعـف لديه. فنحن لـم نفتـرق عن بعضنا

(1) المـداح لقب يطلق على الممثـل الذي يؤدي المواقف الطريفـة والتهريج بما يقابل الممثل المسرحي في أوروبا في ذلك العصر.

منذ لقائنا، حتى بات يشعر أنه يحتاج إليّ أكثر من ذي قبل في الأيام التي اعتلى فيها العرش؛ لأن كل واحدٍ منا يحتاج إلى من يقف معه في هذه الحياة. فالإنسان كلما ازداد قوةً يرى نفسه خلف جدار العزلة الظالم ذاك، فلا يقوى على الابتعاد عن حافة الجنون. حتى أنا كنت أشعر بين الحين والآخر أنني على حافة جنونٍ لا شفاء منه.

في اليوم الثاني والعشرين من أيلول عام 1520 م بلغنا نبأ وفاة والده المحترم ياووز سلطان سليم خان وهو لا يزال في الخمسين من عمره في قريةٍ صغيرةٍ قرب أدرنه. كنا حينها في رحلة صيدٍ على السفوح الممطرة لجبل سبل، فسرنا على عجلٍ عبر الوديان الضبابية، وفوق القمم الصخرية الملساء المنحدرة والزلقة والمغطاة بالسحب وعلى ضفاف الأنهار الفائضة. نصبنا الخيمة ذات ليلةٍ تحت بقعةٍ صخريةٍ غريبة الشكل، فأعددت له الطعام بنفسي بسبب قلقٍ غامضٍ مجهولٍ... لم نكن نقوى على الحراك من شدة البرد والتعب، وكانت الصخور تثير الرعشة في نفسينا وتجعل ليالينا مليئة بالكوابيس؛ فكنت الحارس الذي يحرسه، ويبعد عنه كوابيسه.

بعد تسعة أيامٍ بلغنا إسطنبول، وبالتأكيد كنت أنا من رددت الصدر الأعظم بيري محمد باشا على أعقابه بحجة التعب. ثم استقبل نعش المرحوم سليم خان أمام قصر طوب قابي، ونقل إلى صحن جامع الفاتح. وبالطبع، كنت أنا من يقف إلى جوار السلطان سليمان في مقدمة النعش. وباءت كل محاولات بيري باشا العجوز في الحلول مكاني في المقدمة بالفشل. كنت ملازماً لسليمان لا أفارقه؛ وهذا أمرٌ لم يغب عن عيون الحاسدين. وكانت النظرات الحائرة في عيني الصدر الأعظم بيري باشا الواسعتين تستقر أول ما تستقر عليّ. فقد تراجع إلى الوراء، وتناثرت

خصلات لحيته البيضاء، وانحرفت قبعته، واحمرّ وجهه النحيل.

خلال مراسم تقليد سليمان خان السيف كعاشر سلطانٍ عثماني في أيوب سلطان من قبل المتوكل الثالث الخليفة السابق في المنفى[1] في الأول من شهر تشرين الثاني من عام 1520م؛ كان يقف إلى يمين العرش على التوالي بيري باشا والوزير الثاني مصطفى باشا والوزير الثالث، إضافةً إلى فرحات باشا صهر سليم خان، وكنت بجوارهم. وحين طلب مني سليمان خان الوقوف بجواره، اعتذرت منه بلطفٍ لأن ذلك لن يكون مناسباً، وقلت له إن صدراً أعظم مثل بيري محمد باشا لن يتقبل هذا التصرف المنافي للأصول العامة، وإنني لا أحب أن أكون سبباً في حدوث فتنة. ولم يعد يهمني وجودي أو غيابي هناك بعد أن رأيت ما رأيته من ضيق ظاهر على وجه السلطان... كلّ ما قلته صحيح، فالسلطان سليمان كان يمضي وقته معي أكثر مما يمضيه مع خاصة أهله؛ زوجته الأولى غولفم هانم والثانية السلطانة ماهي دوران، وابنه الأمير مصطفى خان. وكان لتخصيصه الغرفة المجاورة له كغرفة لي فعله في تأجيج حسد الحاسدين، حتى بلغت مسمعي الشائعات بأنني سحرت السلطان سليمان. فقد كان لدي معملٌ سرّيٌّ في مانيسا حسب ما سمعه آغا البنات من آغا الرقاب دار، نقلاً عن آغا الجوخ دار، وهو بدوره عن آغا السلاحدار، وحسب زعمهم كنت أعمل هناك سراً في الليالي على إيجاد رقىً وسمومٍ تسبب الجنون لمدة قصيرةٍ أو لمدة سنةٍ أو تقتل الإنسان

(1) هو الخليفة العباسي محمد بن يعقوب المستمسك بالله العباسي، والملقب بالمتوكل على الله الثالث، شغل هذا المنصب تحت الوصاية المملوكية في القاهرة من 1508م وحتى 1516م بعد مقتل والده المستمسك بالله على يد المغول في بغداد. وبعد فتح مصر عام 1517م، تنازل عن الخلافة للسلطان سليم الأول، فكان أول خليفة عثماني للمسلمين. وبعد وفاة السلطان سليم الأول تولى الخلافة ابنه السلطان سليمان الملقب بالقانوني بطل الرواية. توفي المتوكل على الله الثالث عام 1534م.

وهو يتعذب، كما تضيف الشائعات أن أمي حسب القيل والقال كانت ابنة إحدى مشعوذات اليونان المشهورات، والتي قتلت حرقاً قبل مئة سنةٍ. صحيحٌ أنني أعرف تركيبة نوع أو اثنين من السموم ولا أنكر هذا، إلا أننا كنا نتناول شائعات المعمل السري ضاحكين ساخرين.

كان الصدر الأعظم بيري محمد باشا محل ثقة ياووز سليم، وكان رجل دولةٍ يولي المراسم أهميةً عظيمةً، ويعمل بخبرة ثمانٍ وخمسين سنة بنضجٍ كبيرٍ وسعيٍ دؤوبٍ، ويطبق القواعد بحذافيرها. وكان قد حظي بتحمل مسؤولية الصدارة العظمى مرتين في عهد سلطانٍ حازمٍ مثل ياووز سليم، ونجح في صون رأسه ومكانته. ولكن، كان هناك أمرٌ آخر يقلقني بكل ما للكلمة من معنىً. فبعد فتح إسطنبول، وعلى مدار مئةٍ وأربع وخمسين سنةً كانت أسرة تشاندرلي والأسر التركية العريقة في مقاليد الحكم تشكل فواصل صغيرةً، فقد أبعدت كل الأسر التركية العريقة عن الإدارة، وصودرت أموالها، وكان ذلك سبباً في ترجيح كفة الدّوشرمة[1] في الإدارة، حتى غدوا - وهم في موضع العبيد - من القوة بمكانٍ يمكنهم من تصفيته من دون أن يلقوا احتجاجاً من الناس. وقد أدرك السلطان محمد الفاتح الثاني في أواخر حكمه خطورة الدوشرمة، وبدأ يشعر بفقدان الثقة بقادتهم، وأزعجته تكتلاتهم وتنظيماتهم السرية في مؤسسات الدولة، ولعله ندم على السياسة التي اتبعها تجاه الأصول التركية بعد أسرة تشاندرلي، فولى محمد قره مانلي باشا من أحفاد المتصوف الكبير مولانا، والذي سرعان ما توفي مسموما وهو في سن الشباب قبل أن تمضي فترةٌ طويلةٌ على توليه منصبه. وعندها، عاد الدّوشرمة مجدداً إلى احتلال مراكز السلطة. ومهما قيل إن غالبية

(1) وتعني النخبة، حيث تشكل وحدة عسكرية من أبناء الملل غير المسلمة وأبناء العبيد، يضمهم السلطان إلى القصر، ويتلقون التربية والتدريب الخاصين.

المناصب العليا والحساسة كمنصب شيخ الإسلام، والقاضي عسكر، والدفتردار، ورئيس الكتاب ظلت غالباً في أيدي ذوي الأصول التركية؛ إلا أنهم ظلوا محرومين من الشعور بالوحدة التي كان الدوشرمة يتمتعون بها بسبب الصراع على المناصب؛ حيث كان يتم إرضاؤهم بتغييرٍ مستمرٍ لمناصبهم أو إحالتهم إلى التقاعد برواتب عاليةٍ وما شابه، وهكذا تأسّس نظامٌ بدا أنه لن يتغير أبداً، حتى كان عهد السلطان ياووز سليم خان. عمل ياووز مع ستة صدور عظماء أعدم ثلاثةً منهم، وكانت الولاية الثانية لبيري محمد باشا قونيلي من أحفاد العلامة الكبير جمال الدين أقصرايي في منصب الصدر الأعظم في آخر عهده تدل على أنه لم يعد يثق بغير ذوي الأصول التركية، لكنه مات أيضاً في سن الشباب مثل جده الفاتح.

والآن، ها هو هذا التركي الخبير الذي كان يراقب الدّوشرمة عن كثبٍ على رأس الدولة أيضاً، وبدأ يولّي الأتراك المناصب الحسّاسة. وكان الزمان كفيلاً برسم خطوط المستقبل. ولو أنني وجدت حليفاً قوياً من دون أن تنالني عداوة الدوشرمة الآخرين؛ فأنا أستطيع أن أوقف آمال الأتراك في السلطة. ولا ينبغي لرجلٍ مثلي أن يستهين بذكاء سليمان خان وإحساسه المرهف، وعليّ أن أمشي بخفةٍ في الخفاء كعادتي دائماً.

وشيئاً فشيئاً، بدأت أنشر إشاعات تتحدث عن غضب إلهي بسبب اعتلاء الأتراك السلطة، فعلت ذلك بمهارة؛ حتى إنني صدقتها خلال فترةٍ قصيرةٍ لا تتجاوز عدة أسابيع. انتشرت الشائعات بسرعةٍ واتسعت حلقتها وكبرت. ولِمَ لا؟ ألم يكن ذلك رداً على ما قيل عني وعن أمي؟! نعم، أستطيع أن أجد ألف شخصٍ يشهدون على وجود ضوء أصفر في السماء قبل عواصف الخريف التي تشتد هذا العام على غير العادة، وها هي طيور البوم تعشش داخل المدن على غير عادتها، وتنتشر في المقابر. وهل كانت ولادة عجلٍ ذي رأسين بالقرب من كبزه كذبة؟ كما وجد أحد الصيادين

أفعى تبتلع ذيلها في غابات اسكدار... ومثل هذه الأمور في الأساطير المصرية واليونانية نذير شؤمٍ وسوء، وبداية النهاية. أما صيادو السمك فقد تحدثوا عن نزيف دم وجدوه في أفواه الأسماك التي اصطادوها في الشهر الماضي! لم يكن صعباً عليّ نشر كل تلك الشائعات في المجتمع العثماني الهجين البسيط من دون أن أثير أصابع الاتهام لتتجه نحوي...

فلتنته المراسم والتهاني التي لا تعرف نهاية، ولتصفُ الأجواء، وليتربع سلطاني على عرشه، وليتمكن منه جيداً... حتى أمضي إلى الجاسوس العميل الذي أثار الفوضى في الميدان منذ زمن سليم خان وأستمع إليه. لم يعد أحدٌ يجهل تجوال جواسيس البابا في طول البلاد وعرضها. كان ينبغي لي أن أتعرف عن قربٍ التدابير التي يتخذها هذا الثرثار... لم ينشرح صدري لوهيمي أورخون جلبي منذ لقائي الأول معه، فهو أسمر مثلي، ويتطاير الشر من عينيه، وجسمه المليء يجعله يبدو قوياً كالثور. ورغم ذلك، فإن شكله الموحي بالتزلف يزيد من نفوري منه. وكذلك لم يسعدني أيضاً لقائي الأول مع مصلح الدين مركز أفندي في قصر مانيسا، وكان سليمان خان قد أرسلني إليه ليطلب منه القدوم إليه في إسطنبول. ومركز أفندي رجلٌ يناهز الستين، ذو لحيةٍ بيضاء، ومظهر محبوب. أحسست بقلبي يكاد ينفطر ضيقاً ونفوراً منه حين علمت أنه لم يكن يرتاح لي. ويحيى أفندي أخ السلطان بالرضاعة مؤثرٌ حاضرٌ كالظل في مجلس السلطان،كما أنه حاضرٌ في غيابه. وأشعر أن روحه تلاحقني مثل ظلي، أو إنها حقيقةٌ ورائي، فمن يدري؟! حين ولد سليمان خان كان حليب أمه قليلاً لا يكفيه، لذلك أرضعته أم يحيى أفندي، وكان ضم أخيه الكبير في الرضاعة يحيى أفندي إلى قصر أق صراي، وجعله في خدمة الشيخ المهيب مفتي الأنام علي جمال أفندي المشهور بالزنبيللي، وحضوره دروسه أول ما قام به السلطان بعد اعتلائه العرش. ويبدو أن

آفاق يحيى أفنـدي الروحية المعنوية كانت واسـعةً وتحلق عاليـاً بعيداً عن مشـاغل الدنيا، وشـهدت عدة مراتٍ عدم تردده في الكلام أمام السـلطان، فكان سـلطان العالم يقـف أمامه مطأطـئ الـرأس متواضعاً... أنـا لا أفهم طبيعة الأتراك وسرّهم المؤنس المصبور.

علـى أي حال، سـأبحث بعد الحديث إلـى وهيمي أورخـون جلبي في الهدايا التي جاء بها التتار إلى سليمان خان لتهنئته، علّني أعثر في هدايا هؤلاء المتوحشين على أشياء تليق بسلطاني، أو أختار لنفسي منها شيئاً ينفعني.

الوحدة في المرايا
(سليمان شاه)

I

السّرّ ملكٌ، فحافظ عليه!

الشيخ غالب (حسن العشق)

21-22 تشرين الثاني

نظرت إلى المرآة، فرأيت صورتي وصفحة السماء منعكستين عليها، فخاطبت نفسي قائلاً: «أنت، خيالي المنسرب في السماء الآن، لا بد من الوقوف في الظل حيناً آخر، والانتظار بصبرٍ حتى تقوى على حمل أمانة الدولة ومسؤوليتها على كاهلك. كما ينبغي لك أن تمرن كاهلك وأنت تعد نفسك لهذا الأمر الجلل!».

أترك دواتي وريشتي وأنهض، وقد تعرق ظهري قليلاً، وأفكر في سري: إن البلاد الواسعة التي استلمت قيادتها، والتي تبلغ مساحتها نحو سبعة ملايين كيلومترٍ تقع مسؤوليتها على عاتقي؛ وهذا التفكير يؤرقني. أنا سليمان، أنا السلطان سليمان، ألتقط أنفاسي فقط في الأوقات القصيرة حين أكتب أشعاري وأنحت الأحجار الثمينة.

ها أنا أستيقظ عند الساعة الرابعة صباحاً مجدداً، وأبدأ بالكتابة. وبعد قليلٍ، سأرى وجه رئيس الحرس الكالح، حين يأتي ليوقظني كي أقوم بتدريباتي اليومية. أمجبرٌ أنا على الاستمرار في هذا البرنامج الثقيل الآن؟ نعم، فأنا لا أريد أن أواجه مشاكل مع بيري باشا منذ أيامي الأولى،

فإن ذلك التركي العجوز يخيفني بهيبته، وكأنه يخنقني.

نعم، في صحوة الصباح البارد يتخذ الجنود الحراس عند أسوار القصر وضعية الاستعداد حين يرونني: أذرعهم منفرجة على الجانبين كالنسر، ورؤوسهم مرفوعة. وعلى الرغم من السيوف في أغمادهم، فهم يقفون وكأنهم تماثيل حجرية. أنا اليوم في غاية الإرهاق. يا الله! لم أكن أتعب هكذا سريعاً حين أجري... ينبغي أن لا أتعجب، فأنا متوتر، وهذا وحده يرهقني. هذا وقت التدريب على رمي السهام، سيأتي المدرب المشهور الكبير محمد بورصلي من الإنكشارية، وحين يراني مرهقاً سيظن أنه أدرك فرصة التغلب عليّ بسهولةٍ. لكن إحساسه وتجاربه لن تفيده؛ لأنني سأتغلب عليه هذه المرة أيضاً. فالمسألة ليست فقط في أن أكون قوياً وسريعاً، كما أنها ليست في ترقب هفوات الخصم والهجوم عليه في اللحظة المناسبة، بل إنها أن يدرك الخصم الصورة التي تريده أن يراك فيها، وعندئذ تستطيع إجباره على المحاربة في الميدان الذي تريده. والمهارة أن أكون كوالدي الذي كان يشق العواصف، لا أن أقلب شجرةً عجفاء على حافة هاويةٍ، وأن أنحني بمهارة حتى تمضي الرياح، وأنتصب بعدها مرةً أخرى دونما كللٍ كسنبلة قمحٍ.

هلك أبي بسبب غضبه الذي يذكر بأجواء بحر الشمال المظلمة التي لا مثيل لها. نعم، ربما لا يمكن لمثل تلك المرحلة العظيمة القصيرة أن تتكرر مرة أخرى في هذه البلاد، لكنني واثقٌ بأنني قادرٌ على المحافظة على الأمانة التي استودعها والاحترام الذي ناله بين الأمم... نعم، أستطيع أن أتحمل المسؤولية؛ فمنذ طفولتي وأنا أعلم أنه لا سبيل لي إلا اختيار طريقٍ يناسب شخصيتي. كان أبي في الأربعين من عمره حين تولى العرش بعد ألف صراعٍ وصراع، وقد أنضجته صراعات الإخوة بعد اعتلائه العرش. وسياساته الفعالة تجاه بلاد فارس منذ أن كان أميراً أكسبته تجارب عميقة أثرت خبرته. أما أنا فما زلت في السادسة والعشرين من

عمري، وما زلت صغيراً في عيون الكثيرين على حمل هذا الإرث الكبير بشكلٍ سليم، غير أنني حين ولدت كان أبي والياً على طرابزون التي كانت إمارةً أصغر بكثيرٍ من مانيسا، ولقد حكمت مدينةً أكبر من تلك التي حكمها هو، وكنت ناجحاً جداً. إن اكتساب محبة الأمة في قناعتي أصعب من إرهابها، ولذلك أنا أنزعج الآن من سماع الاتهامات التي تدور حول إرهابه، كما أنزعج من سماع اتهامات الضعف تنال مني في أمورٍ كنت أغض الطرف عنها أحياناً. لكنهم سيرون أنني لن أرضى بأن أعيش في ظل أبي، ربما سيستغرق هذا زمناً، فدرب المجاملات أشد صمتاً وهدوءاً.

في منامي، رأيت مدينةً مهجورةً تتحرك ببطء على سطح بحرٍ هائج، تحت أشعة شمس الغروب التي تتراقص على جدرانها الغرانيتية السوداء، لعل هذه الرؤيا كانت نابعةً من قلق إنسانٍ يحمل في طيات نفسه مصاعب إثبات ذاته فقط، وهذه الرؤيا تنبيهٌ على الطريق، وعلي الاستعجال... عليّ أن أسرع كي أثبت للصديق والعدو أنني أستحق هذا المقام.

ها هو محمد أوقجي قادم! إنه أقرب إلى المصارع منه إلى الرامي، فيداه كبيرتان، ويمكن أن يمسك بهما يقطينةً من أعلاها، وصدره عريضٌ، وكان بذراعيه مفتولتي العضلات ومحيطهما الذي يتجاوز نصف مترٍ عملاقاً كالغول. لم يكن معلمي الأول في الرماية، ويبدو أنه سيكون الأخير. ربما لم تكن لدي قوة ذراعٍ كأبي، ولا أستطيع شدّ عدة أقواسٍ معاً، ولا أستطيع صرع المصارعين واحداً تلو الآخر، كما أنني لست جسوراً مثل جدي محمد الثاني، وربما لا أملك ذكاء يزيد في أثناء الحملات، غير أنني أملك شيئاً لم يكن أولئك يملكونه: هدوئي الذي يخدع الناظرين.

انحنى هذا العملاق أمامي حتى الأرض كي أسعى إلى طمأنته بأنه لن يلحق به أي أذى إن انتصر عليّ. هذه هي المباراة الثانية التي أخوضها مع محمد أوقجي. إنه أشد مراساً من الرماة الذين تباريت معهم في

مانيسا، وكان على وشك التغلب عليّ في المرة الأولى. لكنه لمّا رأى أنه تمادى كثيراً أرخى يده قليلاً، ولم يعلم أنني رأيته وهو يفعل ذلك. إنه يحسبني غرّاً تجب ملاطفته ككثيرٍ من ملوك أوروبا.

لو حصل هذا الأمر في حضرة والدي لغضب غضباً شديداً، ولصرع هذا الرجل العملاق في لكمةٍ واحدةٍ. لكن هذا التصرف لا يناسبني، لأن لديّ مظهري الهادئ الصبور كما لو أنني كنت أعمل بصبرٍ في ورشة الصياغة وأنا أعالج قطعة ألماسٍ نادرة، أو عقيقاً تحتبس في داخله أشعة شمس تميل نحو الغروب، أو ياقوتة تكتنفها الألغاز، أو حبات أوبالٍ زجاجية رائعة الألوان. في عهد إمارتي، حين كنت أنحت طغرائي الخاص (سليمان شاه بن سليم شاه خان المظفر دائماً)؛ كنت أخفي تحت أسارير وجهي المبتسم حمماً لا يعلم بها أحدٌ؛ حتى إبراهيم. لكنهم كانوا ينسون ابن من أكون. دعهم ينسون، فهذا أفضل يا سليمان... هذا أفضل... دعهم ينسون!

ها هو إبراهيم قادمٌ أيضاً، أي ليلةٍ قضاها؟! فعيناه المحمرتان منتفختان. إنه صديقي الوحيد الثرثار. جربت معه أول ما جربت نظراتي الهادئة التي تبث الراحة وتنشر الطمأنينة في النفوس، وأنا راضٍ لأنني نجحت في ذلك، ولاحظت الراحة والطمأنينة في تصرفاته وفي نظرات عينيه. ولئن نجحت في ذلك مع شخص ذكي مثل إبراهيم، فإن الأمر مع الآخرين سيكون أيسر. والحقيقة أن كل واحدٍ منا ممثلٌ بارعٌ يحتاج إلى الآخر.

إنه قريني وفي سن الشباب مثلي، أحب جديته المطلقة في سعيه إلى تحقيق أهدافه، وعزمه الذي لا يعرف الكلل. إنه ماهر جداً في بدعته التي ابتدعها مؤخراً عندما شرب الماء الذي غسل به قدمي. ففي المرة الأولى، بالكاد استطعت أن أكبت رغبتي العارمة في التصفيق له حتى تؤلمني كفاي، عجباً من قدرته على التمثيل! كانت حالة الشوق العارم التي يبديها

تجاهي مؤثـرة جداً بقـدر ما كانـت هزليةً، حتـى دمعت عينـاي وأنا أكبت ضحكتي، وعانقته تعبيراً له عـن إعجابي به، لا محبة به. لسـت مخطئاً إن قلت إنه بدأ يحتل عندي مكانة لا تمكنني من الاسـتغناء عنه، فهو بارع في تقديره للشـؤون الدبلوماسـية، ويتبع أسـاليب جديدة مختلفة عن الأصول المتعارف عليها، ولم يكن مثل بيري محمد باشـا فـي جموده حين يمضي نحو هدفه، وكنت أرى روحه المتبرمة حزناً خلف سـتار جديته المدهشة. رأيته أول مرةٍ عندما كنت في مانيسا، وأدركت حينها أننا معاً نستطيع القيام بأعمـالٍ عظيمـةٍ، ويمكنه تقديـم خدماتٍ لا تحصـى للدولة إن اسـتطعت تأمين انضباطه. وسـيبقى هـذا التمثيـل بيننا مسـتمراً ما بقي يقـدم خدماته للدولة.

لقد حدثني جواسيسي أيام الصيد عن شاب كامل الأوصاف وحسن المعشـر يسـعى إلى لقائي، ولذلك يكثر التجول في الأماكـن التي اعتدت أن أخرج للصيـد فيها، وكان إبراهيـم يتقدم في خطته البسـيطة المؤثرة في ثباتٍ. وعندمـا كان يبحث عني كان فـي الحقيقة يجهل بحثـي عنه... ففي الأيام الأولى التي وطئت فيها قدماي مانيسا، بلغتني معلوماتٌ تدور حول أغلى وأمهر عبدٍ فـي المنطقة، وحين علمت أنه يحوم فـي حرصٍ واهتمامٍ في سـاحات صيدي، بـدأت أتابعـه يومـاً بيـومٍ، وتكلمت مع سـيدته عدة مرات، فقالت السـيدة أيبيكة: «لقد نشأ نشـأةً جيدةً، وهو ذكيٌّ جداً، وبارعٌ إلى درجـةٍ تحملني علـى القلق». لقـد كان اليأس والإرهـاق يظهران على وجهها: «لقد بذلت مـن أجله كل حياتي يا أميري لكنـه يجاملني ويداريني على الدوام».

لمحت علـى وجـه المـرأة الجميل ملامـح الألـم بسـبب اللامبالاة التـي يتصـرف بهـا إبراهيـم معهـا. كانـت دموعهـا تتدحـرج علـى خديها كاللآلئ تاركةً آثارهـا البراقة. حاولت التخفيف عنهـا فقلت لها: «تخطئين أيتها الهانم! لعلـه يريد حماية مشـاعرك ولهـذا يضع حدود الاحتـرام بينه

وبينك!».

- لا يا مولاي الأمير. سترون أنه لن يترك وسيلةً حتى يتمكن من قلبكم، وبعدها سيفكر في ذاته فقط. وأنتم بما تملكونه من فراسة ستدركون حقيقة هذا الفتى، فأنا لم أستطع أن أفهمه طيلة تلك السنوات رغم كل ما أكنه له من الأحاسيس الأصيلة. وحين كان يحيطني بعنايته، كان في الحقيقة يحكمني، من دون أن يمنحني الحب الذي كنت أتمناه. لقد أنهكني ولم يعد لي أملٌ في حلمي المنتظر.

- أيبيكة، سأضمه إليّ.

- كيفما تريدون يا مولاي. ما دام كل شيءٍ يبدو للعيان، واستطاع أن ينجح في إظهار عجزي وافتقاري إلى كل شيء، إذاً لا يسعني إلا التسليم لأمركم.

- لكنه لن يعلم يا هانم بموقفك هذا، بل سيظن أنك ملتاعة من أجله، وأن قلبك ينفطر لفراقه.

- لكن ذلك لن يغير من حاله يا مولاي. ربما سيظن أنه ينتقم مني... واغرورقت عيناها بالدموع مجدداً.

- كيف تكونين متأكدةً إلى هذه الدرجة؟!

- إنه قلب الأم يا مولاي... قلب الأم.

- سلمت يا أيبيكة هانم، لتعلمي أنني لن أظلمك.

عادت أيبيكة إلى البكاء والنحيب، وجلست قرب قدميّ وهي تصرخ:

- أي انتقام يا مولاي؟ أي انتقامٍ هذا الذي ينتقمه مني أيها الأمير؟! لقد أفنيت عمري من أجله... فأطعمته، وسقيته، وألبسته، وعلمته، وأحطته برعايتي...

أطرق الأمير سليمان مفكراً ثم رفع رأسه وقال:

- أبي أيضاً لم يكن يثق بجماعة الدوشرمة في أواخر عهده مثل

جدي الفاتح يا أبيكة هانم. لكننا سنرى، لا تهلكي نفسك هكذا، وعليك بالصبر. سنرى ما تخفيه الأيام...

ما زلت تستطيع أن تفتخر بأن مستوى ذكائك لا يمكن بلوغه يا إبراهيم، ولكنني أنا الفائز، أنسيت ابن من أكون؟ ستكون دولتنا وأمتنا الرابحتين، فبفضل أدوارك الناجحة في التظاهر بالبساطة الماكرة، وأنا في أدواري الناجحة في التظاهر بالسذاجة رغم ما أتمتع به من ذكاء، ستكون أمتنا ودولتنا الرابحتين من هذه العلاقة الغريبة، وستكون على رأس المجموعة التي أريد إنشاءها، وستحكم بقدرتك المخيفة على السحر، وسأتظاهر بجهلي مخططاتك للوصول، فيما أتحمل ظهوري كألعوبة بين يديك. ستقوم بكل الخدمات من أجلي، وسيشرق وجهك ظناً منك أنك تسعى إلى تحقيق أهدافك، إنني أعلم أنني عتبةٌ تطأها لتحقيق أحلامك، لكنك تغفل عن أنك سلّمٌ كبير في طريقي لتحقيق أهدافي. ليكن ذلك. المهم هو سلامة الدولة العلية، ولا أهمية بعدها للأفراد والمشاعر. ستكون أستاذاً بالدور الذي تقوم به لإظهار حبك المزيف، وسيأتي يوم تحبني فيه حقاً، ولعل الشيء ذاته سينطبق عليّ أيضاً؛ لأنك تعلم أن الإنسان عندما لا يظهر كما هو فعلاً، ينقلب تظاهره مع الزمن إلى حقيقة.

وهذه الليلة، بعد الاستماع إلى جاسوس والدي وهيمي أورخون جلبي، سأخطو خطوةً أخرى، وسأكرمك يا إبراهيم بمرتبة كبير مربي الصقور في القصر، وسأكون بذلك قد بدأت بتوطيد العلاقة التي تربطنا.

II

- استمع إلى ما أقوله يا إبراهيم. أنت تريد معاقبة وهيمي أورخون جلبي، لكنني أرى أن نزيد دعمنا له. فها هو مبعوث البندقية بارتلميو كونتاري قد جاء لزيارتي ظهر اليوم، وأبدى استعداد بلاده التام لدعمنا ضد الإسبان والبرتغاليين، مقابل دعمهم في أنشطتهم ضد شارلكان. وإذا سارت الأمور هكذا فستتوقف التجارة الإيطالية في البحر المتوسط تماماً، في ظل انضمام غالبية الإمارات الإيطالية إلى النفوذ الإسباني.

لم أر في حياتي رجلا سريع البديهة، يحسن إدراك اللحظة التي ينبغي عندها أن يتراجع خطوةً إلى الوراء مثل إبراهيم، فقد سارع بالرد قائلاً:

- سلطاني، ليست لدي مشكلةٌ مع وهيمي أورخون جلبي وجماعته، ولن تكون. إنه أمانة تركها لنا المرحوم سليم خان، واحترامي لخدماته بلا حدود. إلا أن إفلات ذلك الماكر سافينو ورجاله من قبضته في أراضينا لا يغتفر.

- في هذه الحالة، أنا أعاقبه بأن يقبّل يدك ويركع أمامك لتعفو عنه.

لا شك في أن هذه العقوبة لم تكن ترضي غروره، ورغم ذلك أظهر الرضى بها. سيأتي وهيمي أورخون جلبي غداً إلى الديوان في الصباح، وسيقبل يد إبراهيم أمام حضرات الوزراء والوجهاء في الديوان باعتباره رئيس عسس إسطنبول، وهكذا سيعتبر هذا الاعتذار بمثابة ترقية لإبراهيم، ورسالةً بسيطةً إلى بيري محمد باشا ليعرف حدوده. أعرف أن هذا الأمر سيجرح شعور أورخون جلبي، لكن دعمي له سيكون أكبر تكريمٍ له. ورجل خبير مثله سيكون سعيداً بذلك.

أشـار إبراهيم إلـى الخرائـط المنشـورة علـى الطاولة وهـو يخاطب أورخون:

- انظـر يا أفنـدي إلـى هـذه الخرائـط، وتأكد مـن عظم المسـؤولية الملقاة علـى عاتقك مرة أخرى. فبأمـر من مولانا السـلطان، توضع جميع مصادر الدولة أمانةً بين يديك. انظر جيداً، وتعـرّف مرةً أخرى على عظمة الدولة التي تتولى إدارة أنشطتها الحساسة، لقد تضاعف حجم هذه الدولة خـلال السـنوات الثمانـي الأخيـرة مرتيـن ونصـف بفضـل جهـود مولانا السلطان سليم خان أسـكنه الله فسـيح جناته. فلقد وضع أساساتها المتينة في القارات الثلاث، فوصلنا فـي الجنوب إلى البحر الأحمـر وبحر عمان وسـواحل المحيط الهندي، ودخولنا خليج البصرة مسألة وقتٍ، وسندخله في القريـب العاجل إن شـاء الله. وفي غـرب البحر المتوسـط، نحن نزيد قوتنا هناك يوماً بعد يومٍ...

أجاب وهيمي أورخون جلبي وفي عينيه علامات الانكسار:

- لقد كنت في كل هذه الأقاليم التي تحدثت عنها تقريباً.

- أورخون أفنـدي، قلت لـك إننـي لا أنكـر خدماتـك، لكنني فقط أنبهك قليلاً كي لا يدفعك رحيل قائد جبار مثل سليم خان، وطبع سليمان خان الرحيم، إلى أن تركن إلى الراحة.

عندها، استشاط أورخون جلبي غضباً وقال:

- أعلم أنني مخطئٌ، وأرجو أن تعلموا أنني سـأفعل كل شـيءٍ لعدم تكرار هذا الخطأ. لن يتسـلل سـافينو إلينا بسـهولةٍ هكذا مـرة أخرى... ما حدث مرةً لـن يحدث مـرةً أخرى. لذلـك، يا إبراهيـم آغا، سـيرى مولانا السلطان وسترى أنت عما قريبٍ أنني لن أعود خالي الوفاض أبداً.

تحـرك إبراهيـم فـي مكانه فـي اضطـرابٍ، وهـو يبـدو منزعجـاً من مقاطعـة حديثه بمثل هـذه الحدة. نظـر السـلطان إليهما مـن حيث يجلس وهو يفكر في سـره: يظـنّ أنني لـم أفهم مـا يريده، وأعلـم أنـه لا يريد أن

يفكر مجرد تفكير في أن يبقى موقعٌ هامٌّ كموقعه بعيداً عنه. وعلمه أن الطبقة العليا لهذه التشكيلات مؤلفة من أتراك يزعجه من دون شك، ولذلك سيتقدم إليّ بعرضٍ في أقرب وقتٍ. لكن والدي كان يردد دائماً أن أورخون جلبي ليس لقمة سهلة الابتلاع، وسيدرك إبراهيم ذلك قريباً. ينبغي أن يبقى إبراهيم خلف وهيمي أورخون جلبي، وينبغي هنا ألا أنسى أن الحد من قلقه سيكون لمصلحتي... الأتراك هم العناصر المؤسسة لهذه الدولة، والرعايا الأكثر أصالةً وصدقاً، وهم أناسٌ صادقون ولطفاء بطبيعتهم، والفتنة الشيعية الصفوية لم تكن لتطل برأسها لو استطاعت الدولة العثمانية اتباع سياسةٍ مستقرةٍ لكسب تعاطفهم. عند تلك الفكرة، تدخل السلطان بينهما وهو يقول:

- أكرر يا إبراهيم، إن دعمي لأورخون جلبي تامٌّ ومستمرٌّ، ودعمك المعنوي له هامٌّ أيضاً. ومن حسن حظّنا وجود رجلٍ مؤهّلٍ بيننا مثل أورخون جلبي في هذه الأيام التي يصول فيها الجواسيس بيننا، وعلى رأسهم جواسيس البابا والإسبان والبرتغال. من المؤكد أنه ستقع بعض الأخطاء، لكن المهم تفاديها.

بدت علامات المكر على وجه أورخون، وانطلق يقول بشيء من المزاح:

- كما تفضلتم. واسترق نظرةً إلى عيني إبراهيم ثم أضاف: «وحتى أتلافى خطئي، إن آخر الأنباء التي بلغتني موجودة في طيات هذه الرسالة الموجهة إلى رجالي في ساعات الصباح يا مولاي السلطان».

نظر إبراهيم إلى أورخون جلبي بعينين تملأهما الدهشة والانفعال، ونهض فوراً ليلتقط الرسالة منه:

- عليها ختم والي مصر خبر بك يا مولاي السلطان. ولكن، لحظة...

أخرج الرسالة من غلافها الجلدي، فظهر غلافٌ جلديٌّ آخر معطّرٌ

بالمسك، فهمهم إبراهيم:

- إنها من خير بك ينقلها لنا من والينا على سوريا جان بردي غزالي، وها هي رسالة خير بك: «إلى أساس العالم، ودولة سيدنا السلطان سليمان خان وشخصه، إن صاحب المكيدة المدبرة في الأيام الأولى من ولايتكم هو والي سوريا جان بردي غزالي الخائن. فبعد انتقال سليم خان إلى رحمة الرحمن، راودته أحلام بعث الدولة المملوكية التي اندثرت في التاريخ، وعرض علي تحالفاً خبيثاً، فكتبت إليه رسالةً بحصار حلب ودعمي له بقواتي حتى أفضح فساد هذا الخائن الجاحد للنعمة، وليلقى مصيره الذي يستحقه. عشتم طويلاً بدولتكم أيها السلطان سليمان خان، رأسي فداؤكم ما دمت حياً. واليكم على مصر خير بك».

بعد دعواتي لخير بك عدت إلى إبراهيم وقلت:

- إن جان بردي غزالي هذا لم ينظر قط إلى إدارتنا بارتياح، وهو اليوم يحتمي بعدالتنا يأساً وعجزاً. يعلم الجميع أنني أقول دائماً: تنجز العدالة ما لا ينجزه السيف.

علت وجه إبراهيم ابتسامةٌ مريرةٌ:

- مولاي، إنه هو الذي يخرب ميزان العدل بيديه. وهذا يعني أن رؤوس بعض الأشخاص ثقيلةٌ على رقابهم.

- من يدري عدد التحالفات التي عرضها على آخرين؟ وعدد الأطراف التي دعاها إلى العصيان؟ الخير والقوة فقط في الوحدة وحدها، ويبدو أن جان بردي ينسى هذا دائماً، ويسعى إلى بث الفرقة بين المسلمين. فليُرسَل إلى خير بك على الفور سيفٌ مرصّعٌ وهدايا أخرى، وليتصرف وفق فرماني، وليطفئ بعون الله نار العصيان في المنطقة، وليحدّد رؤوس الفتنة وليزلها من الوجود، وليتحرك وزيرنا الثالث صهر والدي المحترم فرحات باشا فوراً مع عدد كافٍ من القوات إلى المنطقة للمساعدة، وليقدّم له والينا على سنجق قيصري وبوازق ومرعش علي

شخصور أوغلو بك المساعدة بكل قواته، وليكن والينا على سنجق طرابلس الشام قاسم باشا دعما لهم. وحفظك الله يا وهيمي أورخون جلبي، وستصلك مكرمتي، فلتدع لنا ولتشكر الله.

نهض أورخون جلبي وأسرع نحوي كالسهم، وانحنى فوق طرف عباءتي يقبله. ولا بد أن التعبير الذي رأيته على وجه إبراهيم كان نوعاً من الحياء، لكنه حافظ على نضجه، وقبل رأس أورخون جلبي وضمه إلى صدره:

- أخي أورخون أفندي، إن كنت قد جرحت مشاعرك فسامحني، كل ما أتوقعه منك هو هذا.

ظهرت علامات الانتصار على وجه أورخون وكأنه يقول: هكذا! ينبغي أن تلتزم حدك وتعرف قدرك.

- اطمئن يا سيدي، الموت صديقي الحميم بإذن الله. لست مهموماً ولا قلقاً، وسأمضي حتى النهاية، ولن يسودّ وجه مولاي السلطان بسببي مطلقاً.

أضفت في لطفٍ:

«والآن، أنت أيضاً يا إبراهيم أرحت قلبي! واعتباراً من اليوم سأجعلك كبير مربي الصقور في القصر».

صفقت بيدي مرتين، فظهر عند مدخل الباب تحت ظلال الليل آغا الخدم الذي كان ينتظر في صمتٍ وبجانبه كبير البستانيين الأخرس. لا أعرف عما يتحدثان، ولماذا لا يفترقان أبداً. ولغة البكم التي يتكلمان بها لا تدرك إلا بالإشارات. ظهر كبير البستانيين بطلعته البديعة بقبعته المصنوعة من الجوخ الأحمر، وملابسه المصنوعة من قماش الكمخا الثمين، وحزامه الأخضر السميك.

- أخبرا آغا الباب حيدرة أن إبراهيم خاص أودة باشي، قد عيّن في

منصب كبير مربي الصقور في القصر[1]، فليكتب الأمر الهمايوني، وليكن جاهزاً للختم خلال نصف ساعة.

غادر آغا الخدم والعملاق الأبكم بهدوءٍ كما ظهرا بهدوء.

انفرجت أسارير إبراهيم، وبفضل الإشراقة التي علت وجهه الآن أدركت كم كان كالحاً قبل لحظات.

- فلننتظر الآن حتى نرى كيف ستكون عاقبة الإساءة إلى دولة آل عثمان واستهداف وحدة المسلمين فيها، بدلاً من إدراك قوتها ووجودها. إنك ضيفي هذه الليلة يا أورخون جلبي.

انحنى إبراهيم بكبرياءٍ، تعبيراً عن خضوعه لأمري وشكرني:

- أستميحكم عذراً يا مولاي السلطان، فعليّ أن ألتفت إلى أولئك التتار الغزاة حتى أرى الهدايا التي قدموا بها. فإن وجدت فيها ما يليق بكم عدت لتقديمه إليكم، وإلا فسأسلمها إلى الخزندار لترتيبها؛ حتى تتمكنوا من استعراضها بنفسكم لاحقاً.

في هذه الأثناء، استأذن آغا دار السعادة بالدخول، وأخبرني أن الصدر الأعظم بيري محمد باشا يستأذن بالدخول. تلاقت عيوننا نحن الثلاثة في صمتٍ، وكأننا أطفالٌ أشقياء يفعلون شيئاً من دون علم ذويهم. إنني أكره هذا الشعور، فاحترامي لبيري محمد باشا وخبرته بلا حدود، فهو رجل دولةٍ كبير، لكنني كلما ذكر اسمه أحس بنفسي مقيد اليدين، ولا أعلم كم سيستمر صراعي ضد هذا الإحساس.

انتقلنا من غرفة العرش إلى القسم المخصص لتناول الطعام في الجانب المطل على بستان في جناحي الخاص، حيث تشتعل النار في موقدٍ مغطىً بالزبرجد والعقيق والفسيفساء على شكل قبعة عالية. وفي زوايا الصالة الكبيرة التي تعلوها قبة واسعة، تستقر مناقل الجمر على قوائمها المنمنمة بالفضة والذهب والمجوهرات. وكان قد سبق للخدم

(1) ربما كان هذا المنصب بمثابة جهاز استخباراتي خاص تابع للقصر.

أن رشّوا على الحطب ماء الورد والعنبر، فكانت الغرفة في الداخل دافئة وعطرة. جلسنا على الأرائك المغطاة بالديبا المصنوعة في بورصة فيما كان يجري إعداد المائدة. أريد في مثل هذه المواقف أن أصرخ في وجه بيري باشا: «أنا السلطان»، لكنني لا أستطيع.

إن الاحترام الذي أكنه له يتحد مع الحب، فهذا الرجل العجوز الوقور يمكنه أن يغطي كل عيوبي، لكنه في الوقت نفسه يلغي استقلاليتي، فما الذي يمكنني أن أفعله؟ ماذا يجب عليّ أن أفعل؟!

نظرت إلى وهيمي أورخون جلبي وهو يشاهد المناضد ذات الأشكال الهندسية المصنوعة من خشب الورد، والجدران المغطاة بالخزف الثمين الذي صنع خصيصاً للقصر العثماني من قبل حرفين مهرة من الأوزبك والهنود، والخزائن الخشبية المنقوشة على أيدي مهرة أدرنة والتي لا تقدر بثمن، والصناديق المصنوعة من خشب الجوز، والمنحوتة أطرافها على أيدي المهرة التركمان، وهدايا أسرة مانغ من الزهريات الخزفية، والمباخر البراقة، وزجاجات ماء الورد المصنوعة في البندقية... لا يبدو أنني أعيش ببساطة كحال أبي؛ وهذا أمرٌ يثير الدهشة لديه. فهذه المبالغة التي تجاوزت مظاهر الترف لدى ملوك أوروبا بكثير؛ تربك المسكين كثيراً. وربما كان هذا ما يثير أيضاً غضب بيري باشا.

يبدو أن وهيمي أورخون جلبي غاب عن الحضور في عالم الأحلام تحت أضواء القناديل التي يحملها الغلمان، والكؤوس البلورية. فعيناه الضيقتان تشيران إلى انكفائه على ذاته للاستمتاع بهذا المشهد المثير الذي يستولي على العقول. وبعد برهةٍ، ملأت الغرفة رائحة لحم الخروف التي تفوح من أطباق المرق ذات الأغطية المرصّعة بالياقوت والصّفير، تلك الرائحة التي تكاد تثير الجنون. وعلى المائدة، انعكست أضواء القناديل الموضوعة هناك على الكؤوس البلورية الملأى بشراب الكرز المثلّج وأضفت عليها لوناً أحمر قانياً.

انهمك بيري باشا في تناول الطعام؛ فتارة كان يأكل الكلاوي بعد تقشيرها بحنكةٍ، وأخرى كان يأكل لحم الخروف المشبع بالدهون مع البصل والأرز العجمي المعطر بخفة وخبرة. ربما سئم من شرب حساء الدقيق على مائدة والدي المتواضعة. وعلى الرغم من خلعه قفطانه الأخضر ذا الحواشي المطرزة، إلا أن قطرات العرق تسللت على وجهه، فيما كان يبتسم في أدب. وأنا في الحقيقة أحب هذا الرجل الكريم الذي يسبب لي الضيق.

كان أبي رجلاً عسكرياً صرفاً. ومنذ توليه السلطة، أمضى حياته في السفر مع جنوده لخوض الحروب، ولم يفكر مرةً بسلامته الشخصية، ومات في ريعان شبابه. ولو حاولت الآن أن أعيش كأبي، ووجهت وجهي نحو التفاحة الحمراء، نحو أوروبا التي تتقدم بسرعة في طريق الوحدة، فماذا سيقول وزرائي وقادتي وجنودي؟! وكم هم مستعدون للتضحية في ساحات الحرب بعد حياة والدي المفعمة بها؟ هل سيكفي التفكير بالغنائم لتسخين دمائهم؟ لعل أهم نقطةٍ هي أن تبعث ضد الغرب روح الجهاد مجدداً، فالمشكلة التي كان والدي يعانيها كانت في توجّهه نحو المسلمين الأتراك مثله؛ مما سبّب قلقاً بيّناً لدى الأمة. والإمكانيات والشروط التي تنهي هذا الوضع قائمةٌ.

يبدو أن بيري باشا لا يريد أن يرد على تساؤلاتي بالإجابات التي أنتظرها قبل أن أطرح عليه الأسئلة. كنت قد أمرت باتخاذ الإجراءات اللازمة لإخلاء سبيل ألف وثمانمئة شخصٍ ساقهم أبي إلى إسطنبول بعد حملته على مصر. وكانت محاكمة قائد البحرية جعفر آغا مستمرة، فقد استطاع هذا المجرم القاتل أن ينجو من غضب والدي بحيلٍ شتى، وذر الرماد في عينيه، ولكنه لن يفلت هذه المرة بسهولةٍ، وسيدفع روحه ثمناً للجرائم التي ستثبت عليه قريباً.

بدأت الحديث باللهجة الحادة التي أرغب بها: «لماذا تصمت

يا بيري باشـا؟! تكلّم، هـل نفّذت أوامـري؟! هـل تتّخذ إجـراءات تقديم الضمانـات تعويضـاً للتجـار الإيرانييـن عـن قوافلهـم التجاريـة وأموالهم المحجـوزة؟! هيا، وضح لي مـا تم في مـا يتعلق برغبتي في إخلاء سـبيل التجار الصفوييـن المنفيين إلى البلقـان، والتجار الذيـن كادوا يهلكون في السـجون. الشـيء الوحيد الذي أعرفه هو انتشـار الشـائعات حول الرشى التي بلغت ذروتها، وعزل آغا السلحدار، وتعيين سليمان آغا مكانه».

مدّ بيري باشـا يده إلـى المنديل المبلّـل أمامه، ثم وضعـه في الوعاء المفضـض المليء بخليـط المسـك والصـودا، ونظّـف يديه وفمـه. وبعد ذلك شرع في الكلام: «كنت أنتظر سـؤالكم يا مولاي!». كما لو أن ابتداءه الكلام ينال من هيبته ويقللها. ثم تابع يقول:

«إنني أتابع تنفيذ أوامركم بدقةٍ، إلا أن تعويض التجار يبدو أنه سيزيد على مليـون آقجة يا مـولاي السـلطان. فهـل من الصـواب فـي رأيكم أن نحمّل الخزينة هذا الحمل فجأةً؟!».

كنت أتحدث محافظاً على ابتسامتي:

- «ليس المهم هو الأمـوال المصروفـة، وإنما المهـم تحقيق العدل أيهـا الباشـا! ربما عاقـب والـدي أولئـك البؤسـاء لأسـبابٍ محقـةٍ، لكنّ الاسـتمرار في هذا لـن يكـون صحيحاً. ومـن أجـل هـذا، لا يهمني حتى لو فرغت الخزينة مـن الأموال التي كدسـها والدي فيهـا، وأقفلها وختمها بخاتمه».

- أوامركم على رأسي يا مولاي السلطان. غير أن قضية تجار الرقيق هي مـا يثيـر خوفـي؛ إذ إن تلطـف إبراهيم آغـا فـي تأكيده وحرصـه على إعدامهم يبدو أنه سـيثير مشـكلة؛ فهناك نظام كان سـائداً فـي الخفاء طيلة تلك الأيام، وكان البائع والمشـتري فيه راضيين، والـكل يغضون الطرف، أما الآن...».

قلت في غضبٍ:

- يا باشـا، لقد تم إيضاح المسـألة عدة مـراتٍ، لكنك لـم تفهم هذا الوضع على الوجه الصحيح كما يبدو...

- لقد فهمت يا مولاي. ولكن...

- لا تقاطعني أيها الباشا.

أحنى بيري باشا رأسه من دون أن يفقد شيئاً من وقاره وقال:

- عفوكم يا مولاي.

- اسـمعني جيداً. إن ما يرمي إليه إبراهيم هو في الأصل قانونٌ سـارٍ يطبّق؛ وإلا لماذا وجدت القوانين؟!

- أنتم على حق يا مولاي. القانون الذي لا يطبق لا يمكن أن يسمى قانوناً.

- إذاً، المهمـة الأولـى للدولـة هـي تطبيـق القوانيـن السـارية. إن اختطاف النسـاء الشـابات والأطفال في أثناء غاراتنا على سـواحل الكفار يحرجنا فـي اتصالاتنا مع الخـارج. وعقوبة هـذا الأمر هي الإعـدام طبعاً؛ إلا أن هنـاك تراخيـاً في تطبيقـه! فالعثمانـي يسـن القانون لكنـه يمتنع عن تطبيقه. وليكن معروفاً للجميع منذ الآن أن كل شـيءٍ في عهدي سـيجري وفقاً للقوانين. وأنا لا أريد أن ينقل إلى بلادي بشـرٌ بطرائق غير رسميةٍ من غير أسـرى الحرب. إن اسـتخدام أسـرى الحرب في المعامـل والأراضي حسـب نظام المكاتبة حقّنـا الطبيعـي، ولمصلحـة كلا الطرفيـن؛ لأن هذا النظام يمكنهم من نيل حريتهم في نهاية المـدة المحددة، ومن فتح صفحة جديدة في حياتهم. فأولئك الذين يتم بيعهم خلسة من دون مكاتبة يقضون حياتهـم في ظـروف عملٍ صعبـةٍ؛ وهـم يعانون مـن الجـوع والعطش من دون أن يعلمـوا بنظام المكاتبة. وهـذا ظلمٌ، والظلم يسـتدعي غضب الله، ويمحق البركة. إنه فرماني، فليسـجّل كل واحدٍ عبده في سجلات القاضي في قسـمٍ إضافـيٍّ ملحقٍ، ومـن لا يفعـل ذلك فسـيتعرض لعقوبـاتٍ يراها القضاة، ولينظر في ظروف حياة الأسـرى العبيد، ولتعـدّ اللوائح التي تنظم

هذه الأمـور، ولتطبّق في حق المخالف أقسـى العقوبـات، ولتنظّم جداول مراقبـةٍ نظاميـة، ولتفتّش بانتظـامٍ، وليتـمّ اختبـار النظـام، ولترفـع التقارير المعدة إليّ في يومٍ معينٍ من كل شهرٍ».

- الفرمان لمولاي.

خطر ببالي رسولنا إلى ملك المجر فجأة:

- ماذا حصل مع المبعـوث إلى ملك المجر الشـاب لاجوس الثاني في ما يخص الضرائب الجديدة؟ هل من أخبار جديدة؟

بدت على وجه بيري باشا علامات القلق وهو يجيب:

«لا يـا مـولاي السـلطان. إن مـا يقلقني هـو أن هـذا الملك الشـاب يتخذ موقفاً معانداً، ويبدي في موضوع الضرائب تراخياً، ويبدو أنه سـوف يزعجنا مسـتقبلاً. فهـو يعمل علـى التقرب مـن الفاتيكان، ومن شـارلكان إمبراطـور الإمبراطوريـة الرومانية الجرمانيـة. ومن الضـروري جداً وجود منطقـة هائلـة فاصلةٍ بيننـا وبين شـارلكان كأنجـروس (المجـر)؛ تمتد من الأدرياتيك إلى ترانسـيلفانيا وكارباط روتانيا (أوكرانيا). فشـارلكان وريث ماتياس كورفينوس سيبذل ما في وسعه للسيطرة على هذا الشاب».

- طبعاً كان هؤلاء جميعاً يظنون أنهم سيتركون وشأنهم حين ينشغل والدي بالمسألة الشرقية.

وجّهت وجهـي نحو الغيـوم التي تعبـر سـماء المضيق بسـرعةٍ نحو الجنوب محملـةً برائحـة الثلج، فيمـا الريح القاسـية تصفر وهـي تمر بين الأعمدة والجدران، وتتسـلل من خواف النوافذ، وضربـت ركبتي بقبضتي ضربةً خفيفةً:

- إن المسـاعدة التي يقدمها شـارلكان للصفويين تهدف إلى كسـب الوقت فحسـب. والشـاه إسـماعيل القوي فرصةٌ لا يمكن تفويتها بالنسـبة لشـارلكان الذي يسـعى لتوسـيع ملكـه عـن طريـق الـزواج والتحالفات. وإسـماعيل لم يتأخر عن تقبيل اليد التي تمسـح رأسـه، لكننا لن نتردد في

إنزال صفعتنا القويـة على أوروبا مجدداً بعد أن نسـيت تأثيرهـا. يكفي ألاّ يثيروا الشـغب ضدنا حتـى لا نضطر إلـى الخوض في حرب تسـفك دماء الآخرين. أنـت تعرفني أيها الباشـا منذ طفولتـي، وتعرف أننـي لا أتحامل على أحد من دون سببٍ، لكنني ورثت إرثاً كبيراً من أبي، وعليّ أن أصونه وأطوره.

- أقدر حساسيتكم هذه يا مولانا. يجب ألاّ يغيب عن بالنا أن المجر كانت منطلـق الكثيـر مـن الحمـلات الصليبية، ومـن هذه البـلاد خرجت الجيوش التي ظلمت المسـلمين. وفي ظل هـذه الحقائـق، أولئك الخونة لن يتـرددوا. لكـن مبعوثنا بهـرام جاويش سـيتحدث بلغـةٍ يفهمونهـا، إنه دبلوماسـيٌّ قديرٌ عندنا، ولـم يحدث أن عاد مرةً من دون إنجاز المهام التي أرسل لتنفيذها.

- فلتتّخذ كل التدابير أيها الباشـا. إنّ لاجوس هـذا ذبابة صغيرة تثير الاشـمئزاز، وجرأته تزداد مع مرور الأيام، ويجب اتخاذ التدابير المناسـبة في أقرب وقتٍ.

III

سكون الليل وأشعاري...
هل من أحد يسامر روحي
من يليق به الأسر فيسامر السلطان
جور الجفاء منه أحب إلي من وفائه
وهل يجادل الدواء من يعرف وقع الداء

عجباً، لقد مضى إبراهيم بحجة مشاهدة غنائم التتار ولم يعد حتى الآن. أعود مجدداً إلى الرسالة التي وردت قبل قليلٍ من إمبراطور روما شارلكان، فوالده هو فيليب الوسيم ابن الإمبراطور الألماني ماكسيميليان الأول من زوجته جوانا من عائلة هابسبيرغ. وبوفاة فيليب في سن الشباب، وانتقال لقب أبيه إليه، ورث هذا الابن الرعديد شارلكان هذا الملك الذي لم يظهر له مثيلٌ في أوروبا. لقد اجتمعت تيجان كاستيليا (القسم الأكبر من إسبانيا) وأراغون (منطقة واسعة على حدود كاتلان شمال شرق إسبانيا) وملكيات أنابولي وصقلية في شخص شارلكان. وعندما انتخب إمبراطوراً على ألمانيا بعد وفاة أبيه المفاجئة، خطت أوروبا باسم الوحدة التي تبحث عنها منذ عصورٍ وبشكلٍ مفاجئٍ خطواتٍ لم تتجرأ عليها سابقاً. والآن، يتقرب مني ممثل أسرة هابسبيرغ الأصيل. فلنرتقب، ولننتظر كم سيدوم منه هذا السلوك؟!

جالت أصابعي على الورق بخفة، وتحسست ملمسه الحريري. ورغم ذلك تظهر ألياف الورق الدقيقة شيئاً من المقاومة التي تدلّ على متانتها. أشم في عجينة الورق رائحة مسك غزلان جبال البيرنيه ودهن

حيتان الجنوب ممزوجين بنسبة الثلث مع زيوت القطن والقنب. إن كارلوس الشاب هذا يحاول أن يذكرنا بالأقاليم الواسعة التي بدأ يحكمها؛ حتى بواسطة الورق الذي يستخدمه!

إن هذه الروائح التي تبدو لاذعة للوهلة الأولى أصبحت مع الزمن تدغدغ حواسي بامتزاجها برائحة بتلات ورود فالنسيا المضغوطة التي تشكل غلافاً للرسالة. لا بد أنه انطلاقاً من معرفته بحبي للورود أراد أن يقول لي: «إن كنت معي حسناً، كنت معك مثل الوردة ذات الرائحة الزكية!». وعلى الرغم من رأس الريشة المدبب؛ فإن الورق لم يتأثر، وهذا يدل على أنّ الرسالة كتبت بريشةٍ ذهبيةٍ. ولما كان الذهب معدناً مطواعاً سهل الالتواء، فالكتابة بريشةٍ ذهبيةٍ تبدي دقّةً ورقةً متميّزتين، واهتماماً أكبر من الكاتب. ولعله أراد أن يذكرني بمناجم الذهب التي حصل عليها في أمريكا الجنوبية. وربما كانت نعومة الورق الناجمة عن استعمال دهن حوت العنبر لتذكيري بهيمنته على المحيط الهادئ. لتهنأ في صفائك الآن، فلا بد أنك ستحاسب يوماً على دماء الأمريكيين الأصليين الأبرياء التي أرقتها!

والحبر الذي استعمله خليطٌ من ماء المطر الذي لم يمسسه شيءٌ وعفص البلوط والصمغ العربي وعسل النحل والملح والرماد وسولفات الحديد؛ لا بد أنه ذلك الحبر النادر الموجود في بلاد فارس. طبعاً لأن علاقة الشاه إسماعيل جيدةٌ مع الجميع باستثنائنا. أشعر بابتسامة مريرة ترتسم على شفتي وأنا أفكّر: وأنت يا إسماعيل، تمتع بأهوائك التي تؤذي المسلمين، ولا بد أن تسأل يوماً عن الفتن التي تثيرها، وعن دماء المساكين التي تريقها. فما الفائدة لو امتلكت أراضي الأناضول، بل الدنيا كلها، إن لم تحكمها بالعدل؟! أنت تسعى لتكون جهانكير[1] يحكم

(1) أي سيد العالم، وجيهان: العالم.

العالـم، وعندمـا سـحقك أبي فـي جالـدران واقتحـم تبريز انسـحبت إلى قزويـن مـن دون أن تتصدى له مـرةً أخرى، أهـذه شـجاعتك؟! وقد كتب إليك أبـي قائـلاً: «لبينا دعوتـك، وقطعنـا الطـرق الطويلة ودخلنـا بلادك، لكنـك لم تظهـر في السـاحة. إن بـلاد الملـوك مثـل زوجاتهـم، والرجال الشـجعان لا يسـمحون لأحد بأن يمسّـها. وها أنذا قد دخلت بـلادك منذ أيـام، وأسـير فيها مـن دون أن أسـمع أيّ خبـر منك. فـإن آثـرت الاختباء فحرام أن تكون من بين الرجال، وعليك أن تلبس الحجاب وتنزع المغفر، وتلتـفّ بالملاءات بدلاً مـن الدروع، ثـم تتخلى عن هواك في سـرداريتك وشاهيتك»[1]، فماذا فعلت أنت؟! لقد تخلفت عن مواجهته بجيشك الذي طالمـا تغنيت بـه؟ والآن، افترض أنك من خـلال التحالفـات الكثيرة التي تقوم بها مـع الكفار قد ألحقت بنا جزءاً بسـيطاً من الضـرر؛ فلمصلحة من سـيكون ذلك؟ وافتـرض أن العالم النصرانـي الذي تتقرب منـه قد نصبك سـلطاناً علـى هذه البـلاد بـدلاً منا؛ أتظـنّ عندهـا أنه لـن يطالبـك بمقابلٍ للجهود التي بذلها أضعافاً مضاعفةً رغم أنفك؟!

سـمعت طرقات خفيفة على البـاب، وظهر آغا الخـدم جعفر أفندي وآغا البستانيين الأبكم بقبعته الحمراء:

- مـولاي السـلطان، إن كبير مربي صقـور القصر إبراهيـم آغا يرجو المثول في حضرتكم.

- اسمحا له بالدخول.

كان على وجـه إبراهيم الوضاء تحـت أضواء المصابيـح اختلافٌ لا يمكن تجاهله، ولا يمكن أن يكون بسـبب المنصب الجديد الذي استلمه. وبعد أن شبك يديه على طريقته الخاصة بدأ بالكلام:

- مولاي السـلطان، وأخيـراً جاء التتـار بغنائم تسـتحق الذكـر. لقد

(1) السردار: القائد العام للعسكر، والشاه معروف.

أعجبتني، وإنني على ثقةٍ بأنها ستنال إعجابكم، وسأعرضها عليكم إن كنتم تريدون ذلك.

أجبته مبتسماً: «تعلم أنني أثق بذوقك يا إبراهيم».

انحنى أمامي بتذلل وهو يحاول السيطرة على ابتسامته العريضة:

- أدامكم الله يا مولانا. قد لا تكون هذه الفتاة السلافية جميلةً جداً، إلا أن لها سحراً غير معهود.

- اقبل غنائم التتار، ولكن ذكّرهم أنني لا أريد بعد الآن من بلادهم أناساً اقتلعوا من أوطانهم بالقوة. وأنّ عقوبة ذلك ستكون الإعدام أياً كان الفاعل.

- تصرفت مثلما قلتم يا مولانا، وذكرتهم بالقانون، ولكنهم أصروا على القول إن هذه الغزوة على أراضي روتانيا في لاهيستان لم تكن بهدف النهب، بل كانت تهدف إلى إضعاف عزيمة العدو وجرأته يوماً بعد يومٍ. ولديهم وثائق تثبت أنها كانت حملةً مشتركةً لعدة قبائل تترية.

- أنا لا أثق كثيراً بهؤلاء يا إبراهيم! إن موقفهم أصبح غامضاً بعد أن انضمت إمارة قازان إلى إمارة القرم، فما رأيك؟

- الفرمان لمولانا!

- حسناً، قبلنا هداياهم، فلتحسن ضيافتهم، ولتبذل لهم الهدايا.

مضت ساعةٌ قبل أن تنار الغرفة الخاصة بقناديل إضافيةٍ ويدخل إبراهيم ومعه فتاةٌ طويلة القامة. أدركت من النظر إلى وجهها أنها لا تزال صغيرةً جداً؛ فنظراتها تدلّ على سذاجتها وخوفها. شعرها الطويل الأحمر نظيفٌ جداً، ينسدل متموجاً على كتفيها العريضتين. وكانت ترتدي ثوباً حريريًّا طفولي اللون، وتتلألأ الجواهر على طرفي كميها وياقتها العريضة وأطراف تنورتها، وارتدت فوق ثوبها عباءة بلا كمين بلون الكرز المتعفن، ووضعت على كتفيها شالاً أسود مثل سواد الليل القارس في

الخارج، وأطراف الشال تداعب حذاءها الزهري عند قدميها الصغيرتين. عيناها النجلاوان الزرقاوان بزرقة المحيط العميق أخفتا شحوب بشرتها البيضاء... كانت برودة النساء السلافيات بادية عليها طبعاً، لكن شفتيها الورديتين يبدو لي أنهما ستكونان حارتين في الوقت المناسب. وحين تبتسم فإن أسنانها السليمة كانت تلمع بوضوح مثل وضوح النجوم المتناثرة في صفحة سماءٍ مخمليةٍ في ليلة صيفٍ. أما وجهها الذي يتوسّطه أنفها الصغير فيحمل سرًّا يصعب حلّه، ولا يمكنك مقاومة الرغبة في رسمها على النمط الفرنجي إن رأيتها مرّةً واحدةً.

تكلم إبراهيم مع الفتاة بلغة روتينيا، ورغم أنني لم أكن أتحدث بلغة السلاف بسلاسةٍ كما يتحدث إبراهيم، لكنني أستطيع القول إنني فهمت بلغتي الروسية الضعيفة ما قاله. فقد سأل الفتاة:

- أتعرفين من أمامك؟!

بدا لي أنها تخلت عن الردّ المشاكس الهجومي الذي كانت ستتفوّه به. والأسلوب المتكلف الذي يتبناه إبراهيم عند الحديث معي، لفّ رأس الفتاة الجميل كطوقٍ فضي. إنه تعبيرٌ عن الرغبة في البقاء على قيد الحياة. نعم، أعرف هذا التعبير الذي يفيض من عيني عبد بائسٍ يعمل على التمسك بالحياة؛ هذا التعبير الذي لا أحب أن أراه لدى أي كان.

ولكن، لماذا يا وحدتي المطلقة؟! إن العبيد يكذبون بمهارةٍ، ومشكلة العبد ليست في أن يصدقه أحدٌ أو لا يصدقه، فهو يدرك أنه لا يستطيع أبداً إثبات إخلاصه الحقيقي... مشكلته الأساسية ألاّ يجد أحداً يصدقه.

هزت الفتاة رأسها بسرعةٍ وكأنها تريد أن تقول: نعم أعرفه.

فسألها مجدّداً: «إذاً، من هو؟».

فأجابت الفتاة: «إنه حاكم الدنيا؛ السلطان سليمان خان». ثم بدت على شفتيها الورديتين ابتسامةٌ تحيل ليلة الشتاء الباردة إلى حلم صباحٍ

صيفـيٍّ جميـلٍ. لم تخطـئ عينـاي، ولم يكن فـي اسـتطاعتي عـدم التأثر، وعندها أدركت أنني ابتسمت لفترة طويلة.

قـال الحكيم الكبيـر والعالـم المتصوف مصلـح الدين مركـز أفندي ذات مرةٍ في إحدى السهرات المسـائية: «أميري، الناس العظماء محاطون بأكاذيب كبيـرة». قالهـا وعينـاه الخاليتان من الريـاء تضيئان مثـل جمرات المنقل قرب مجلسـنا، وأضاف: «ولا مفر لهؤلاء الذين يعيشـون في مركز الأكاذيب الكبيرة أن يشـعروا بأنهم أنفسـهم أكاذيب كبيـرة. وفي مثل تلك اللحظات، الجأوا إلى عون الله وتوجهوا إليه. ولا تنسـوا أن شرور الناس غير المخلصين أسوأ من شرور الشيطان!».

سألته حينها وشـعوري بالاسـتياء من الحياة يتحول في تلك اللحظة في أعماقي إلى شـعور عظيم بالفناء: «هل يمكننا أن نعتاد على حياة كتلك يا حضرة مولانا مركز أفندي؟».

تمطى وابتسـم ومـسّ ذراعي مـن دون تكلّـفٍ، فكانت لمسـةً نادرةً أزالت عني التوتر:

- مولاي السـلطان، أنتـم مضطرون مـن أجل وجود أمتنـا ووحدتها وسـلامتها إلى العيـش تحت الظـروف كافـة. وليكـن إخلاصكـم موجهاً لأمتنا. وإن احتـاج الأمر، فلتكـن الأكاذيب التـي تضطرون إلـى قولها في سبيل بقاء أمتنا...

- هذا صعب جداً يا حضرة مولانـا! يصعب عليّ جداً أن أعيش وأنا أتصرف هكذا... وعندما أتولى العرش سيزداد هذا الحمل ثقلاً.

- لا أتمنى أن أكون فـي مقامكم أبداً يـا مولانا. وبمـا أنكم الوريث الوحيـد للعرش، فمـن الصعـب عليكم معرفـة العـدو من الصديـق. ولما كانـت هـذه المسـؤولية قد أنيطـت بكـم، فإنـه يتوجب عليكـم القيـام بها والصبـر عليها. لا تحملـوا هماً يـا أميرنا الجليـل. يجب أن تعتبـروا أن ما

سيحدث وكأنه قد حصل. وانظروا إلى حضرة الشيخ إبراهيم كولشاني في تبريز الذي يواجه هناك السلطة الشيعية وحده من دون كللٍ أو مللٍ. إنه يناهز المئة من عمره، وهو مستمرٌ في حياته ككل مجاهد حقيقي. وتبريز لم تهنأ مرةً أخرى بالاستقرار الذي كانت تنعم به في عهد السلطان أوزون حسن. لقد أصبحت مكاناً لا يطاق العيش فيه بالنسبة إلى المسلمين السنة. وإبراهيم كولشاني يصبر جاهداً في العيش في تكيته التي تشع في العالمين نوراً، من دون أن يُقدّم أي تنازلٍ عن عقيدته. وأخيراً، سيشن الشاه إسماعيل حملةً كبرى على هذا الشيخ الجليل. ورغم ذلك، لقد سلّم أمره لله إلى درجةٍ لا يمكن أن ينفع معها إرهابٌ أو تهديد.

إن حب هذه الفتاة سيبدأ كاذباً، فهل سيصبح حباً حقيقياً ذات يومٍ يا سليمان؟! هل يمكن أن يكون عبد كإبراهيم صديقاً حرًّا مخلصاً يا سليمان؟! لم أستطع أن أقنعك يا سليمان أنّ ما يدعى صداقةً لا يمكن أن يولد إلا من الإخلاص، وأنه ما من حبٍّ يستحق أن تعمى العيون من أجله، وأن الوحدة هي الحقيقة المرّة الوحيدة في الحياة.

انظر الآن... انظر جيداً إلى هذه الفتاة الجميلة التي تبلغ الخامسة عشرة من عمرها، وتفجر الصخور الصماء لشدة جمالها كيف أصبحت في خدمتك. انظر إلى إبراهيم الذي ترجو منه لحظة صداقة مخلصة في حين يرتعد العالم كله أمامك. نعم، هذه هي الدنيا التي لا تمنحك سوى هذه الفتاة الأمة، وهذا الفتى العبد! إن كنت سلطان العالم فهذا يعني أن الجميع أبناء رعيّتك، وأنك وحيدٌ على مائدتك، ليس لك إلا ما تأكله وتشربه، وأنك تحاول إلهاء روحك عن جراحها بالمظاهر وبثيابك المبهرجة وقصرك الذي يبدو مثل مستودعٍ لمتاع الدنيا. ربما يسجلك التاريخ كأعظم سلطانٍ عثمانيٍّ يحالفه الحظ، ولكن لن يعرف أحد أبداً أنه ليس هناك في الدنيا سلطانٌ سعيدٌ.

أخبرني إبراهيم بأنها تدعى روكسلانا. وكانت ابتسامة الفتاة بسمةً تنتزع الروح من أقوى رجلٍ في العالم، لكنه الأكثر عزلة أيضاً. إنها من غير شكٍّ تبتسم لي، وأحاسيسها الأنثوية تنبئها أنني لن أكون صيداً سهلاً. لكن ضحكتها تكشف عن أشياء تشرح النفس، إنها فتية جداً... فكرت لحظةً وقلت: «لا، اسمها منذ الآن فصاعداً سيكون حرّم، إن بسمةً كهذه تستحق مثل هذا الاسم».

فضحك إبراهيم مؤيداً، وهنأني، ثم خرج من الغرفة.

المارد يتحرك
(وهيمي جلبي)

I

«من يشفق على ظل؟».

إدغار آلن بو (إضاعة النفس)

5 آذار 1521م، إسطنبول

أمر الوزير الثالث داماد فرحات باشا آغا الإنكشارية، فأودع هذا الأخير كيساً مليئاً بالعسل في سطلٍ نحاسيٍّ كبير. ولسبب ما، كانت الشائعة اليونانية القديمة ساريةً هذه الأيام في إسطنبول، وتقول الشائعة إن لون النحاس الأصيل ينتزع من نفس الإنسان رهبة الموت. نادى فرحات باشا الآغا مجدداً، فشمر كمي قفطانه عن ساعديه، وجثا على ركبتيه وسلاحه لا يفارقه. عالج رباط الكيس بيديه الكبيرتين المخشوشنتين نتيجة تدريبهما على الضرب على الرخام، واستطاع حله بعد جهدٍ، ثم مدّ يده داخل الكيس، وأخرج الرأس وقد أمسكه من شعره... ها هي نتيجة حلم الدولة المملوكية المستقلة التي أعلن من أجلها جان بردي غزالي العصيان على الدولة العثمانية.

قال فرحات باشا:

– وجدت جان بردي محاصراً أسوار حلب، وهو يرسل أوامره يمنةً ويسرةً في طمأنينة قائدٍ كبيرٍ.

كان تعب الطريق بادياً عليه؛ إذ كانت عيناه متورمتين وكأنهما

ستغمضان في أي لحظةٍ. ويبدو أنه لبس بذلة المراسم للتو وبسرعة قبل حضوره للمثول أمام السلطان. كان طرفا قفطانه أحدهما في الأعلى والآخر في الأسفل، ولحيته لم تكن مسرّحةً إلى حدٍّ أن سليمان خان قد يعتبر ذلك علامة استهتارٍ.

- لا بد أنهم قد فرحوا كثيراً عندما نشرت سنجق خير بك المصري الذي حملته معي. أشعر وكأنني ما زلت أسمع صيحات الفرح التي أطلقها جيشه. والعاصفة التي هبت لحكمةٍ ربانيةٍ ساعدتنا على الاقتراب من جان بردي مسافة رمية سهمٍ، فلم يعرف حقيقتنا حتى تلك اللحظة، لم يعرفنا إلا بعد فوات الأوان. ولقد انهزم جيشه عند أول حملةٍ لفرساننا، ولم يستطع رجاله تجميع صفوفهم مجدداً، إلا أن الخائن جان بردي نجح في الفرار بطريقةٍ ما وسط الفوضى يا مولاي السلطان. ومن جهة أخرى، إن علي شخصور أوغلو بك إنسانٌ جيدٌ، ومحاربٌ قويٌّ، علاوةً على أنه محبوبٌ كثيراً في منطقته. وعند فرار الخائن جان بردي، وبينما كنت ألاحقه، قام شخصور أوغلو بإعدام الأسرى الذين وقعوا في قبضته من دون استشارةٍ. ربما كان ذلك لفرط حبه لمولانا السلطان. فليسلم شخصور أوغلو، لكن أغلب أولئك الذين أعدموا كانوا من السكان المحليين من الشبان المغرر بهم بوعود الغنائم، فليته لم يفعل. فما يطفئ نار الفتنة في تلك المنطقة هو العدل وليس الدماء.

ثم استرق النظر إلى السلطان وهو يضيف: «وهذا لم يحصل».

طأطأت رأسي قليلاً، وأنا أقرأ شيئاً مخيفاً لم يتفوّه به لسان فرحات باشا، ولكنه ظهر على محياه وفي حركات يديه اللتين لم يعد يتحكم بهما، ومن رفة عينه اليمنى. لقد وقفت على أحاديث كثيرةٍ حتى اليوم، وكل المتحدثين كانوا كذّابين مهرة، إلا أن الإنسان حين يبدأ بالكذب يتصرّف فطرياً بطريقة معينة، ويتساوى في ذلك أبناء كلّ ثقافةٍ مهما بلغت خبراتهم؛ فهم لا يستطيعون إخفاء بعض تصرفاتهم. عندما أحسست بأن

فرحات باشا بدأ يكذب نظرت إلى سليمان خان، وللأسف كان السلطان يبدو متأثراً بما سمعه؛ ولا سيما بذاك الجزء المتعلق بالعدالة التي يوليها كل اهتمامه، وثارت من أجلها أعصابه. ولو كنت أتمتع بحق الحديث من غير استئذان، لانطلقت فوراً وسألت الباشا أسئلةً محرجةً، لكنني لم أكن أستطيع التصرف في حضرة السلطان تجاه وزيره هكذا.

تابع فرحات باشا قائلاً:

- وعلى الرغم من بحثنا عنه في كل مكانٍ محتملٍ، لم نجد أثراً لجان بردي، فلجأت إلى أسلوبٍ بسيطٍ جداً، فقد وعدت كل من يبلغ عن مكان وجوده بمبلغ كبير من المال...

لم يكن ذلك مفاجئاً للسلطان، فقد كان فرحات باشا ذكيًّا ومُهابَ الجانب، وبطريقةٍ ما استطاع أن يكون صهراً لسليم خان. كما لمح السلطان في نظرات إبراهيم آغا ذلك الإحساس الخارق الذي يشتهر به الدوشرمة. فوجهه الذي غابت عنه الحيوية يكاد يبدي أنه التقط رائحةً ما؛ إنها رائحة الكذب.

- ... لم تكد تمضي ثلاث ساعات حتى بلغنا أن جان بردي مختبئ في حظيرة أغنامٍ صغيرةٍ. كان المخبر بدوياً بالي الثياب، ويحمل بيده كتاباً مخطوطاً باليد كُتبت عليه كلمة «العازف». أغرنا على المكان، وقبضنا على جان بردي في المكان الذي أشار إليه الرجل الغريب بالضبط. كان جان بردي رجلاً جباناً في اختبائه منا، غير أنه ما إن ألقينا القبض عليه، حتى تحوّل فجأةً إلى بطلٍ يا مولاي السلطان. فقد وقف أمامنا بوجهه المتجهم وقفة الشجاع، ولما تلونا عليه فرمان الإعدام لم تتحرك له شعرةٌ واحدةٌ، وسلّمني الأشياء الثمينة التي كان يحملها لإيصالها إلى أهله، ثم توضأ وصلى ركعتين بخشوع، ومن دون أن ينهض عن سجادته نظر إلى الجلاد وقال بهدوء: «أنا فردٌ حارب من أجل سلامة دولته وشعبه فقط، ولست خائناً، نفذ عملك جيداً». وقذف إلى الجلاد كيساً مليئاً بالذهب

حين وضع الحبل حول عنقه؛ ثم تشهّد وسلّم روحه في لحظةٍ قصيرةٍ.

حانت مني التفاتة إلى سليمان خان، فأدركت أنه كان لا يزال تحت تأثير الخبر الذي تلقاه قبل قليل. فغضبه من شخصور أوغلو بادٍ على وجهه. لكن طبعه الرحيم كان يغلب عليه، فيعمل على ضبط نفسه. وحرصه على تجنب الأخطاء لم تكن أيّ عين تخطئه، لذا كان حذراً من عدم القيام بأي خطوةٍ خاطئةٍ. وسرعان ما قرأت في نظراته المفاجئة إليّ أنه اتخذ قرار التحقيق في صحة هذا العمل.

لم يمر وقتٌ طويلٌ حتى جاء دور تكريم أولئك الذين أبدوا شجاعةً في أثناء الحملة؛ فوقعت واقعةٌ أعدّت بذكاءٍ. فقد جاء كبير أطباء الجيش يستأذن لمقابلة السلطان، ويصر على ذلك. لم تكن هذه الزيارة في وقتها المناسب ولا مكانها المناسب. غير أنّه يمكن أن يكون هناك أمرٌ طارئٌ، ولذلك قرّرت الانتظار لأعرف سببها. دهش الجميع بهذه الزيارة غير المناسبة.

دخل كبير الأطباء أحمد جلبي مجلس السلطان، وبدأ يروي بالتفاصيل الظلم الذي ارتكبه علي شخصور أوغلو بك بحق الأسرى، وقد غمرته الدموع. كان الحزن يبدو جلياً على سليمان خان، ولو كانت شخصيته سريعة المبادرة مثل أبيه لكان الأمر قد انتهى سريعاً، لكنه أدهشني برويته أكثر مما كنت أتوقع:

- إن مكانة شخصور أوغلو كبيرة لدينا. وكما أن الله تعالى يسامح من ارتكب خطيئة وندم عليها يجب علينا أن نسامح أيضاً. وأكلف الصدر الأعظم بيري باشا بمهمة تنبيهه. ولتكتب في مذكرتك أنني حزنت كثيراً لدى سماعي بما فعله أيها الباشا، وإن أقدم على عملٍ ما من دون استشارة وكيلنا مرةً أخرى فسنقطع عنقه.

- الأمر لسلطاننا.

- وأنا أعين بكلر بك الأناضول إياس باشا ليكون بكلر بك على

سوريا. فليبلّغ القرار الهمايوني.

ظهر عند الباب حيدر آغا مستأذناً، وكانت هذه هي الحادثة الثانية المزلزلة في تلك الليلة. فقد جاء محافظ أدرنة صالح باشا حاملاً أمانة نقلها رسولٌ من ملك المجر لاجوس الثاني. وبما أنه لم ترد أي أخبارٍ عن بهرام جاويش منذ فترةٍ طويلةٍ، فقد أثار هذا النبأ قلقاً كبيراً في الديوان السلطاني، فعقب سليمان خان قائلاً: «خيراً إن شاء الله. لكنني أشعر أن لا خير يرتجى من وراء هذا!».

تدخل بيري محمد باشا بوقاره المعهود قائلاً: «يجب أن يكون ردنا قاسياً في وجه أي إهانةٍ محتملةٍ يا مولاي السلطان».

بعد فترة صمتٍ قصيرةٍ مليئةٍ بالتوقعات، أصدر سليمان خان حكمه بما يليق بحاكم العالم: «إن تجاوز هذا الملك الشاب الأدب، فأنا حاكم الشرق والغرب سأصون الأمانة التي ورثتها عن أبي، وسأحترمها بطريقةٍ سيبقى المؤرخون يتحدثون عنها طيلة الدهر؛ وذلك بالقرارات التي سأتخذها هذه الليلة!».

ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى جاء صالح باشا، وقبّل طرف عباءة سليمان خان، وقدم له في هدوءٍ الصندوق المرصّع بالمجوهرات. ومن تعابير الحرج والانكسار التي بدأت تعلو وجهه؛ أدركنا ما هو متوقّعٌ، وكنا متعلقين بالآمال في حصول أعجوبة ما.

اقترب كبير البستانيين الأبكم العملاق بأدبٍ، وتناول الصندوق وفتحه بعد أن جعل جسمه الضخم ستاراً للسلطان. وبدأت علامات الطغيان الظالم والمخيف تظهر ملفوفةً بشاشٍ نظيفٍ طبقةً بعد أخرى؛ إنها أذنان وأنفٌ مبتورة بمهارة جرّاحٍ... ومعها الرسالة التالية:

«هذا ما بقي من رسولك الذي استعرض فتوته عندي يا سليمان. أعرف أنه أحد رجالك الأوفياء وتود أن يكون له قبرٌ. أنتظر تقديرك هذا الكرم مني. ولا تنس، إنّ أيّ رسول سيأتيني منك مجدداً بالنية ذاتها لن

يعود إليك مطلقاً».

ما إن أنهى إبراهيم آغا قراءة الرسالة حتى بادر بيري باشا قبل سليمان خان الذي انتفض من شدة الغضب إلى درجة منعته من الكلام قائلاً: «إنه قتلٌ واضحٌ للعهود الدولية يا مولاي السلطان! وإن التدخل حقنا المشروع». وأيده الموجودون في المجلس.

شرع سليمان خان بالكلام مذكراً الحضور وهو يمسح عنقه بخفةٍ: «يا وزرائي، ويا قادتي، ويا أمرائي، تعرفون جيّداً أن الرسل لا يجب أن يقتلوا، وأنني كرهت موقف أبي السلطان سليم الذي أمر بسجن رسل شاه بلاد فارس. والآن، كيف لي أن أسكت على ظلمٍ تعرّض له رجل كريم ومخلص لسلطانه ووظيفته لأنه نقل كلامنا ونيتنا فقط؟!».

وانبرى إبراهيم البرغالي قائلاً: «لو لم يدعمه شارلكان لما تجرأ لاجوس على القيام بفعل كهذا يا مولاي. فالمجر ليست قوية كما كانت أيام كورنيفوس، لكنها تأمل في العودة إلى سابق مجدها بدعمٍ من شارلكان والبابا. وربما كان لاجوس يسعى إلى تحقيق ذلك بتمرده علينا. غير أنه سيفهم قريباً أي خطأ ارتكبه، وسنرى كم سيقف إلى جانبه أولئك الذين يمنحونه الجرأة للتطاول علينا».

ظلت علامات الدهشة والحرج والغضب تكسو وجه سليمان خان الجميل وهو يقول: «لن يهدأ بال شارلكان حتى ينتزع منا أراضينا في أوروبا. وهو يستخدم لاجوس الشاب وسيلةً لتحقيق ذلك. وفي ظل هذا يزداد لاجوس جرأةً يوماً بعد يومٍ. سأريهما أي أوهامٍ يسعيان إلى تحقيقها، وسأسحقهما معاً».

كانت عينا الوزير الثاني مصطفى جوبان باشا الواسعتان والزرقاوان مستقرتين على السلطان سليمان وهو يقول بثقة: «يا مولانا، إن اتحادهما ضدنا، وخطر الشاه إسماعيل الذي لم يتم القضاء عليه بشكلٍ كاملٍ بعد يشجعان جميع أعدائنا».

أطرق سليمان خان مفكراً ملياً، ثم رفع رأسه متحدثاً بنبرة حادةٍ ساحقةٍ وصوتٍ متمكنٍ ثابتٍ:

- مصطفى باشا، ليتحرّك الأسطول السريع بعد إكماله استعداداته من نهر الدانوب، وعلى رأسه أنت. وإذا استخدمنا مدافع الهاون التي اخترعها جدي الفاتح على السفن، فستتمكن من قصف ما وراء الأسوار بسهولة.

- وهذا ما يفكر به عبدكم يا سلطاني. ويمكنني عندها أن أجرب تعليق السلالم المصنوعة من الحبال القوية الغليظة العصية على النيران على الأسوار.

ظلت البسمة الحزينة مرتسمة على وجه سليمان خان المتورد وهو يقول:

- أثق بك يا مصطفى جوبان باشا، فأنت رجلٌ ماهرٌ في تقنيات السلاح. لكن، عليك أن تعلم أنني في هذه المرحلة لا أستطيع أن أتحمل الفشل. لذا عليك الاهتمام بمدافع الهاون أكثر، ولتؤمّن ما يكفي من القذائف والبارود حتى لا نقع في ورطةٍ إن طال الحصار.

- الفرمان لمولاي السلطان.

كان سليمان خان في هذا الموقف شبيهاً بالمرحوم سليم خان، واستمر السلطان في إصدار أوامره:

- بيري باشا، فلتتولّ سريعاً قيادة جيش روم إيلي، ولتستكمل استعداداتك للتحرك، وسينضم إليك قاسم باشا بيلر بيي الأناضول، وأحمد باشا الأرناؤوطي أمير أمراء روم إيلي، وخسرو بك بيلر بيي سمنديرة. وليكلّف الوزير فرحات باشا بمهمة تأمين الأرزاق وما يحتاج إليه الفرسان. وإن لزم الأمر فسيستنفر أحمد باشا كل الوحدات في المناطق الواقعة تحت إدارته لتأمين الحاجات الاستثنائية للجيش، ولكن من دون أن يلحق ظلمٌ بأحدٍ. ولتؤدّ قيمة كل شيءٍ يؤخذ؛ إبرةً كانت أم

خيطاً، ولتعلموا أنني لن أتساهل مع أي مخالفةٍ. وليكلف الرئيس دانشمند بأمن السواحل الممتدة من البحر الأسود إلى الدانوب، فهو رجلٌ جسورٌ وخبيرٌ بالمنطقة. سيتوغل الغزاة بقيادة ميخال أوغلو ويحيى باشازاده بالي باي أمير في أراضي المجر، وسيقاتلون بكل قواهم لإزالة أي قوةٍ تعيق الحصار. وسأسير في طليعة قوات المركز وأكون معكم في أثناء الحصار، بعد أن أنهي القضايا التي يتوجب عليّ النظر فيها. إن بلغراد هدفنا، وهذه المدينة بوابة أوروبا الوسطى، وستكون لنا مركز قيادةٍ جيداً. وبدءاً من اليوم، بلغراد مركز حملتنا على أوروبا بإذن الله.

- الأمر لمولانا السلطان! ردّد بيري باشا ذلك بصوتٍ مرتعشٍ.

وعاود سليمان خان الكلام مخاطباً الجميع:

- لا تنسوا أنّ أوّل حصارٍ لبلغراد تم من قبل السلطان مراد خان الثاني الذي كان يعرف النقاط الاستراتيجية للمنطقة. ففي عام 1441م، حاصر جيشه المدينة بقيادة علي أورانوس أوغلو بك، وحين طال الحصار ذهب مراد خان بنفسه لتولي قيادة الحصار، واضطر إلى رفع الحصار بعد ستة أشهرٍ بسبب انتشار الأمراض والإنهاك الذي أصاب الجنود، فبدأت تظهر في صفوفهم حالات فرار حقيقية ومني الجيش بالخسائر. إن السبب الأساسي لحصول ذلك يا حضرات الآغاوات كان اليأس الناجم عن السلوك الفوضوي للجنود. وقد أصاب جدي مراد خان الثاني قلقٌ شديدٌ بسبب هذه الفوضى الشديدة في صفوف الجند. ولنتذكر معركة فارنا عام 1444م، حيث هُزِمت فرقة الإنكشارية على تراب أرضها في أول حملةٍ للصليبيين هزيمةً نكراء مخجلة، وهي التي كانت تستعرض فتوتها على أمتها وتتمرد على سلطانها؛ مما أدى إلى تجرؤ جانوس هونيادي على التفكير بقيادة فرسه نحو مركز الجيش العثماني مستعرضاً بذلك مستوى التفوق النفسي الذي حققه. صحح لي يا بيري باشا إن كنت مخطئاً.

- حاشا لله يا مولانا، فكل ما قلتموه صحيحٌ.

«لـذا، أقول لكـم إن عناصـر الإنكشـارية ممـن ربّتنا علـى ظهورهم باستمرارٍ في ظل شـعورنا بواجبنا تجاههم لا يرون – للأسف – حرجاً في الفرار مثل الأرانـب عندما يضطرون إلى ذلـك، تاركين سـلطانهم إلى قلةٍ قليلةٍ من خاصة جنوده. لذا، تذكروا أن من أنقذ كرامة الإنكشارية في ذلك اليوم لم يكن أيضاً سـوى رجل عجوز من الإنكشـارية وهـو قوجه خضر، ولو لـم تكن حملته المضـادة على العـدو وهو وحيد فـي الميدان مضرب مثلٍ يحتذى، لكان السـلطان قد وقع أسيراً أو شهيداً بين جنوده من فلاحي الأناضول وعبيد القصـر الذين تناقص عددهـم كثيراً. وفـي النهاية، تمكن الجيش من النهوض مجدداً، وانهزم الصليبيون. لكن مراد خان الثاني على الرغم من طبعه الرحيم كان في منتهى الغضب؛ إلى درجة أنه حاول إجبار جنود الإنكشـارية علـى ارتداء ثياب النسـاء في المراسـم، غيـر أن وزراءه أقنعوه بعـد ألف رجـاءٍ أن يتخلى عن رغبتـه المحقة. ولقد اسـتمرت هذه الطائفة التـي لا يوثق بها في سـلوكها ذاك، وفي إظهار سـوء أدبها في عهد جدي العظيم محمد الفاتح، فطالبت بمكافآتها بعد كل نصرٍ بقلب عربات التبن في طريق السلطان بطريقة خسيسة».

استغل بيري باشا صمت السلطان لحظةً ليشـرب عصير الكرز الذي يحبه كثيراً وقال:

– الحـق معكـم يـا مـولاي السـلطان. إن الطريـق الوحيـد للنجـاح ولضمان اسـتمراريته هو اتباع النظام بدقة. وطائفة الدوشرمة لديها ضعفٌ في هذا الخصوص. وقد ظهر هذا الوضع بسـبب المصاعب التي واجهت تحقيق الاندماج المطلوب بين الأتراك والمسلمين في بعض الفترات.

كانت هذه الكلمات كافيةً ليحبس كل من كان في المجلس أنفاسـه. فالعقول التـي كانت تحـوم لأعـوامٍ طويلةٍ حول هـذا الواقع الـذي لم يتم الحديـث عنـه بهـذا الوضـوح حتـى الآن تتجمـد اليـوم تحت أشـعة هذه الحقيقة التـي تعمي العيون. وسـاد المجلـس صمتٌ كالجليـد. أما أولئك

الذين كانوا يعرفون نية بيري باشا المستقيمة والشجاعة فلم يستغربوا هذا كثيراً. وانتقل بيري باشا إلى موضوعٍ آخر بهدوئه المعتاد وكأن شيئاً لم يحدث:

- وفي ما يتعلق بموضوع الأمراض التي يحتمل التعرّض لها في أثناء الحصار، والتي تحدثتم عنها قبل قليلٍ؛ فإن النظافة وحدها هي التي تحول دون ذلك. والجيش العثماني في مقدمة جيوش العالم من حيث النظافة والطبابة. ومع ذلك، إنّ استمراريتها ودوامها يكمنان أيضاً في النظام الخالص الذي لا يضطرب.

- أنت على حقٍّ يا باشا. ولكن، لا حاجة إلى تذكيرك بأن تكون أكثر حذراً في حديثك.

لم يُبعد بيري باشا نظراته الشجاعة عن السلطان. وبينما كان العجوز يتصرف على ضوء تجربته، بدا وكأنه يرى نفسه أساساً لا يمكن التخلي عنه. فقد عمل مع السلطان ياووز سليم خان أكثر من صدر أعظم؛ لقد كانوا ستة غير أنّ قوجه مصطفى باشا أعدم في أول عهد سليم خان في قضية الأمراء بتهمة وقوفه إلى جانب الشاهزادة أحمد، وأحمد باشا دقاقين أوغلو الذي تلاه مات طعناً بخنجر ياووز سليم نفسه في أثناء عودته من حملته على بلاد فارس بتهمة تحريض الإنكشارية الذين يثيرون الشغب دائماً خوفاً من حملةٍ جديدةٍ. ويونس باشا كان جندياً إنكشارياً قديماً، وأعدم أيضاً؛ لأنه في طريق العودة من حملة مصر عبَّر بجلاء عن استيائه من تعيين المصريّ خير بك بدلاً منه على ولاية مصر، وقال: «لقد تحملنا كل هذا التعب عبثاً، وهلك نصف الجيش في الرمال. ولو علمنا أننا سنترك مصر في أيدي الشراكسة هكذا لما تحملنا كل ذاك العذاب». ومن أجل ذلك أعدم. ولم ينج من الإعدام سوى سنان باشا (المخصي) سلف يونس باشا الذي سقط شهيداً في معركة الريدانية، ومات أحمد باشا هرسك زاده وفاة طبيعية بعد عزله، بعد أن أمضى خمسة أدوارٍ في

الصدارة العظمى من دون أن يتمكن من التأثير كما ينبغي في الجنود. وبذلك، كان بيري باشا أول صدرٍ أعظم ينهي هذه المرحلة الحرجة في منصبه من دون أن يعزل أو يعدم. ولا شك بأنه الآن يعيش نشوة هذا بحق، ومن يدري كيف ستكون نهايته لو أطال الله عمر سليم خان!

وتروى الحادثة التالية كدليل على أن بيري باشا لم يكن ليستمر طويلاً على قيد الحياة في هذا المنصب لو أن الحياة امتدت بالسلطان سليم، فقد قال له السلطان حين عينه في الصدارة العظمى: «أنت المسؤول عن جميع الأعمال الإدارية. وإن تكاسلت وأهملت فاعلم أن الخلاص من بين يدي مجرد خيالٍ، وستضيق بك الدنيا، وتكون في الآخرة مسودّ الوجه من شدة العذاب. لا بد من ردع الظالمين. فلا تغفل، ولا تظن أن حالتك لن تعرف، فلي عيون في كلّ مكانٍ، وسأعرف بالتأكيد كل ما تفعله. عليك أن تعرض هذا الخط الهمايوني على وزرائي وقضاة العسكر، وليعلموا أيضاً أنهم لن يفلتوا مني. أنت الرقيب على أعمالهم جميعا، عليك ألا تتوانى أو تهمل. وليكن معلوماً لديك أنني لا أرضى بالظلم مثقال ذرةً!».

عندها، تململ بيري في أدبٍ، وهو يحس بثقل المسؤولية المرعبة الملقاة على عاتقه، وهمهم: «ما دمت ستقتلني في النهاية بحجةٍ ما؛ فليكن هذا اليوم قبل غدٍ، ولأتخلص من هذا الخوف!».

فرد عليه سليم خان بضحكةٍ قاسيةٍ وهو يقول: «هذا ما فكرت به أيضاً، لكنني لم أجد من ينوب عنك بعد».

تابع سليمان حديثه عن حصار بلغراد: «ولنتذكر حصار بلغراد الثاني...» وحانت من أورخون جلبي التفاتة نابعة من إحساس داخلي غامض باتجاه إبراهيم البرغالي. كانت عيناه لا تفارقان بيري محمد باشا، وعضلات فكه السفلي تتحرك قليلاً، وبدا لي البرغالي في صورة ضبعٍ أدرك ضعف فريسته، ومرت على شفتيه ابتسامة تكاد لا تظهر، أو

إن أضواء القناديل هـي التي أوهمتني بذلـك. إن الجرح الـذي تلقاه بيري باشـا يفت من عضدي على أي حالٍ، فقد كان بيري باشا هو الوحيد الذي يعـرف هويتـي الحقيقية، إضافـة إلـى السـلطان والبرغالي ورجالـه. وكان يحبني ويثق بي، ولم أفشـل فـي أي مهمةٍ أرسـلني فيها. وإن لـم أتصرّف في الوقت المناسـب، فلن يتردد البرغالي في القيام بأي شيءٍ ليطيح ببيري باشـا، ويحتل مكانـه. وهل كانـت الجارية حـرّم التي قدمها إلى السـلطان سـليمان خان - والتـي يبدو أنهـا نجحت في إغواء السـلطان منـذ الآن - سوى مؤامرةٍ يدبّرها؟

- وصل السـلطان الفاتح محمد الثانـي في 13 حزيـران 1459م إلى محيط بلغراد بجيـشٍ مؤلفٍ من مئةٍ وخمسـين ألف جنديٍّ ومئتي سـفينةٍ، وثلاثمئة مدفـعٍ. لقد صُـدِم البابا والاتحـاد الصليبـي الذي يدعمـه بانتقال القائد الذي يرتجف العالم أمامه رعباً إلـى المنطقة. فتحرك جيشٌ صليبـيٌّ على وجه السـرعة نحو بلغراد، وتمكن مـن دخول بلغراد بهجـومٍ مباغتٍ وقـويٍّ بعد كسـر الحصـار. وعلى الرغـم من كل ذلـك الدعـم؛ وفّق جند الفاتح في دخـول القلعة فـي الثاني مـن تموز. إننـي أتخيل دائمـاً كم كان جدي في تلك اللحظات سـعيداً بذاك النصر المبيـن. لكن، لم يكد يمضي وقتٌ طويـلٌ حتى وقع الجنود فـي كمينٍ داخل القلعة؛ لأنهـم انهمكوا في جمـع الغنائم، وعصـوا الأوامـر، فانقضّت عليهـم الوحـدات المنظمة في هجومٍ مباغـتٍ منظـمٍ، فتشـتت الجنـود، وأدرك جـدّي أن العـودة لم يعد منها مفرٌّ، وكان على رأس القوات الخاصـة التي نجحت في صد الهجوم، والنجاة مـن نقطةٍ حرجـةٍ جداً كان مـن الممكـن أن تحطم هيبة السـلطان الفاتح محمد خان، بـل كان يمكن أن تقضـي عليه. وفي النهايـة، إن قائداً مثـل الفاتـح فـي أوج هيبته انزعـج مـن الفوضى التي تسـبب بهـا الجيش الإنكشـاري، وقرر رفع الحصار في يومه الخامس والسـتين. عندها، شعر البابا كاليتوس ترتيوس بفرحٍ شـديدٍ نتيجة نجاح الهجـوم المعاكس، وأمر

بأن تقرع أجـراس الكنائس في وقـت الظهيرة على غير العـادة. ومنذ ذلك الحين ونحن نترقب الوقت المناسـب لفتـح بلغراد. والحمـلات الصليبية التي تشنّ حتى اليوم على أرض الإسلام، ولا تبقي فيها حجراً على حجرٍ، ولا رأساً على رقبةٍ، كان يقودها غالباً ملوك المجر الأرذال. ولا بد من يومٍ يسـألون فيه عما فعلوه، وسـأكون ذلك الشـخص المحظوظ الذي سيفعل ذلك إن شاء الله.

عـاود بيـري باشـا تكـرار تلـك الحقيقـة التـي لـم يـرق للحاضرين سـماعها: «إن عناصر الإنكشـارية قد أزعجوا سـليم خان أيضاً في حملته علـى بـلاد فـارس ومصـر يـا مـولاي. ومقابـل ذلـك، نـرى أن شـجعان الأناضـول الأتـراك بطبعهم الأنيـس المطيع كانـوا بعيدين إلى حـدٍّ ما عن اضطراباتٍ كهذه!».

أجابه سـليمان خان: «أيهـا الباشـا، إن جيش الإنكشـارية هو ضمانة السـلاطين العثمانيين، وضمان بقاء سـلطتهم فـي وجه قوة أمـراء تركمان الأناضول ونفوذهم. ووجود الإنكشـاريين ضـروري ولازمٌ لوحدة الدولة ولـدوام السـلطنة، لذلك هم دائمـاً مرفوعو الرؤوس. المسـألة ليسـت في النظام كما قلتم، بل في عدم مبالاة القائمين على تفعيل النظام».

ثم دار سـليمان خان نحوي بحركةٍ مفاجئةٍ مبديـاً انزعاجه من تكرار هذا الموضوع، وأحسسـت بدقـات قلبي تتسـارع كمـا لو أنني أقـف أمام سـليم خـان: «سـأبحث معـك مسـائل الأمـن الداخلي بعـد المجلـس يا أورخون أفندي». وبما أنـه كان يولي أهميةً كبيرة لسـرّيّة هويتي كما أعلم؛ لم يكن يزعجني التصرف وكأنني لست سوى كبير الحراس عنده: «أمركم على رأسي يا مولاي السلطان».

لم يدم اجتماع المجلـس طويلاً بعد اتخاذ القـرار بالتحرك، وأثارت الجميع فرحة الفتوحات والحملات الجديـدة على أوروبا بعد توقفها زمناً طويلاً. خرج الجميع باستثناء إبراهيم البرغالي، وبادرني سليمان خان فور

خروجهم قائلاً:

«عليك بالخروج هذه الليلة فوراً إلى بلغراد مع فرقتك. إن المعلومات التي ستتوصل إليها ستلعب دوراً كبيراً في هذا الفتح يا وهيمي أورخون أفندي. أنتظر أن تصلني منك معلومات عن النقاط الضعيفة في المدينة وأسوارها في أسرع وقت. كما أنتظر منك نجاحاً لا يترك لجيشي عملاً كثيراً عندما يصل إلى أسوار بلغراد. يجب ألا يتوقف جيشي كثيراً أمام أسوار المدينة، وعليك أن تحل هذه المسألة، واطلب مني بعد ذلك ما تشاء».

- لا أرجو إلا دعاءكم يا مولاي السلطان. يكفي أن يدعو السلطان لشخصٍ أو بلدةٍ حتى تنزل بها الرحمة والبركة.

أمسك سليمان خان كتفي وهو يضحك: «هيا، أرني ما ستبذله من جهد يا أورخون أفندي».

II

14 أيار 1521م، يوم الثلاثاء

«إنه وقت السرور يا مهتار باشي! هاي! هاي!». دقّت الطبول ثلاث مراتٍ على أصول صوفيان، ثم تقدّم مهتار باشي ووقف أمام رجاله. كان شارباه المفتولان يكادان يلامسان أذنيه. أمّا حاجباه فمتلاصقان، وطلعته مهيبة، وقد وضع يده اليمنى على صدره في تحيةٍ عسكريةٍ لفرقته الموسيقية: «مرحبا يا فرقة المهتران». فرددت الفرقة التحية جماعياً وبالطريقة نفسها: «مرحبا يا مهتار باشي!». ثم ساد الصمت وكأن الأرض والسماء قد تحولتا إلى صخر أصم، وكسر جدار الصمت ذاك صوت مهتار باشي الذي بلغ عنان السماء: «الله الله، الجليل الجبار، المؤنس الستار، خالق الليل والنهار، ذو الجلال، الله الواحد! على روح نبينا رسول الأنبياء، جناب أحمد المحمود المحمد المصطفى...» وعندها انحنى الجميع قليلا وأيديهم على صدورهم في وضعية الاحترام: «.... وعلى أرواح الإمداد المعنوي أولاد الرسول، وعلى أرواح الأولياء والمرشدين، والعشاق، والواصلين، والقراء، وأهل القرآن، وحملة القرآن، وجميع أهل الإيمان، ومن أجل نجاة خليفة الإسلام؛ السلطان ابن السلطان، وبالجملة أهل الإسلام، وعلى أرواح الأولياء، والثلاثة، والسبعة، والأربعين... فلنقل: هو هووو..». قرعت الطبول ثلاث مرات مع انطلاق الأبواق، وكررت بعد ذلك فرقة المهتران تسع مراتٍ: هو هووو، ثم ضَرَبت الطبل الضخم المحمول على العربة (لوس) ثلاث مرات.

«أعوذ بالله، أعوذ بالله... الشكر لله وحده، لا إله إلا الله! الملك الحق المبين! محمد رسول الله صادق الوعد الأمين! إنا فتحنا لك فتحاً

مبينا، وينصـرك الله نصراً عزيـزا! أيها السـلطان، يا خليفة اللـه، لكم عون الله! أنتـم حارس الديـن المبين، حارس شـريعة اللـه! فتح اللـه عليكم يا سلطاني! جعل الله سـيفكم بتاراً، ونوركم مديداً! وأسعد بكم روح رسول الله فخـر العالميـن، وبـارك الحق غزوتكـم الكبـرى، وأسـعدكم...». ثم تلا أحد قادة الوحدات بصـوتٍ جميلٍ قولـه تعالى: ﴿نصرٌ مـن الله وفتحٌ قريبٌ وبشـر المؤمنين﴾. توقفٌ قصيرٌ بمقدار قول كلمة الله ثلاث مراتٍ، انطلقت بعـده دقات خفيفـةٌ وسـريعةٌ على الطبـول، وعزف علـى الآلات الموسـيقية مجتمعةً انتهـى مع صيحـات الله، اللـه ثلاث مرات مـن أفواه الجموع، وعلا النشيد الجماعي: «على يده دمٌ، على سيفه دمٌ، صدره عارٍ، وقلبه نار. حقدنا وغيظنا يؤذيان الأعداء! يا رحمن!... يا هو... هو».

ثم علا صـوت مهتار باشـي وهو يقـول: «اسـتعداد» محـدداً بنغمته مقام العزف «يـا الله !». وبدأت مراسـم تحية سـلطان المسـلمين من قبل الجنود. وهكـذا، بدأت وحدات الجيـش التي يضم كل منها خمسـين ألفا من الجنود المنتظمين تمرّ أمام السـلطان فرقة فرقةً، وكتيبة كتيبة، بالألبسة النظيفة، والأسـلحة الفخمـة، والمدافع التي تهـدر كالرعد، متخـذةً طريق الديوان السـلطاني نحو أدرنه، مـن دون أن يرتبـك تنظيمهـا العظيم لحظةً واحدةً، وسط حشود الشـعب المكتظة في سـاحة الخيل. من جانبٍ آخر، كان سليمان خان جالساً على عرشه بهدوء بين حرّاسه الخاصين من الرماة العُسـر ذوي المظهر المهيب، في نظام يليق بالجيش الذي يشعل الحماسة في النفوس، وقد بدأ يهب على مقره هواء الربيع المنعش.

كنت أنـوي لقاء السـلطان فـي أدرنه لأقدم لـه تقريـري، لكنني حين علمت أنه ينتظر اسـتكمال بعـض النواقص جئـت إليه في إسـطنبول. بعد انتهاء المراسم، رأيت آغا دار السعادة حسن أفندي يتقدم نحوي بخطواتٍ مثابرة والجمـوع تتفـرق، ومـن دون أن يعيـر تبديل لباسـي أهميـةً - ولم يكن فـي ذلك حرجٌ لأنـه لم يكـن يرتـدي ثيابه الرسـمية أيضـاً - أخبرني

بأن السلطان ينتظر دخولي عليه، وقال لي حسب الأصول: «تعال معي». سرت خلفه تاركاً بيني وبينه مسافة أمانٍ، وبعد الصعود نحو القصر القديم، عاد فجأةً وانحرف نحو الشارع الممتد إلى السوق المسقوفة عبر تشامبرلي طاش، واختلطنا بمجموعةٍ من التجار، وتقدمنا بصمتٍ.

في الطريق الضيق المعبد بالحجارة خلف السوق المسقوفة، تيسر أمرنا حين التقينا قافلة من عشرة جمالٍ، وعلى كل جملٍ أربع خوابٍ مليئةٌ بسمن طرابزون. وبينما كان صوت لهاث الجمال يتردد صداه بين الجدران الصماء، سمعتُ أصداء جدالٍ حادٌّ على بعد أقدام أمامنا. لا بد أن هذه الأصوات تأتي من دكان صورٍ يتجمّع أمامه حشد من الناس. وإذا كان هناك من يتعقبنا، فإنه بالتأكيد قد أضاع أثرنا في هذا الزحام. تدخلت سريعاً بين اليهود بأنشوطاتهم الحمراء والروم بقبعاتهم السوداء، وفصلت بينهم، وتابعت السير وعلى وجهي علامة دهشةٍ، ففي المدة الأخيرة كان اليهود والروم يتعاونون ضد الكاثوليك الذين قل عددهم كثيراً، ومن المحتمل أن ذلك التوتر يعود إلى هذا السبب.

كان حسن أفندي يتحرك بسكينةٍ وراحةٍ وكأنه واحدٌ من عامة الناس، ولكن بخطواتٍ سريعةٍ، حتى إنه توقف لبرهة لمشاهدة الجدال، وبحث في البسطات بدقةٍ، وقلب النظر يمنةً ويسرةً وهو يبحث عن شخصٍ يسأله عمّا يحدث.

وبعد جهدٍ خرجنا من بين الجموع، ووصلنا إلى جدران القصر التي تقع بمحاذاة البحر جنوباً. كان الجو يبدو ساكناً وبارداً بسبب الاقتراب من البحر، وهبوب هواء معتدلٍ وباردٍ. اقترب حسن أفندي من أسوار القصر فجأةً، وفي خطوةٍ غير مفهومةٍ، وبعد أن تلفت حوله وكأنه يريد الهروب، غاب فجأةً في الجدار. حصل ذلك في لحظةٍ خاطفةٍ، وحين أدركت أن هناك ممرّاً سرّيًا، كان عليّ أن ألتقط نفساً عميقاً قبل أن أسترد برودة أعصابي مجدداً!

III

تحت أضواء القناديل الحالمة، كنت أجلس أمام العرش المصنوع من خشب الجوز والمزيّن بمجوهرات لا مثيل لها والمرصّع بالعاج والمغطّى بالذهب.

قال السلطان سليمان:

- إن كان ما قلته صحيحاً فلن يصمدوا كثيراً.

- لا، لن يصمدوا يا مولاي السلطان.

- إذاً، هل حدّدتم كلّ نقاط الضعف في القلاع الحامية للمدينة؟

- حدّدناها يا مولاي السلطان.

- إذاً، لديك الآن ثلاثة عشر رجلاً يتوغلون داخل صفوف العدو.

- لقد نقلنا سجلات التعميد في الكنيسة، بل إننا نقلنا سجلات خمسة أجيالٍ من العائلات يا مولاي السلطان.

- كيف أنجزت هذا العمل الكثير في زمنٍ قصيرٍ يا أورخون جلبي؟!

- إنه أمرٌ صعب يا مولاي السلطان، لكنه ليس مستحيلاً. فكما تعلمون، لقد هزّت الحروب الداخلية بلغراد، وضعفت السلطة المركزية كثيراً بعد ماتياس كورفينوس، وانتشرت الرشوة وتجاوزت حدها الأقصى. وتعرفون أيضاً أن بداية مسيرة الهلاك والفساد هي نفسها لدى الحضارات كلها، وارتكاب الفواحش كان سبباً لانهيار جناحي روما معاً بسرعةٍ كبيرةٍ. لقد انتقل إلى قسطنطين الحادي عشر العادل - الذي حكم القسطنطينية في المرحلة التي سبقت فتحها على يد الفاتح محمد خان، جعل الله الجنة مكانه - إرثٌ عرف منذ أيام ولايته الأولى عليه مدى صعوبة توليه. ولما كان الموظفون يعينون في المناصب حسب انتفاخ

جعبهم بالمال، لا بناءً على مؤهلاتهم، فإن قدرة السلطة المركزية قد زالت من الوجود، ولم يعد من الممكن التدخل في تغييرها بالقوة، فالفوضى التي تنشأ بعد ذلك لا تهدأ إلا بابتكار مناصب ووظائف جديدة وتوزيعها على أولئك الموظفين.

ارتسمت البسمة على وجه سليمان خان وهو يقول:

- لم يكن لدى البيزنطيين أسطولٌ يستحق الذكر. ولكن كانت لديهم مناصب أميرالية عليا. إلا أن عدد الجنود في إمرتهم لم يكد يبلغ طوابير قليلة من جيشنا.

- إن أشد ما أضحكني يا مولاي السلطان هو لقب وكيل خزانة الألبسة الإمبراطورية.

ضحكنا مدةً طويلة قبل أن نتمكن من استعادة السيطرة على نفسينا، وبدا لي أن السلطان الشاب قد تخلص قليلاً من توتره بسبب حربه الأولى التي اقترب موعدها، فتابعت الكلام وأنا أريد تكريس هذه الحالة:

- لم يكن الإمبراطور وحده من يعلم أن «محمد» الثاني خان سيسدل الستار على ذلك الفساد المستشري، بل كان شعبه أيضاً يعرف ذلك. وتولدت لدى الجميع حالةٌ من الرضى الخفي بالإدارة العثمانية العادلة. والآن، أرى يا مولاي أن الشعب المجري قد سئم من الفوضى الداخلية، وينتظر حكماً جديداً يجلب إليه الاستقرار. فالناس يبحثون عن راحتهم، ويفكرون في مستقبل أطفالهم، ولا يمكن أن يكونوا مذنبين من أجل ذلك. فلا تقلقوا، ولا تحزنوا، إننا في موقع الذروة من القوة في تاريخنا العثماني المديد، والإرادة في استمرارها موجودة في شخصكم، وكلّ من يحظى بفرصة النظر إلى وجهكم وعينيكم لا بد أنه سيلحظ القوة الروحية التي تملكونها..

لم أشعر بالانكسار حين رأيت في عينيه علامات الاستفسار، فهو السلطان، ويدرك أن كل من يحوز على ثقته يمكن أن يتزلف إليه ويقع في

المبالغة والإفراط، فتابعت الحديث:

- بموجب طبيعة العمل الذي أقوم به يا مولاي، تكونت لديّ الخبرة والفراسة اللتان أميز بهما الرجال، ويمكنكم الثقة في حكمي عليكم.

أحسست بالراحة تعلو محياه وهو يقول:

- كما قلت يا أورخون جلبي، إن أي دولةٍ تنتشر فيها الرشوة يمكنك أن تفعل فيها ما تشاء. نعم، أنت محقٌّ، فالمجر ضعيفةٌ، ولا فرق بينها وبين رجلٍ عجوزٍ يتسلى بذكريات الماضي. أما أنت، فإنك عيناي اللتان أرى بهما في بلاد الكفار، ويدي التي أمسك بها، وأنت سيفي الخفي... لم يخطئ أبي حين وثق بك، وأنا أثق بك الآن، فلا تبال برأي أحدٍ فيك...

كان بجملته الأخيرة يقصد إبراهيم البرغالي، فأثارت هذه الكلمات في داخلي رياح الثقة بالمستقبل وقلت مبتسماً:

- العبد يبني، والقدر يضحك يا مولاي. إنني أؤدي فقط الواجب الذي استودعني إياه أبوكم حضرة ياووز سليم خان، ومهما دعونا لياووز خان فإن ذلك لا يفيه حقه. فقد ترك شجرة دلبٍ عظيمة مثل بيري محمد باشا، ودولةً تهز العالم بنظامها وقوتها.

لقد أدرك ما أريد فعله، فهمهم في أدبٍ: «اطمئن!». ثم استند إلى الخلف، والتقط نفساً عميقاً، وارتشف القليل من شراب الكرز من كأسه البلورية التي قدمها له الآغا. إن سلوكه الذي يحمل الكثير من السرية قبل قليلٍ كان يثير امتعاضي: كيف يضطر إلى الهمس في قصره وهو حاكم العالم؟! استأنف السلطان حديثه مركزاً على شارلكان هذه المرة:

- إن أسرة هاسبورغ النمساوية هذه التي ينتمي إليها شارلكان... (وكأنما استدرك فقال) في البداية، أخذ شارلكان تاج ألمانيا التي تمثل كونفدرالية الدويلات الألمانية بالزواج، فأصبح وريث دولةٍ غنيةٍ بزواج ماكسيميليان الأول من ماريا الوريثة الوحيدة لتشالرز دوق بورغونيا التي كانت تضم أيضاً بلجيكا وفلندر. أما ابنه فيليب الوسيم فقد فعل

ما هو أفضـل، حيث ورث مُلْك إسـبانيا بزواجـه من ملكة كاسـتيليا جوانا المجنونة.

- إن هذا النمو المباغت مهمـا بدا جالباً للوحدة دليـلٌ على بنيةٍ غير سليمةٍ يا مولاي السلطان.

- أنـت علـى حقٍّ، ولكنـه رغم ذلـك يشـجع مخاطبينـا علـى الثقة المتزايدة يوماً بعـد يومٍ. إن شـارلكان في موقفٍ قويٍّ بعد الكشـوفات في القارة الأمريكية والموارد غير المتناهية التي حصلوا عليها. نعم، إن اتصال المجـر الآن بالبحر الأسـود مقطوع، والقنـوات التجارية علـى الأدرياتيك تخضع لتهديد التجار البنادقة؛ واحدةً تلو أخرى.

- إن الـدول التـي لا تطـل علـى البحـار تبقـى إنجازاتها العسـكرية محدودةً دائماً يا مولاي السلطان.

- ولاجـوس الثاني يعـرف هذا، ولا بد لـه أن يفعل أي شـيءٍ مقابل بقاء ممرات الأدرياتيك مفتوحـة. ولو اختار القرب منـا والهدنة لما خاب أمله.

- مولانا، لا يود شارلكان أبداً أن يتخلى عن ألعوبةٍ مثل لاجوس.

- لقـد فضلنا الصلـح على القتـال دائمـاً. ولكن، للأسـف لا بد من التحـرك مـن أجل جيـشٍ كبيـرٍ يعيـش على حلـم الحصـول علـى الغنائم كجيشـي. وإذا كان لاجوس ألعوبةً بيد شـارلكان في سـبيل السـلطة، فإنه بالنسبة لي لا يمكن أن يكون سوى لعبة حربٍ فقط.

اتكأ نحو الخلف، وارتشـف من شـراب الكرز المفضـل لديه تحت أضواء القناديل المشـعة، وأحسسـت في داخلـي بالتناقض بيـن ظاهر هذا الشـاب اليافع وتوحده. ليتني كنت في عمر أسـتطيع فيه مسـاندته من دون أن تفارقـه عينـاي أبـداً. لكنني بلغـت الأربعين مـن عمري، ويـكاد هو أن يبلغ السادسة والعشرين. وليتني كنت أعرف سـر ارتياحه تجاه ذاك الرجل الغامض فـي تصرفاتـه؛ إبراهيم البرغالـي. ولا أنكر أنني كنـت أرى تحت

هذا المظهر الطفولي للسلطان سليمان بريق والده سليم خان الذي تعشى له العيون. وعلى الرغم من كل هذا، كان علي أن أفعل كل ما أستطيع فعله حتى أحول دون المكائد التي ينسجها البرغالي ضد الدولة والسلطان. وأفضل وسيلة في سبيل تحقيق ذلك هي مراقبته من بعيد. وتشكيلاتي قادرة على ذلك، ولو علم البرغالي بهذا لما استطعت إنقاذ رأسي.

لقد أحسست منذ اليوم الأول بشعوره بالقلق من وجود شبكةٍ كهذه، وقد تأكدت مراراً أنه يرانا عقبةً يمكن أن تعرقله مستقبلاً. وكان يبدو لي أنه في أوّل فرصةٍ تسنح له سيعمل على تصفيتي بكلّ ما أوتي من قوةٍ... على أي حالٍ، كان الوقت مبكراً لمثل هذه الأفكار. ونحن الآن أمام هدفٍ مشتركٍ: إنها بلغراد.

- إن مجالستك طيبة يا أورخون جلبي. سأغادر العاصمة في الثامن عشر من الشهر، ولكنني سأتفقد قبل ذلك الجامع الذي بدأ السلطان سليم خان بإنشائه، والذي يُطل على الخليج، وسأعطي تعليماتي إلى علي عجم حول أقسامٍ إضافيةٍ أفكر ببنائها، ثم سأتولى قيادة قواتي المرابطة في حلقة بينار بعد الدعاء لله عند المزارات المباركة. وقد عينتك قائداً للفرقة الخاصة لترافقني، ولا تحرمني من مجالستك، ولتروي لي عن مغامراتك في البلاد الأجنبية.

أحسست بسعادةٍ كبيرةٍ، وقلت:

- إنها متعةٌ لي، وفضلٌ منك علي يا سيدنا. وهذا الأمر مفيد أيضاً.

* * *

غير أن اللعبة طالت أكثر مما كنا ننتظر، فقد فاض نهر مريج بسبب أمطار الربيع، وحول ضفتيه إلى مستنقعين، فشكل ذلك مصاعب في وجه عمال الاستحكامات والحواجز. وثارت مشاكل أمنية غير متوقعة في آخر مركز رفدٍ للجيش؛ في صوفيا. فقد كانت في صوفيا جماعة نصرانية أعلنت انفصالها عن الكنيسة الأرثوذكسية، وأغلقت في الوقت

نفسه أبوابها أمام الأفكار اللوثرية، وتمردت هذه المجموعة على السلطة المركزية في صوفيا، وبدأت بضرب طرق الإمداد. وكان الوقت يمضي فيما الجيش منشغلاً بمكافحة هذه العصابات الصغيرة؛ فالذبابة وإن كانت صغيرةً فإنها تثير الغثيان. ومع ذلك استطاع الوزير الثالث الداماد فرحات باشا أن يلتحق بالجيش قادماً من الأناضول، ومعه ثلاثة آلاف ناقةٍ محملةٍ بالبارود والرصاص، وإمداداتٍ أخرى. وفي الطريق، تعرض لهجماتٍ كثيرةٍ باءت بالفشل، ولم يقبض على أحدٍ حياً سوى بعض من لا قيمة له.

في تلك الليلة من أول حزيران، استدعى السلطان سليمان خان إلى خيمته فرحات باشا وقال له:

- جئت بحمل ثلاثة آلاف ناقةٍ من الإمدادات، ولا يزال في الطريق حمل سبعة وعشرين ألف ناقةٍ كما تقول. وأعلم أنك تدرك ما قد يلحق بالقافلة في الطريق، فلماذا لست على رأس القافلة يا فرحات باشا؟ ألا تعلم أن أي خسارةٍ كبيرةٍ يمكنها أن تلحق ضرراً بالغاً بالحملة؟! فكما تعلم، حين حاصر جدي مراد خان الثاني بلغراد وقع في العجز عندما طال الحصار. كنا قد تحدثنا حول هذا قبل الحملة.

- مولاي السلطان، كان جيش مراد خان الثاني ضعف هذا الـ...

صرخ فيه سليمان خان قائلاً: «اسكت! إننا نتوقع الخير دائماً، لكننا نتصرف كما لو أن أسوأ شرٍّ سيقع، وإلا فكيف ستكون حالنا؟ هكذا يتصرّف سليمان خان، ويجب أن تعتاد على هذا.

- مولاي السلطان، إن جيشنا ذو خبرةٍ في حرب الحصون، ومدافعنا وأفيالنا المدرعة تشكل قوّةً لا تقاوم...

- اسكت يا باشا. إن الإنسان يجب أن يفكر دائماً، ألا تعرف هذا وقد بلغت سنك هذه؟؟!

أحنى فرحات باشا رأسه في أدبٍ، وعلى وجهه ملامح الارتباك: الفرمان لمولانا.

- إن كونـك زوج أختنـا السـلطانة بيهـان لا يعطيـك امتيـازاً، فانتبه لتصرفاتك.

بقيادة أحمد باشا الأرناؤوطي، صدرت الأوامر للتجمعات السكانية المحيطة بتسـليم عشـرة آلاف عربةٍ من الطحين والشـعير، ودفعت أثمانها كاملة حسـب الفرمان، والتزم العدل، وتم تجنّب الظلم. وتحرك الأسطول الخفيف المؤلف من خمسـين سـفينةٍ في الدانوب لحماية مؤخر الجيش، ونُقل قسـم من الجنود، وتمّ إعداد الاسـتحكامات في الخلف تحسباً لأي تراجـعٍ فـوريٍّ، ولإنشـاء مسـتودعات أرزاقٍ. وهكـذا، كان الوزيـر الثاني مصطفى باشـا بتجاربـه القديمة وخبراته يعمـل على أكمل وجـهٍ، وما كان ليخيّب آمال من يثقون به.

في الثاني من شـهر رجب، السـابع من حزيران 1521م، نزل الجيش في فيلبيه، ونصبت خيمة السـلطان خارج المدينة علـى الرغم من الأمطار الغزيرة. لـم يفارق السـلطان جنـده، فأصبحـت معنويـات الجنـود عالية، وانتشـر الجيـش على السـفوح على شـكل مدينـة من خيـامٍ بيضـاء نظيفةٍ حسـب ترتيبات وحداتهم. كانت مدن الخيام في مقـرات الجيش العثماني عـادة عميقة الجـذور، لا يختـل نظامهـا أبـداً، ولا يمكن لمـن يبحث عن خيمتـه في ظلمـة الليـل أن يضل مطلقـاً. وبفضل هـذا النظام، لـم يحدث ارتباكٌ قطّ في التقدم أو التحميل أو النزول.

كان السنجق الخاص بسـليمان خان أبيض وعليه الطغراء الهمايوني ومزخرفاً بماء الذهب، وكان يرفرف عالياً أمـام الخيمة الكبيرة، فيما يحيط بالخيمـة جنـود القـوات الخاصة علـى عادة آسيا الوسـطى. كانـت خيام الوزراء والقادة والألوية تختلف أحجامها باختلاف رتبهم، وكانت الرايات الحمـراء التـي يحملها غلمـان القصر مـن الفرسـان، ورايات الإنكشـارية الخضـراء، والرايـات الحمـراء والصفراء ترفـرف بوقار في جو المعسـكر الرطب.

عقد مجلس الحرب بأمر من السلطان في ساعة متأخرة من الليل. افتتح المجلس بحديث شكر وجهه سليمان خان للحضور، واستمر بثرثرة إبراهيم البرغالي الذي تحدث قبل بيري محمد باشا خلافاً للتوقعات. وفي النهاية، حان دور أحمد باشا بيلر بيي روم إيلي، فاقترح السير نحو بودين أولاً، فبودين موقع استراتيجي خطير، والسير إليها والاستيلاء عليها سيربكان العدو، ويحققان الهزيمة النفسية، ويمهدان لسقوط بلغراد. والمهابة التي سنحققها لن تمحى من ذاكرة أعدائنا أبد الدهر. وعندما رأى كبير مربي الصقور إبراهيم البرغالي ميل السلطان إلى هذا الرأي أخذ يدعم هذه الفكرة، كما لو أنه كان يفكر بهذا الأمر منذ سنوات. وفي الحقيقة، لم يكن هذا التفكير خاطئاً، فأي ضربة تنزل على قلب المجر ستجعل نهضتهم والتقاطهم أنفاسهم مجدداً أمراً بعيد المنال.

بعد تفكير عميقٍ، استقام سليمان خان في جلسته ببطء، وانحنى إلى الأمام قليلاً وقال: «نعم، إن الاستيلاء على المجر في لحظةٍ واحدةٍ، وفي ضربة واحدةٍ سيكون سبباً في فقدان شارلكان صوابه خوفاً وفزعاً. وعندئذ سوف يتخلى عن كبريائه، وسيشعر بالخوف من أن يجدني يوماً وسيفي المسلول بيدي واقفاً عند رأسه وهو في فراشه من دون سابق إنذار!».

لكن بيري محمد باشا بدأ حديثه محذّراً من مخاطر ترك قلعةٍ هامةٍ مثل بلغراد، والمشاكل الخطيرة التي يمكن أن تنجم عن ذلك مستقبلاً فقال: «لكي نحتفظ ببودين لا بد من فتح بلغراد أولاً، والتفكير ببديلٍ آخر ليس سليماً يا مولاي السلطان». وتابع وهو ينظر إلى عيني سليمان خان: «إن كلّ خطوةٍ خاطئةٍ نخطوها في هذا الوقت سوف تدفع أوروبا نحو حملاتٍ صليبيةٍ جديدةٍ. علينا أولاً أن نستند إلى جدارٍ متينٍ، وذاك الجدار هو بلغراد. وكل ما عدا ذلك من أفكار ليس له محل من الاعتبار».

فكر سليمان لحظةً، لم يكن يُسمع في الخيمة خلالها صوتٌ سوى صوت الريح التي تداعب حبال الخيمة الأفغانية، وقماشها المنسوج من

القطن على طبقتين، ثم قال: «سمعتم بيري باشا، فما قولكم؟».

كسـر مصطفى جوبان باشا جدار ذلك السكون العجيب في الداخل مؤيداً بيري باشا الذي يحترمه كثيراً، ولعله كان يعرف تفهم السلطان لهذا الموقف؛ لأنه ليس هناك أحد لا يكن الاحترام لخبرة بيري باشا الكبيرة. إلا أن عدم الرضى كان بادياً على وجه سليمان خان.

IV

وصلنا في الثاني من شهر شعبان، السابع من تموز 1521م، في ساعات ما بعد الظهيرة الحارة والرطبة إلى مشارف قلعة صباج. كان الجو مليئاً بالضباب، وكانت الغيوم الياقوتية تتكاثف مقتربةً في الأفق الغربي. وكانت قلعة صباج قد شيدت من قبل السلطان الفاتح محمد الثاني، بين عامي 1470-1471، وسيطر عليها المجريون عام 1476م.

رفض قائد القلعة سيمون لوغودين تسليم القلعة، وبدأت طلقات المدافع والسهام تنطلق منها. وفي هذه الأثناء، كانت الأنباء الواردة في 3 تموز عن سير بيري باشا على رأس عشرين ألفاً من قوات النخبة نحو قلعة زفلين المقابلة لبلغراد سارةً ومؤكدة. وإن لم يتوقف الجيش أمام قلعة بوغوردلان طويلاً، وتمكنا من شلّ المجريين وصد أيّ هجومٍ مضادٍ، فإن جيشنا بكل ثقله سيكون على مشارف بلغراد.

كان يبدو جلياً أنها تجربة البرغالي الأولى في الحرب. وكان وجهه الأبيض المكفهر الذي يسيل العرق عليه مثار شفقةٍ على حاله. كان يجفل دائماً في أثناء إطلاق نار المدافع والبنادق، ويبذل جهوداً ملحوظةً ليألف ذلك. ويبدو أن روائح البارود والدم والجثث المحترقة تثير غثيانه، وكذلك صرخات الناس الذين يواجهون الموت من دون رغبةٍ. إلا أنه بقدرته العالية على التكيف وذكائه كان يسيطر على نفسه خلال مدةٍ قصيرةٍ. كان إبراهيم البرغالي قد اقترح فكرة ردم الخنادق المحيطة بالقلعة بأسرع وقتٍ، وعندها لن تكون هناك حاجةٌ إلى بناء أبراج الحصار. وعلى الرغم من اعتراض الوزير الثاني مصطفى باشا، واعتباره أن ذلك سيكون مضيعةً للوقت، فإن الفكرة قد وضعت موضع التنفيذ بإرادة السلطان، وقد

ظهر أن البرغالي كان محقًّا قبل أن يمر وقتٌ طويلٌ.

مقابـل اقتـراح البرغالي، اقتـرح مصطفـى باشـا توزيع كامـل الغنائم داخل القلعة علـى الجنـود المرهقين من أجل تشـويقهم. في بـادئ الأمر، لم يستحسن السلطان سـليمان هذا الرأي خوفاً من أن يظلم الجنود الناس، لكنه لم يشأ أن يتأخر كثيراً في الوصول إلى بلغراد، ولذلك قبل بهذا الرأي.

ونتيجـة لذلك، كانـت الخطتان مفيدتيـن، ولـم يكن فقـدان مصطفى باشا لمكانته في مصلحتي. فقد أثارت فكرة الحصول على الغنائم حماسة الجنود، فهاجموا القلعة بسـلالم خشـبيةٍ وحبالٍ هجوماً لم يتـرك للمدافع مهماتٍ كثيرةً. كان سـليمان خان مصمماً، واسـتطاع الجنـود العبيد الذين زحفوا نحو أسـوار القلعة في كتلٍ بشـريةٍ، يليهم جنود الإنكشـارية، تسلق أسـوار القلعة المتهالكة التي بدأت تتهاوى منـذ الموجة الهجومية الأولى. وبدأت الرايات العثمانية الخضراء والحمـراء والصفراء ترفرف على أبراج القلعة.

وقع قائـد القلعـة سـيمون لوغودين فـي قبضـة مجموعةٍ مـن جنود الإنكشـارية، وأعدم فوراً وعُلّق على أحـد الأبراج. كما أعـدم المحاربون المجريون الذين هربوا إلى الأقسـام الداخلية، حيث ألقـي القبض عليهم، وتم إعدامهم مـن دون أي محاكمـة. وعندها، قـرر قادة الوحـدات الكبار والباشاوات الذين كانوا يسيرون بين مئات الجثث المتجمعة على الأسوار وعلى أطراف الطرقات أن يبلغوا سـليمان خان أنه لم يبـق في الداخل من يحمل السلاح.

في الصبـاح التالـي، وبينمـا كان السـلطان يلـج القلعة مع حاشـيته، كانت عيناه تتأملان الدم والخراب، وهو يشـعر بحزن وألم شديدين. وقال مخاطباً وزراءه وقادتـه: «إن هذه القلعـة أول قلعةٍ أفتحهـا، وعليكـم إعادة إعمارها!».

* * *

وصلنا إلى نهر ساڤا في السابع عشر من تموز. وفي هذا الموقع، وصل طلاب مدارس أدرنه وفيليبه وصوفيا إلى مقر القيادة راغبين في الاشتراك في الحرب، فسر بهم السلطان سروراً كبيراً، وكلف كل واحدٍ منهم بخدماتٍ يقوم بها خلف القوات.

وكان ساڤا نهراً عريضاً فاضت مياهه فشكلت مستنقعات قرب بلغراد. وكان لا بد من تشييد جسر، غير أن فصل الصيف الماطر هذا العام جعل من نهر ساڤا - كما هي حال المياه الجارية في المنطقة كلها - نهراً هادراً. ولمّا كانت المستلزمات المتوفرة لدى وحدات الهندسة غير كافيةٍ، والمعونات والعوامات التي كان الأسطول الخفيف ينقلها قد دخلت برزخ الدانوب، وغرقت بسبب أعمال العدو التخريبية وهيجان النهر، لم يكن هناك مفرٌّ من إنشاء جسرٍ من جذوع أشجار الغابات القريبة. عند هذه النقطة، عاد رأي أحمد باشا الأرناؤوطي بشنّ حملةٍ على بودين إلى جدول الأعمال، وأتذكر كيف انزعج بيري باشا من ذلك، لكنه استطاع أن يحافظ على صمته طويلاً إلى أن حلّ الظلام. فبينما كان يتجول في فسطاط السلطان سأل بيري أحمد باشا: «لماذا إصرارك هذا يا أحمد باشا؟!».

لا زلت أتذكر كيف أطرق الوزير الثاني مصطفى باشا برأسه نحو الأرض، ولن أنسى طيلة حياتي كيف احمر وجه أمير سمنديرة خسرو بك خجلاً ودهشةً، وكيف انتابته نوبة سعالٍ وهو يحاول تنظيف حنجرته. أما بيلر بيي الأناضول قاسم باشا فقد ركز عينيه المدهوشتين على يديه وكأنه يراهما لأول مرة. أما البرغالي، فإنه كان يفكر في كيفية خروجه من هذه المواجهات ظافراً أكثر من غيره، وكانت عيناي لا تفارقانه، وكانت نظراتنا تلتقي أحياناً في الفراغ، وعندها كنت أشعر بالقلق المدهش الذي يحس به. كان بيري يقول:

- إن بودين من دون شك هدفنا الأخير الذي سنسير إليه، لكن

الإصرار على هذا الآن أمرٌ مريبٌ.

رد عليه أحمد باشا بكثيرٍ من الارتباك:

- ماذا تريد أن تقول يا بيري باشا؟!

- إن كنت مصراً فإنني أستطيع أن أتكلم يا صديقي.

- الكلمة الأخيرة لمولاي السلطان.

- بالتأكيد، ولكن...

- يا بيري باشا، أنت لا تعرف كم هو جامح وغدارٌ نهر سافا، إنه بريءٌ براءة الأطفال الذين يلعبون على ضفتيه حين يكون هادئاً، لكنه يتحول إلى وحشٍ مفترسٍ حين يهيج، فيفيض ويجرف ما حوله، ولا يبقى من براءته القديمة أثرٌ، فتحسب عندها أنك في مكانٍ آخر وزمان آخر، وأن هذا النهر ليس ذاك النهر... وبناء جسرٍ هنا الآن سيستغرق منا على الأقل أسبوعاً، وبالتأكيد لا بد من بناء هذا الجسر لنتمكن من العبور، ولذلك يمكن أن نترك طابوراً صغيراً للقيام بهذه المهمة، فيما يسير بقية الجيش لحصار بودين...

- أتظن أن المجرمين لن يعرفوا ذلك يا أحمد باشا؟ إن لاجوس صغيرٌ، لكنه ليس أحمق، وإلى جانبه مستشارون خبراء، لا يمكن الاستخفاف بأحدٍ منهم. وعلى الأخص وكيل مجلس الحرب لاسزلو توكولي، هل من أحد بيننا لا يعرفه؟ إنه حقاً أستاذ في استراتيجيات الحرب. إن أي حركة نقوم بها تاركين بلغراد خلفنا يمكن أن تسبب الخسران المبين، وتعرض سلطاننا لتحطيم آماله في أول حملة يقوم بها، وستكون في ذلك وصمة عارٍ على دولتنا.

عند نهاية هذا النقاش الذي أصغى إليه السلطان بصبرٍ، تساءلنا جميعاً عن القرار الذي سيتخذه. كنا نعرف أنه يرغب في المسير إلى بودين، لكن بيري محمد باشا بتجربته القاهرة كان يمثل فينا صوت الحس السليم. لم يعد أحمد باشا الأرناؤوطي يستطيع التحمل، واحمرّ وجهه

البيضاوي ذو البشرة البيضاء، وتجعدت جبهته، وانتصب شعر لحيته الكثيفة الرمادية، وانطلق صوته العالي يقول: «لقد انتهى عهدك يا بيري باشا. وبأفكارك هذه لا يمكنك إلا أن تكون عقبة أمام الجيش والسلطان».

لم يرد بيري محمد باشا على هذه اللهجة القاسية، وأدرك أنه كان وحيداً بسبب السكون الذي ساد المجلس. كما أدرك مدى القلق الذي تثيره أفكاره عند الباشاوات من الدوشرمة، ولم يكن يستغرب ذلك منهم. كان على وشك الكلام وهو يحافظ على هدوئه، حين وقف سليمان خان، ووضع النقطة الأخيرة في هذا الجدال: «لقد صدر القرار، وجهتنا بلغراد».

V

طلب مني سليمان خان الانتظار في زاوية بعيدة من زوايا الفسطاط؛ لأننا وبينما كنا نبحث في بعض التفاصيل استأذن بيري محمد باشا مع سلاحدار آغا بالدخول والحزن بادٍ عليه. كان يريد أن يتحدث مع السلطان قليلاً في موضوعٍ أجهله. كانا يتهامسان، فحاولت أن أعرف الكلام من حركات الشفاه، فكان بيري محمد باشا يقول:

- ما كنت أود أن تجري الأمور هكذا، فأنا لا أريد أن أدفعكم إلى أحد خيارين متناقضين، وأضطركم إلى أمرٍ واقعٍ، وأجعلكم في موقفٍ محرج يا مولاي السلطان.

- لا تقلق يا باشا، إن الأمور تجري هكذا.

- حين يهرم الذئب تتكاثر عليه الكلاب...

- لا تقل هذا يا بيري باشا، فأنت لست عجوزاً ولم تهرم. ثم إنهم يدركون في أعماقهم بلا شكّ صواب رأيك. ولكنهم يقترحون ذلك لأنهم يحرصون على امتلاك كل شيء. آهٍ من تلك الرغبة...

- مولاي، في مثل هذه الأوقات، ينبغي على الإنسان أن يفكر برويةٍ وهدوءٍ، وهو ما فعلته. إن وقوفكم إلى جانب البرغالي باستمرارٍ في الآونة الأخيرة يدفعه هو ومن حوله إلى التمادي في الجرأة.

ضحك سليمان خان وهو يقول: «لا تحسبن أنني غافلٌ عما يحدث يا باشا، لكن ما يبديه هؤلاء من خفةٍ في تلبية كل أمرٍ يؤمرون به من دون تردد يسرني».

عاد الباشا يقول وفي لهجته نبرةٌ حادةٌ: «أعلم ذلك يا مولاي السلطان. إلا أن تزلف أمثال هؤلاء يؤدي مع الزمن إلى تعثر قدمٍ أيضاً».

فردّ عليه السلطان بصوتٍ صبورٍ: «وأعلم أيضاً يا باشا أن الإنسان لن تزل قدمه ولو كان وسط العواصف ما دام يقظاً».

- مولاي، في حياة الإنسان لحظاتٌ تختلط فيها اليقظة بالأحلام، ولا يمكنه فيها أن يتأكد إن كان ما يحصل حقيقةً أم طيفاً من الأحلام. والعجيب أنه يكون في تلك اللحظات بين الحقيقة والخيال، ولا بد له حينها من أن يوقظه أحدٌ ما. وحياة السلطان في الواقع يا مولاي ليست كحياة السلاطين في حكايات ألف ليلةٍ وليلةٍ. ويوجد حولكم يا مولاي الكثير من المصفقين الذين يملأون محيطكم بضجيج تضيع فيه الأصوات التي توقظكم.

ارتفعت نبرة السلطان مجدداً، بصوتٍ أسمعه من مكاني هذه المرة: «يكفي أيها الباشا. لا أحب أن تعاملني كما تعامل الأطفال».

- أدرك ذلك يا مولاي السلطان.

- إن كنت تدرك ذلك فلا تتصرف بما يمكن أن يؤدي إلى سحقك من قبل خصومك. لا تتصرف هكذا، حتى أستطيع الوقوف خلفك دائماً. أنت عزيز عليّ، ولكن لا تتجاوز حدودك. هذا آخر تنبيهٍ لك.

من يزرع الريح يحصد العواصف
(إبراهيم البرغالي)

I

«ما نفكر به أو نقوله لا أهمية له أبداً،
ما نفعله فقط يحمل قيمة ومعنىً».

مارسيل بروست (جانب منازل سوان)

28 تموز 1521

لم أدر بأي حال في الحقيقة حالي
حسبي أنها مع النفس في جدال
وصال الحبيب للعاشق فكرٌ وذكرٌ
لكنّه ضرب من خيال ومحال
لا يموت من بالحسنات يحيا ذكره
حتى القيامة يذكر بالخير والكمال

....

[يترنم ببعض أشعار سليمان خان، في أبيات تفصح عن الغربة التي يعيشها السلطان وهو في عز سلطته، وعن نزعة الصوفي نحو التجرد من عالم الفناء، والدخول من أجله في صراع مع النفس، ثم يعقب]:

أيمكن للمرء ألا يقف معجباً وحائراً أمام شعرٍ كهذا؟! يا صاحبي، إن سيفك المزين بالجواهر، وريشتك الذهبية أحدّ من سيوف جدودك وريشهم. ولأنك يا صاحبي شاعرٌ مؤمنٌ بشعر حياته، نظمت هذا الشعر العذب بمثل هذا النجاح. وفي ذاك اليوم، عند دخولك قلعة صباح عبر

كل تلك الدماء والدمار، كان الحزن العميق البادي عليك يزيد من هيبتك، فيما يلف رأسك الجميل مثل هالة مذهبة كتلك التي نراها في رسوم الفرنجة.

قفطانك الأحمر المزين بالياقوت والعقيق يرخي سدوله حتى جزمتيك المصنوعتين من جلدٍ أحمر. والألماسة الذهبية التي تعلو عمامتك العظيمة تبث الدفء في الحياة بسيل نوراني أصفر يخجل لونه الشموس. ولحيتك التي يزداد طولها يوماً بعد يوم بكثافتها وهيبتها في آن، علقت فيها قطرات ماء من أثر الوضوء فبدت مشعة وكأنها قطع تناثرت من تلك الألماسة التي تعلو عمامتك. أكنت تعلم أن وجودك وحدك في تلك الحال يجعلني أتساءل مجدداً عن حقيقة وجودك ووجود هذا العالم المشهود؟ أحقيقي أنت يا صاحبي أم مجرد حلمٍ وخيالٍ؟!

حقاً، لقد خلقت حاكماً بالفطرة يا صاحبي. وحكمك الدنيا قدرك المكتوب، أن تحكم وتطاع يا حاكم العالم... سيلف روحي ويهز أعماقي بريق نجاحاتك وانتصاراتك التي تخطف الأبصار... أعترف أنك تتسلل إلى فؤادي أو تخترقه رغماً عني، والأسوأ من ذلك هذا الحبّ الذي أكنّه لك وأتجرعه كدواء مرٍّ يمنح روحي الحياة... وعندما تدوس على أكتاف الملوك وترتقي، ألامس النجوم أنا أيضاً. وأنا الآن في المرتفعات، لا يمكن أن يراها وهيمي أورخون جلبي جاسوسك الذي تثق به كثيراً، ولا بيري محمد باشا صدرك الأعظم التركي الذي يدهشك ذكاؤه وخبرته، ولا وزيرك الثاني التركي أيضاً جوبان مصطفى باشا؛ لأنهم في نظري يا مولاي جثثٌ تتناثر حولي... وشعورهم الخفي بذلك يزعجهم، فهم يعرفون أن نهايتهم باتت قريبةً، وعما قريب سيتوسلون لكي ينتهي كل شيء...

– حرّم... حرّم، لا تخيّبي أملي يا حرّم... فحكمي لن يبقى مثل حكمك.

- أس س س... لا تهتم يا إبراهيم، لا تهتم... لا تهتم...

- إبراهيم؟! منذ متى وأنا أخاطب نفسي بهذا الاسم؟ أنا يانكو... يانكو... ويمر الزمان... وتدور الدنيا يا سليمان، ويجعلك القدر مثل أبيك؛ خاضعاً لصاحبة العينين الغزلانيتين.

[يدمدم بأشعار السلطان التي يتغزل فيها بحرّم. فهي أنيسته في خلوته، وحبيبته، وقمره المضيء في جو السماء، وسلطانته، وملكة الجمال في عينيه. وهي وردته الجميلة، ونديمته، ونور شمسه، وعبق أزهاره ونارنجته ورمانته. هي ربيع حياته، يراها في كل ألوان الديار التي يحكمها. ويتغزل بشعرها الطويل المموج كالأفاعي، وحاجبيها وعينيها الفاتنتين، فإن مات فهي قاتلته، ففي قلبه حزن، وعيناه تفيضان بالدموع. إنه العاشق السكران من حبها].

ماذا أقول الآن؟ شعركَ العظيم بقدر عظمتك. على الأقل، سيدور له رأس حرّم عندما تقرأه أمامها بالتأكيد. فأي امرأة تستطيع أن تقاوم ما ينبع من الصميم؟ إن روحك النيرة المليئة بالمحبة قد تسربت إلى هذه الأبيات يا سليمان خان. إن سحرتك حرّم بفضلي أنا، فهذه الأشعار ستبقى تسحر القارئين ما بقيت في الدنيا.

أعرف أن تعلقك بي الذي يزداد شيئاً فشيئاً ينبع من حبك الذي ينمو تجاه حرّم. ليكن ذلك. نحن ولو كنا حرّين طليقين، فإن روحينا الأسيرتين في الحقيقة بطبيعتهما في عذاب مشترك. ربما تكفي قوتك لإخضاع العالم يا سليمان، لكن قوتنا نحن المسكينين تكفيك بالتأكيد.

ربما كنت مضرب المثل للجند في شجاعتك، وكنت أول من يعبر الجسر المتين الذي بناه الإنكشاري سنان بن عبد المنان على نهر ساقا بصعوبة خلال تسعة أيامٍ، وبطولٍ يبلغ ألفاً وثمانمئة قدمٍ، ولكنْ أتظن أنني لم أر القلق الظاهر في عينيك الجميلتين؟! نعم، أرى داخلك شيئاً من

الخوف من أن تضرب المياه الهائجة الجسر المنخفض، فتخسر رؤية حرّم مـرةً أخرى! حقـاً، أنت عظيم يا سـليمان! ولكنـك لن تقدر علـى خداعي بإخفائك مشاعرك.

إن أفكارك تتشـوش بسـهولةٍ يا سـلطاني، وأنت تعطي العجوز بيري باشـا من الاعتبار ما لا يستحقه، وهو يعلن أن كل الدوشـرمة خونة بأقواله السطحية التي لا تلقى أذناً صاغية والحمد لله. فليدأب على ذلك، ولكنها الحقيقة التي لا مفر منها: إذا كانت هذه الدولة اليـوم أكبر دولةٍ في العالم، فإن ذلك نتيجةٌ طبيعيةٌ تعود إلى تطبيق العثمانيين لنظام الدوشـرمة. ولكن المشكلة الأساسـية تكمن في هذا التركماني الذي يسمى وهيمي أورخون جلبي؛ فعيناه بنظرتهما الشـيطانية، ووجهه الأسـود المشـؤوم مسلّطة عليّ دائمـاً... إذا كان التركمـان يستغلون الرحمة المسـتقرة في قلب سـليمان خان، ويخططون لجمع القوة في أيديهم، فهذا يعني أنهم ينسون ويتناسون كيف وصلت الدولة العثمانية إلى ما هي عليه اليوم. ولكن، سـيأتي الزمن المناسـب، وسـأقتلع فيه تينك العينين اللتين تنظـران إليّ نظـرةً كلها حقدٌ وتحقيـرٌ. ولكـن، المهم الآن سـقوط بلغـراد أولاً، وسـيأتي بلا شـكٍّ يوم الحساب.

ها هو الجيـش بكل ثقلـه وعتـاده يعبر مـن أراضي سـيرم، ويتمركز أمام أسـوار بلغراد، ولا بد أن أعترف هنا بأن الرهبـان الأرثوذوكس الذين استطاع أورخون جلبي ورجاله أن يسـتميلوهم إلى جانبنا سينفعوننا كثيراً. ليس من السـهل أبداً إقنـاع القـوات الصربيـة والبلغارية بتـرك الحرب في وقت لا نتوقعه، ولكـنّ اللعبة المذهبيـة التي في أيدينا ورقـةٌ قويةٌ نملكها، أرجو ألا يفسـد علينـا وهيمي أورخـون جلبي هـذا الأمر ويخلـط الحابل بالنابل. فهزيمة سـليمان خان والنيل من اعتباره ليسـا في صالـح أحدٍ منا، وفتح بلغراد التي ارتد عن أسوارها السـلطان مراد الثاني والسلطان محمد الفاتح سـوف يظهر صورة سـليمان خـان الحقيقيـة في عيـون الأوروبيين

الذين يلقبونه بالحمل بسبب التزامه جانب العدل في سياساته كلها.

* * *

في تلك الليلة، بعد عودتي إلى خيمتي للنوم، دخل خيمتي رجلٌ داكن البشرة من رجال وهيمي أورخون جلبي، وتمتم لي ببضع كلمات من دون أن أرى شفتيه المختفيتين خلف شاربيه العريضين فيما نور شمعدانه الخافت يضيء المكان قليلاً. طلب مني أن أكون في ساعات الصباح الأولى في الطرف الشمالي من معسكر الجيش، حيث الغابة الصغيرة التي تم حرقها من أجل نصب المدافع فيها، ونبهني بشدةٍ إلى ضرورة أن أكون وحدي. ترى، ما الذي يريده مني في تلك اللحظة؟! ترددت في إبلاغ السلطان، فأنا شخصياً لم أنفرد به وحدي مطلقاً، ونظراتنا المتبادلة عن بعد كانت تكشف عن مشاعرنا تجاه بعضنا. ترى، هل جهز لي هذا الرجل فخاً؟! تمددت على فراشي وفي داخلي قلقٌ شديدٌ. استرخيت وأنا أنظر إلى الجمرات الحمراء المشتعلة في المنقل وكأنها عيونٌ حمراء متراقصةٌ، واستسلمت لنوم غير مريح وكئيبٍ كالغيوم السوداء المحملة بالأمطار خارج الخيمة.

عندما استيقظت لم أعرف للوهلة الأولى أين أنا، وكانت ساعتي الشمعية المستقرة قرب رأسي تشير إلى بقاء نصف ساعة على الموعد المتفق عليه. نهضت وأشعلت شمعتي بالجمرات الأخيرة المشتعلة في المنقل ثم خرجت. كان ظهري مغموراً بعرقٍ باردٍ أثاره الهم والقلق، ولم أكن لأتجرأ في هذه الساعة على إزعاج السلطان وإيقاظه، غير أنني لاحظت الضوء المتسلل عبر النوافذ الشفافة للخيمة السلطانية، لا بد أن سليمان خان يصلي، وما يروى عن قيامه بالتعبد في الثلث الأخير من الليل حقيقي إذاً. غير أنني كنت أحب أن أتيقن من ذلك بنفسي.

ظن الحراس الذين يغلبهم النعاس أنني قمت إلى الخلاء لقضاء حاجتي، وتسللت من غير كلام، وتابعت السير بين نقيق الضفادع

وأصـوات الجنادب. وحيـن وصلت إلى الملتقـى بعد برهـةٍ قصيرةٍ، كنت أشـعر بالغثيان، وبتشـنج شـديد يكاد يمزّق بطني وأمعائي. لـم ألاحظ في البدايـة في جنح الليل البهيم أحداً، ولم أسـمع سـوى صفيـر الريح وعواء بنات آوى، ولم أرَ سوى الأرض المحروقة وسواد الأبنوس.

تملكني شـعور بوحشـةٍ حـذرةٍ تعجز الكلمـات عن وصفهـا. كانت فكرة وقوعـي في الفـخ تسـيطر علـيّ. أيمكـن أن يكـون الأمـراء الأتراك بقيادة بيري باشـا قد اتخـذوا قراراً بطي عهد الدوشـرمة إلـى الأبد، وأنهم يسـتخدمون في سـبيل تحقيـق ذلك هـذا المنحـوس الذي يدعـى وهيمي أورخون جلبي؟ فمن سـيقف فـي وجوههم لو قتلـوا كل كبار الدوشـرمة دفعة واحدةً بـدلاً من الإجماع على انقلابٍ سريٍّ؟! انحنيـت قليلاً حيث أقف، وأنا ألتقط أنفاساً عميقة لأتغلب على الغثيان الذي أشعر به.

لامسـت مسـمعيّ همسـاتٌ نقلتهـا ريـحٌ محملـةٌ بأنيـن الأشـجار المحترقة الرطبة، فأدركـت أنني في المكان الصحيح. لكنني كنت أخشـى من الكشـف عن مكاني قبل التيقـن مما يجـري. لذا تقدمت نحـو الأمام، مسـتتراً عن الأنظار بفضل الظلال الداكنـة للمدافع الرابضة بين الأشـجار المنهـارة، والمشـدودة إلـى بعضها بسلاسـل تصـدر صليـلاً خفيفـاً كلما اشتدت الريح.

وأخيراً، رأيتهـم... فهناك رجالٌ كظـلام الليـل... وأصواتهم كصفير الريح... كانـوا يتكلمون في ما بينهـم بحـرارة. وددت أن أقترب منهم كي أسـمع ما يدور بينهـم مـن كلام، ولكنني في تلـك اللحظة سـمعت خلفي صوت غصنٍ ينكسـر، وشـعرت بدمي يتجمّد في عروقي، فاسـتدرت نحو الخلف، ولم أر سـوى وهج نيران مشـاعل المعسـكر؛ وكأنهـا خيوطٌ من ذهبٍ... قد يكون الصوت صادراً عن سـنجاب خائف فقد وكره الموجود في جوف شـجرةٍ حرقـت نهـاراً، أو غـزال شـاردٍ جفـل من هـذه الظلال السـوداء التي تتجول في ظلام الليل... وعندما التفـت مجدداً نحو الظلال

المتهامسة، وجدت نفسي وجهاً لوجهٍ مع أورخون جلبي. كانت رائحة الحامض المنبعثة من فمه تضرب وجهي، فيما عيناه الصغيرتان اللتان تحدقان بي بأجفانهما المتورمة، وجسمه المربوع، وظهره المحدودب قليلاً تجعله يبدو وكأنه جني! رباه، كيف ومتى اقترب مني هكذا من دون أن أشعر؟! هذا الرجل كالأشباح!

سيطرت على نفسي بصعوبةٍ كي لا أصرخ من هول المفاجأة، لكنني لكمته بقبضتي بغضب شديد بين حاجبيه، وأنا أتظاهر بأنني لم أتمالك نفسي. ترنح رأسه من شدة الضربة، لكنه لم يسقط على الأرض، غير أن السائل الأسود الذي سال من الجرح بفعل اللكمة كان يبدو وكأنه ينهمر من عروق كائنٍ من خارج كوكبنا. ارتعشت مجدداً، وكان ذلك شيئاً لا يصدق؛ إذ لم يصدر عن أورخون جلبي أيّ أنين، ناهيك عن عدم سقوطه، لقد كنت في سنّي تلك في أقوى مراحل عمري، لكنْ لا بد أنه كان مدرباً ومعتاداً على مثل هذه المواقف. وفجأةً، تذكرت أن هذا التركي المرعب هو في الأساس من رجال سليم خان، فسرت قشعريرةٌ من رأسي وحتى أخمص قدمي حين خطر لي ذلك. نعم، إنه هو الذي تلقى اللكمة، ولكنني أنا من أوشك على التبول من شدة الفزع.

«آه! أهذا أنت يا أورخون جلبي؟!». قلت ذلك بصوتٍ لم أكن أعرف أنه صوتي. كان ما سمعته صوتاً مرتعداً مبحوحاً. في تلك اللحظة، ازداد شعوري بالكراهية تجاه هذا الرجل. قال: «نعم، هذا أنا يا إبراهيم آغا! اهدأ ولا تخش شيئاً». وضم منديلاً كبيراً لم يتضح لونه أخرجه من تحت حزامه، ثم وضعه على جبينه. فهمهمت قائلاً: «ضع حداً لحركاتك حولي، ولا تتبعني كظلي يا رجل! كفاك، وإلاّ ستكون عاقبتك وخيمةً حقاً. هل جرحت؟».

- أنا بخير يا آغا، سامحني. كان ذلك خطئي، فلا عليك. لا يمكن للكمة واحدة أن تطيح بنا، ثم إنني لا أتجسس عليك، ولو أردت ذلك

فتأكد بأن روحك لن تشعر بالأمر. على كل حال، هيا تعال، هناك بعض الأشخاص ينتظرونك...

لحقت به، وأنا أدندن في سرّي. وصلنا إلى حشدٍ قريبٍ بعد عبورنا خندقاً صغيراً يغمره الماء. وعندما لمحت حضرة شيخ الإسلام علي أفندي الزنبيللي تحت الأضواء المنبعثة من مقر القيادة، كدت أتجمد حيرةً. فما شأن هذا الرجل المبارك هنا؟! هل كان يعلم هو أيضاً الهوية الحقيقية لقائد جيش غلمان القصر، وقائد القوات الخاصة، أورخون جلبي؟ في أثناء ذلك، لفت انتباهي الوزير الثاني مصطفى باشا. كان وجهه المدور الأبيض جميلاً تحت أنوار الليل، وكذلك لحيته الكثّة. غير أن شعوراً ساورني بعدم الاعتماد عليه كثيراً. فهذا الباشا رجلٌ طيب القلب، وأمثاله من الرجال ولو استطاعوا لجم ألسنتهم، فإنهم لا يرتاحون للأسرار. لم يدهشني وجود بيري محمد باشا هناك أيضاً، كنت أستطيع الإحساس بنظراته المستهينة الثاقبة تتركز علي في تلك الليلة المظلمة. ثم ظهر فجأةً خيال سليمان خان بغموضه وهيبته وكأنه السماء السوداء التي تظللنا، فكدت أبتلع لساني الصغير من شدة الدهشة، وجثوت فوراً على ركبتي، وقبّلت طرف ردائه.

كان هناك شخصٌ آخر إلى جانب مولاي السلطان لا أعرفه، وحين رفعت رأسي، لاحظت الزنار الذي يحيط بخصر الرجل. وسرعان ما رأيت الصليب المتدلي من عنقه، ولم أفهم سر لون القبعة التي كان يعتمرها. كان واضحاً أنه قسٌّ. كانت لحيته البيضاء تصل إلى منتصف صدره، أمّا شارباه الطويلان فيغزوان فمه.

بادرني سليمان خان قائلاً: «إبراهيم، أنت ستخاطب باسمي جنود الألغام، وقائد الفلاحين الذين سيغادرون بعد قليل، فليستعدوا لأداء صلاة الفجر، وليبدأوا بالحفر قبالة برج الدفاع الواقع إلى يسار مدخل المدينة مباشرة. صديقنا القس هذا، واسمه محفوظ، يخبرنا بأن أساس هذا البرج

الدائري قد تضرر كثيراً بسبب حروبٍ متعددةٍ، وحركات عصيانٍ داخليٍّ. ومهما بدا البرج عالياً، فإن ارتفاع منسوب المياه الجوفية أحياناً أدى إلى انهيارات في طبقة الشست الضعيفة التي يقوم عليها أساس البرج. ما يجب أن تفهمه هو أن هناك خطأ في الفحص الهندسيّ للبرج، وإن ركزنا على هذه النقطة فإن انهياره لن يكلفنا الكثير. أما الجنود الصرب والبلغار المتمركزون على الأسوار الخارجية فإنهم سيلقون أسلحتهم في لحظةٍ حاميةٍ من الحرب، وسيتجهون إلى القلعة الداخلية. وإذا تمكن هؤلاء من إغلاق الأبواب قبل القوات المجرية، فإن القوات المجرية ستبقى بين نارين ولن يكون أمامها إلا خيار الاستسلام. وإن جرت الأمور على نحو مختلف، فإن عديدهم المتناقص سيهز معنوياتهم ويحطمها».

إن كان سليمان خان محقاً في ما قاله، فهذا يعني أن انتصاراً كبيراً بات قريباً منا. انحنيت قليلاً وأنا أقول:

- أمركم يا مولاي السلطان.

لقد كنا على مفترق طرقٍ هامٍ، فسليمان خان الذي يعرف في البلاد بالقانوني نظراً لحرصه على العدل سيستحق لقب العظيم بإنجازه هذا. ولكن، في حال واجهنا أي فشلٍ أو غدرٍ أو خيانةٍ فربما سيدفننا البلغار جميعاً أمام هذه الأسوار الصلبة. لكنني على ثقةٍ بأن هذا السلطان الشاب العظيم بمظهره ووقفته سيحقق ما لم يحققه أجداده الذين باتت أسماؤهم تذكر على كل لسانٍ في العالم.

تحدث القس بلغته الصربية مع مصطفى باشا (وهو من أتراك البوسنة) ليترجم هذا الأخير للسلطان وهو يقول: «لن يترك المجر الكاثوليك أحداً منا على قيد الحياة إذا فشل هذا الحصار. وإذا طال الحصار، وانسحب الجيش العثماني، فإن على جلالة السلطان ألاّ ينسانا وفاءً لنا - كما فعل جده السلطان الفاتح محمد خان - وأن يفعل كلّ ما هو ممكن حتى لا يتركنا هنا، ويأخذنا معه».

- عليهم ألاّ يقلقوا. إننا لم ننس الود الـذي أبداه الأرثوذكس تجاهنا في أثنـاء حصار جـدي السـلطان الفاتح محمد خـان. إنهم يبـدون تجاهنا المشـاعر نفسـها الآن أيضاً، وسـأقابل صداقتهم هذه بمثلها. ومهما كانت نتيجة هذا الحصار فسـأتصرف برحمةٍ أكثر من جدي الفاتح، وسـأعطيهم أمـلاكاً وأراضـي يعيشـون عليها فـي الأسـتانة، ولن أغـدر بمن مـدّوا لي يد العون، ولـن أتخلى عنهم فـي منتصف الطريـق. عليهـم ألاّ يخافوا، أو يتألموا، أو ييأسوا. والفتح متيسّرٌ بإذن الله».

لم يكد جلالة السـلطان ينتهي من كلامـه، ويفرغ مصطفى باشـا من ترجمتـه إلى القـس حتى رسـم القس رمـز النصـارى الديني أمـام صدره، وبابتسامةٍ عريضةٍ باديةٍ على وجهه جثا على ركبتيه.

كانت عينـاي تتأملان وجه السـلطان الجميـل، وهو ينظـر إلى مدينة الخيام، وفي لهجةٍ حادةٍ محذرةٍ قال:

- لكن، إن تراجعوا عن وعودهم، فـإن ذلك يعني أنهم تجرؤوا على ما هو أقسى من غضب الكاثوليك.

تململ القـس في مكانـه خائفاً حيـن سـمع التحذيـر، وعندها هطل المطر غزيراً، فاسـتأذنت مولاي السـلطان، وعدت بسـرعةٍ إلى مقر القيادة لألتقي قائد جيش الفلاحين.

II

عند إطلالـة الصباح الأولـى، بدأت قذائـف المدافع الشـاهية[1] تدك الأسوار، وقذائف الهاون المنطلقة من السـفن الحربية التي تحمل الأعلام الملونة في نهر طونا لا تترك متنفسـاً للمدينة. كان لساني عاجزاً عن التفوّه ببنت شـفةٍ أمـام هـذا الهدم الـذي يزلـزل الأرض تحـت أقدامنـا. وكانت معدتي تشـتعل كقطعة جمرٍ بحجم قبضة يد، واغتسل جسـمي بعرقٍ كريه الرائحة. كانت السـهام التي ترمى تشـكل غيوماً شـيطانيةً تتحـرك في خطٍ منحنٍ وتسقط في الطرفين. ولا أذكر شيئاً آلمني وأزعجني أكثر من صوت السهام حين تصطدم بأسطح المدرعات القديمة التي يعلوها الغبار، فيتردد الصدى داخـل رأسـي. هـذا الصـوت كان يذكرني بصـوت أمطـار الربيع الغزيـرة التي كانت تضـرب زجاج غرفتي تحـت تأثير الريـاح العاصفة في بيتنا في براغ، وكنـت أحاول عبثاً أن أنسـى هذه الأصـوات. أتعلمون؟ إن أشـد ما يؤلمني هو أن أغلف تلك الذكريات الرائعة بهـذه المناظر الدموية المرعبة.

لا يخفى على أحد حسبما أعتقد إعجاب كل من مصلح الدين مركز أفندي الصديق المقرب للسلطان، وسـليمان خان، وأخيه بالرضاعة يحيى أفندي بإبراهيم كل شـاني التبريزي. وها هو الشـاعر الشـيرازي المشـهور عارفـي جلبـي - ابـن الخطـاط المشـهور كاتـب درويـش جلبـي، صهـر إبراهيـم كل شـاني وتلميذه - جالـسٌ غير بعيـد عني، وبيده ريشـته يكتب الشـاهنامة. يعمل هذا الرجل المشـهور بحبـه للعمل والنظام وبشـخصيته متعددة المواهب بهمةٍ ودأبٍ في سـبيل إنجاز كتابه «شـاهنامة آل عثمان».

(1) نوع من المدافع، ولا علاقة له بالشاه الصفوي.

كان يكتب وكأن الحروب تشحذ عقله وريشته فيعملان بشكل أفضل منه في حالات السلم. يجب أن يخطّ ويوثق فتوحات سلطاننا في توصيف يسمو على رسوم الفنانين من أمثال مطرقجي نصوح ونيكاري، لتكتسب شاهنامته بعض نفحات الخلود.

كان هناك انسجامٌ كبيرٌ بين قائد الميسرة الوزير الثاني مصطفى باشا وقائد الميمنة بيري محمد باشا، وكان قائد القوات الرئيسة أحمد باشا الأرناؤوطي أمير أمراء روم إيلي وإن تعثر أحياناً يقاتل بقواته في حمية وحماسة منقطعتي النظير. كان واضحاً من ملامح النصر على وجهه أنه يعمل على التمتع بالفرصة التي منحه إياها وجوده على رأس وحداتٍ أكبر من تلك التي يتولاها بيري باشا. لفت انتباهي وانتباه السلطان وجود ثلاث ريش نبال مغروزة بين صفيحات درعه الحديدية. كانت إحداها فوق أضلاعه اليمنى تماماً، وكان يبدو أنه يتنفس بصعوبةٍ. لم يسأله السلطان عن حاله عندما كان يأتي لتقديم التقارير، ولا بد أن أحمد باشا كان يتألم كثيراً.

منذ الأيام الأولى، كنت أحس أن هذا الرجل الطموح يرغب في الحلول مكان بيري محمد باشا. كان ذلك واضحاً في ملامحه وتصرفاته، ولا يتغاضى عنه إلا الأعمى. وأحاديثه الجريئة والقاسية في حضرة السلطان، وإن كانت قد أزعجت بيري باشا العجوز، إلاّ أنها لم تكن كافيةً لهزّ مكانته. وإن تصرفت بحكمةٍ، فسأتمكن من الاستفادة من هذا الموقف لمصلحتي بعد الفتح.

* * *

على الرغم من هذه المصيبة التي ألمّت بهم، وعلى الرغم من ضعف كفاءاتهم واستعداداتهم، فإن بلغراد كانت مستمرة في مقاومتها البطولية. كان قائد الحامية العسكرية جويلا كيبس رجلاً حكيماً ذا درايةٍ، يستطيع استثمار الموارد المتوفرة لديه بشكل جيد في أثناء القتال، ويتمكن

من السيطرة على اليأس الذي ينتشر في صفوف جنوده. وعلى الرغم من ذلك، لم تكن ملامح الهزيمة التي تظهر بين الحين والحين على الوحدات الدفاعية تخفى على أحد؛ خاصةً تلك المتمركزة على الأسوار البرية. فكان كييس يعترض طريق الجنود الفارين كحيوانات الغابة من النيران التي تزكيها الرياح، ويقنعهم بمواقفه الفذة على العودة إلى مواقعهم. وإن كان ينجح في إعادة الكثيرين منهم، إلاّ أنه كان يفشل في إقناع عددٍ آخر غير قليلٍ، فكانوا أهدافاً لرماة النبال الذين كانوا لهم بالمرصاد.

عليّ الاعتراف بأن جنود الإنكشارية كانوا أبطالاً ومحاربين بجدارةٍ عند خضوعهم للأوامر والتزامهم بها. إن الهجوم الذي يخلب العقول الذي شنّه أولئك الشبان في مقدمة الجيش، وهم متدثرون بجلود الحيوانات، ومن دون دروعٍ، ورؤوسهم حليقةٌ كان يهز معنويات العدو الذي يواجه صعوباتٍ في محاربته جيش الفلاحين الأكثر تنظيماً. لقد كان جنود اليني تشري ينزلون بالعدو ضرباتٍ تجعل المدافعين عن بلغراد المساكين يحتاجون إلى بطولات قادتهم لتثير فيهم الحمية والشجاعة.

كنت مع سليمان خان في خيمة فرقة المهتران المتربعة على التلال المنخفضة المقابلة للمدينة. وكان السلاحدار آغا سليمان أفندي الذي يرتدي كامل دروعه غاية في الحذر والانتباه، فيما حيدر آغا الباب يتابع مجريات الحرب بوجهٍ حجريٍّ لا يعكس الأجواء السائدة. أما وهيمي أورخون جلبي، فكان بوجهه القاتم على رأس القوات الخاصة، ولم يكن يتردد في إصدار التعليمات لرجاله المرعبين. في هذه الأيام الصعبة، كان شيخ الإسلام علي أفندي الزنبيللي وسليمان خان أكبر مصدرٍ للقوة المعنوية للجنود؛ فمعرفة الجنود بوجود السلطان وشيخ الإسلام إلى جانبهم في المعركة كانت تدفعهم إلى الانضباط وهم يندفعون خلف المغانم.

كان سليمان خان يجلس على عرشه، ويتحلّق حوله كالمعتاد علماء

أهل السنة، وعلى رأسهم شيخ الإسلام علي أفندي الزنبيللي الذي يطلب منهم الدعاء باستمرار. يبدو لي أحياناً أن رجلاً حساساً كهذا الرجل لا يمكن أن يكون فاتحاً. وكنت أعتقد آنذاك أن الفاتح يبلغ مجده عبر الخوض بين جبالٍ من الجماجم. فبالله عليكم، هل يمكن أن يهتم أحدٌ بهلاك عدة ملايين من سكان العالم الذين يبلغ عددهم خمسمئة مليون كما يقول العلماء؟! ترى، كم كان الإسكندر الكبير ويوليوس قيصر وصون تزو وهنيبعل وجنكيزخان يهتمون بحياة الآخرين؟! وكم كان محمد الثاني، والسلطان ياووز سليم يهتمان بذلك؟! هل كان بكاؤهم على رؤوسٍ قُطعت من أجل سلامة الدولة، وبالتالي سلامة الأمة ممكناً؟! وهناك أمرٌ آخر أعرفه أيضاً، وهو أن كل لعبةٍ لديها قواعدها، وأي تردّدٍ يبديه الإنسان وهو يسير نحو أهدافه الفردية أو الجماعية، يرتد سلباً على المجتمع كله.

من أجل هذا، أعتقد أنه كان لا بد من استمرار عداء الأرثوذوكس ضد الإسلام، ليتمكنوا من الحفاظ على بنية مجتمعهم القائمة على هرطقاتهم. ولولا هذا العداء لما كان للدولة العثمانية أن تحافظ على بنيتها الديناميكية التي تحفظها في الوجود، بل كان مصيرها أن تغرق في تعصب أعمى يسري في جميع طبقات المجتمع.

هذه الأفكار التي كان من الممكن التكلم عنها بسهولةٍ في يوم من الأيام، لم يعد الحديث عنها بتلك السهولة منذ عهد سليم خان. كان سليمان خان ينصت إلى آرائي وأنا أتمتم بها وأحاول التعبير عنها بين الحين والحين، ورغم ذلك كان يعمل وفقاً للإرث الفكري الذي ورثه عن أبيه؛ فقد كان يبذل ما في وسعه لتثبيت المذهب السني في بلاده، علماً بأن التركمان كانوا ميالين دائماً للتشيع، ولذلك كانوا قلقين كثيراً من سيطرة المذهب السني المتزايدة؛ لأن بنيتهم العقائدية القريبة من مبادئهم الشامانية القديمة أقرب إلى التشيع. والحياة الزراعية وما تستلزمها

مـن واجباتٍ كانـت بالنسبة لهـم نوعاً مـن الحبـس والأغلال التـي تلقى حول أعناقهم وأرجلهم، فقـد كانوا يفضلون حياة التنقـل والترحال وتربية المواشي على الزراعة. ولو اسـتطعت توسعة سـلطتي في إدارة الدولة مع الزمن، فسـأبدأ عملي بجعـل حياة أولئـك المحيطيـن بالسـلطان، والذين يحضون على سلوك هذا الاتجاه الإسلامي المتزمت أكثر مشقةً.

الثلاثاء 6 آب 1521م

صرخ سـليمان خان وهو يقول مشـيراً إلى قائد القلعة جويلا كيبس: «سـيتأخر الفتح يوماً تلـو الآخر طالمـا بقي هـذا الرجل على قيـد الحياة. ويقلقني أن يصـل ذلك الجيش الصليبـي التابع لشـارلكان، والذي انطلق من أوروبا لنجدة المجر. آهٍ من لاجوس هـذا... لاجوس عبء ثقيل على الدولة العثمانية يكبـر يوماً بعد يومٍ... ولكن، لا بـد أن يأتي يومٌ أصفي فيه حسـاباتنا معه بنفسـي...». كان السـلطان لا يـزال مرتدياً درعـه، ولـم يكن يتميز بطوله عن جند فرقته الخاصة الطوال.

تكلم بيري محمد باشا بحياء:

– إن إنشاء الأنفاق أوشك على الاكتمال يا مولاي السلطان.

– تقـول إنها أوشـكت علـى الاكتمـال! ولكـن الأنفاق الثلاثـة التي فتحتموهـا عبـر الخط نفسـه قد خسـفت، وهلك فيهـا الكثير مـن جنودي الشجعان أيها الباشا.

– مولاي السلطان، كما تعلمون، أدت هطولات الأمطار الغزيرة إلى تضخم كمية المياه الجوفية بشكل ملموس و...

زمجر سـليمان خان مذكـراً بأبيه: «دعك مـن هذا يا بيري باشـا، فأنا أعلم هذا طبعاً، وما أحتاج إليه اليوم هو الحل وليس الاعتذار...».

وقبل أن أفتح فمـي، انبرى أحمد باشـا الأرناؤوطي يقول بحماسـة: «مولاي السلطان، إن تحريك قواتنا نحو الأجنحة الأخرى سيكون مناسباً؛

إذ سيشتت انتباه أعدائنا. وفي تلك الأثناء، علينا أن نسرّع العمل في حفر الأنفاق الأخرى في الأماكن التي لن يتوقعوها. إنهم ينجحون في تحديد مواقع الأنفاق، إلاّ أنهم قد لا يعلمون ما نعلمه الآن عن نقاط ضعفهم؛ لذلك علينا أن نخطو خطواتٍ مشتتة...».

- قلبك طيبٌ يا أحمد باشا، لكنك مثل قادتي الآخرين. إن مدافعاً خبيراً مثل كيبس لن يدوس على خشبٍ طريٍّ. ومهما بذلنا من جهد للفت انتباهه، فلن يتهاون في الدفاع عن النقاط الضعيفة لديه.

- مولاي السلطان، لو سمحتم لي، فلديّ اقتراح أودّ عرضه عليكم.

نظر جميع الباشاوات، وكبار القادة إلى هذا الرجل الذي لا يملك أي خبرةٍ عسكريةٍ، لكنه يعمل مستشاراً للسلطان وكأنه باشا... نعم، نظروا إليّ نظرة استياءٍ لا تخلو من السخرية والاستهزاء؛ عدا أورخون جلبي بنظراته الجدية الحادة.

«أرى أن نهاجم بكل قوتنا الموقع الذي يحتمل أن العدو يعلم أنّه يواجه ضعفاً فيه. وليسجل التاريخ أننا خضنا إحدى أهمّ الحروب... فمن السذاجة بمكان أن نتوقع أن المجريين يظنون أننا غافلون عن نقاط ضعفهم. والتركيز عليها سيؤثر بشكل سلبي في معنوياتهم؛ إذ سيدركون أن أسرارهم قد تمّ إفشاؤها، وسوف يدفعهم ذلك إلى الإحساس بأنهم أكثر عجزاً مما هم عليه الآن».

نهض سليمان خان عن عرشه واقترب مني، فنهض الجميع أيضاً، وأمام جميع رجال الدولة والقادة قبّل جبيني: «إنها الخطة التي أردت سماعها، وإنها الجرأة التي أردت رؤيتها». قال ذلك وفي عينيه حبورٌ. قبل أركان مجلس الحرب هذه الخطة باستياءٍ ومن دون اعتراض. لم أنس قطّ تلك النظرات المهزومة التي رأيتها؛ خاصةً في عيني بيري باشا.

كدت أطير من شدة الفرح والسعادة والكبرياء، وتقبلت تهاني مولانا السلطان بانحناءةٍ من عنقي وابتسامةٍ خفيفةٍ. كنت أخطو خطواتٍ

صحيحةً، ولم يكن لديّ بعد ذلك ما أفعله سوى الانتظار.

اتجه سليمان خان إلى وهيمي أورخون جلبي قائلاً: «غداً، إن لم يتخل من يزعمون أنهم حلفاؤنا من البلغار والصرب عن مواقعهم كما وعدونا، فسيكون بانتظارهم بعد الفتح ما لا يسرّهم؛ فقد حذّرتهم من قبل في هذا الخصوص».

فأجاب الرجل الغامض وهو يلوي عنقه من شدة الضجر: «ربما استطاع المجريون الذين يتخوفون مما قد يحيق بهم - وفقاً لما تعلموه من دروس التاريخ - أن يهددوا الأرثوذوكس الذين يرون أن الحصار يطول، ويقولوا لهم: إننا لن نكون في موقع مساومةٍ مهما كلّف الأمر، وإننا أمام أي خيانةٍ تبدو منكم سندمركم. وطبيعي أن يتغيّر موقف السكان في ظل هذا الموقف. إن عدة هجماتٍ ناجحة سوف تكفي لإقناع أولئك بالانسحاب من الحرب».

مال سليمان خان إلى السلاحدار آغا الذي كان يمسك بسيفه وهو يقول: «بما أنه ليس هناك خلاف...»، وبدأ يهز سيفه البارد الذي استلّه من غمده في الفضاء قبل أن يتابع: «ففي هذه الحال، سنشن غداً صباحاً حملةً على البرج الغربي بكل قوتنا». ثم التفت إلى أورخون جلبي وغمزه خلسةً، وهز أورخون جلبي رأسه وفق الأصول. وكان ذلك يعني أنه سيلتقيه بعد المجلس.

لم يكد المجلس ينفض حتى بادر سليمان خان أورخون جلبي وهو يمسكه ويهزه من كتفيه قائلاً: «هذه الليلة، عليك أن تفعل أي شيء للقضاء على كيبس. وإن استشهدت فسأقيم لك ضريحاً عظيماً، وسأكرم عائلتك بالعطايا يا أورخون. وإن جئتني برأس هذا الرجل فاطلب مني ما تشاء».

«لا أطلب سوى دعائك يا مولاي».

«فلترني ما ستفعله يا أورخون!».

III

لا أدري كيف فعل ذلك وكيف نجح فيه، غير أنّه دخل فسطاط السلطان قبل أذان الفجر، وبيده كيسٌ من جلد الجمل، يوجد في داخله رأس المسكين جويلا كيس! لقد دخل حاملاً معه ضباب الليل، ورائحة الدخان، ورائحة أخرى... رائحة كريهة تثير الإغماء والغثيان، رائحة تذكر برائحة الدم الجاف... أحسست لحظتها بارتخاء مثانتي، وتسارعت نبضات قلبي فأحسست بأنه سيتوقف. نظرت إلى هذا الرجل المكتنز المخيف الذي يقف أمامي، وفمي فاغرٌ من هول المفاجأة. كان وجهه يبدو شاحباً، فيما كانت ملابسه نظيفةً. أخرج الموسى من تحت حزامه، وقبّله ثم وضعه على جبينه، وبعد ذلك تركه عند قدمي سليمان خان. ثم وضع الرأس داخل الكيس، وأعطاه إلى غلامٍ كان يقف وراءه، فبدا على وجه سليمان خان مزيج من الحزن والارتياح وهو يقول: «كان رجلاً جباراً، ورجلاً جيداً ذهب ضحية ملكه».

تحدثتُ بأريحيةٍ ترد على موقف أورخون جلبي المليء بالتوقعات، وتذكره من أنا: «عليك أن تعلق ذلك الرأس على رمحٍ، وتضعه على باب القلعة حالاً يا أورخون آغا، حتى يكون عبرةً للعدو والصديق عند طلوع الشمس، ولنضع حداً لهذه المقاومة غير المجدية».

نظر إليّ أورخون جلبي وفي عينيه حقده الدفين المخيف، وتصرّف وكأنه لم يسمع ما قلته، وكأنني لم أكن موجوداً هناك. كان ينتظر أمراً من سليمان خان، فأومأ سليمان خان قليلاً برأسه مبتسماً ابتسامةً خفيفةً.

وبعد أن خرج أورخون جلبي، التفت إليّ سليمان خان قائلاً: «والآن، إن أورخون جلبي يثير في نفسي قشعريرة الخوف. ومن هذا

الموقف، لا يصعب عليّ أبداً فهم أي رجلٍ كان أبي فعلاً!».

ابتسمت قائلاً: «كان السلطان ياووز سليم خان جندياً عظيماً، ورجل دولةٍ عظيماً. ومثل كلاب الصيد هؤلاء الذين دربهم؛ اصطاد الكثير أيضاً!».

لم يجب سليمان خان. وربما بسبب صمته، بدأت أفكّر في سرّي: «ليس هذا الضبع إلا واحداً من أصابع سليم خان ذي القبضة الحديدية. وصاحب القبضة الحقيقي يرقد الآن تحت الثرى، لكنه مستمرٌ في ضرباته القاتلة... إنه الشخصية التي لا تتنازل، والذي جعل هذه الدولة تبلغ ما بلغته الآن من قوة ومجد. وها قد سلّمك إياها يا سليمان... ولكنها لم تمنحك السعادة بعد... فأنت ما زلت تفكر في أنه لم يمت، وأنت محقٌّ في هذا التفكير. نعم يا مولاي السلطان، والدك حيٌّ يعيش برجاله... إنه لم يمت قطّ... فبيري باشا يزداد جسمه وزناً، ووهيمي أورخون جلبي لا يزال يلوح بسيفه... وكلما عاش رجاله لفترة أطول فإن سلطنتنا... أي سلطنتك أنت... نعم سلطنتك أنت، لا لن تكون سلطنتك أنت... نعم، سلطنتك أنت لن تكون سلطنتك أصلاً...».

لِمَ كنت أفكر هكذا؟ وأي ثعلبٍ كان يتجول في ظلمات ذهني؟ ثم ميزت فجأةً، نعم فجأةً وفي تلك اللحظة، أن حياتي كلها مضت في غسقٍ من الظلام. والأغرب من كل ذلك، أنني كنت أحب هذا الجو... نعم، إنني رجل هذه الغيوم الياقوتية الداكنة، والأراضي الجامدة بألوانها المعدنية.

* * *

وفي اليوم التالي، نجح جنود الألغام في تفجير عبوات البارود التي تم وضعها في الفجوات.التي تمّ حفرها في أعماق الأسوار. وتحت تأثير نيران المدافع الثقيلة التي بدأت تقذف حممها في ساعات الصباح الباكر، انهار البرج الغربي مثيراً صوتاً قويًا وغباراً كثيراً. وبدأت وحداتنا بالتسلل

في سرعة هائلةٍ عبر الثغرة التي فتحت، وصيحاتها تصل إلى الفضاء. لكن المجريين المدافعين لم يفاجئهم انهيار البرج، وكادت وحداتهم التي تسارعت نحو الثغرة وسهام رماة نبالهم الكثيفة أن توقف زحف جنودنا، لولا أن الصرب والبلغاريين كانوا عند وعدهم لنا، ونفّذوا الخطة المتفق عليها. فقد انهالوا بسهامهم على المجريين، وخربوا دفاعاتهم، وتركوا خطوط دفاعهم متّحدين مع جنودنا، ومتحرّكين سريعاً من أجل الاستيلاء على القلعة من الداخل. كان المجريون يتوقعون مثل هذه الإهانة، وبالفعل كانوا قد هيأوا خمسمئة فارسٍ لتأديبهم، لكنهم وجدوا صعوبةً كبيرةً في محاربة عدوين، وصاروا في موقفٍ صعبٍ؛ لا سيما بعد موت قائدهم على حين غرةٍ، فلم يجدوا بداً من الفرار والانسحاب إلى داخل القلعة وهم يقاتلون.

نحن الآن على مشارف القلعة الحصينة مع جنودنا وحلفائنا من الصرب والبلغار. لكن هذه القوات وقفت عاجزة أمام الأبواب الحديدية الثقيلة المدعمة بأعمدة وأوتاد حديدية إضافية، والتي قام على حراستها خليط من الجنود الصرب والبلغار والمجريين تحت تهديد الفرسان المجريين. ونتيجة لهذا التطور، تراجع الحلفاء الصرب والبلغار منتشرين في شوارع المدينة التي شعر سكانها بالدهشة الشديدة، وصاروا يتمترسون خلف نقاط دفاعية شيدوها على عجلة خوفاً من غضب المجريين وردّ فعلهم. وفي هذه الأثناء، سقطت آخر وحدة مقاومةٍ على الأسوار الخارجية لمدينة بلغراد، وتدفق عشرات الآلاف من الجنود العثمانيين مجتاحين شوارع المدينة الآهلة. واتجه الفرسان المحاربون من فرسان بولو وقسطموني ونيغ بولو نحو القلعة، وهم يهتفون بصوت واحد يثير الرعب في القلوب، ويتخطّون كالسيل الهادر كل الحواجز!

انهارت نقاط المقاومة المجرية كلها، وانسحب المجريون إلى الداخل وهم يقاتلون من شارع إلى شارع لعدة ساعاتٍ، تحت ضربات

الجنود الفلاحين ومشـاركة الحلفاء الصـرب والبلغار. وسـاد الجمود في خطـوط التماس عند أسـوار القلعـة الداخليـة الحصينة التي ربما تسـتطيع الصمود لبعض الوقت. فأصدر سـليمان خان أوامره بقطع الاتصالات بين القلعة والمدينة كلها، والتريث حقناً لدماء المزيد من جنوده.

إذا أخذنا بعين الاعتبار ما قاله وهيمي أورخـون جلبي، فإن الكونت دسودزاك الذي يقود فرق المقاومة داخل القلعة يعرف مسارب سريةً تمتد من مخازن القلعـة إلى خارجهـا، وعبرها يسـتطيع المجريون التسـلل إلى الخارج عن طريق شـبكةٍ مـن القنوات الخفيـة. وبناءً على ذلـك، انطلقت الموجة الثانيـة للهجمات مـرةً أخـرى بأمر من سـليمان خان، وتم تسـيير دورياتٍ فـي المحيط الخارجي، ووضعـت منافذ الخـروج المحتملة كلها تحت المراقبـة، ولـم يكـد يمضي وقـتٌ طويلٌ حتـى اتضح أن المسـارب الممتدة تحت أسوار القلعة كانت ضرباً من الخيال.

وعلـى الرغـم مـن إبـلاغ المدافعيـن عـن القلعـة باسـتمرار أنهـم سـيعاملون برحمةٍ، وسـيكونون أحراراً في التوجـه إلى أي مـكانٍ يرغبون فيه إن ألقوا السلاح وسـلموا المدينة، فإن الجواب الذي كانوا يقولونه هو نفسـه دائماً: «نفضل الموت محاربين على الاستسـلام». استبشـر سليمان خان وبشـر الجنـود بأن ثـروة بلغـراد الحقيقيـة في القلعـة الداخليـة، وأن الغنائم كلها باستثناء أبنية المدينة وأسـوارها ستكون للجنود، فشنّ الجيش على الأسوار بحماسة متجددة حملةً شرسةً غيّرت مسار المعركة تماماً.

في هـذه الأثناء، خطرت لـي فكرةٌ مرعبةٌ لـم أنتبه لأبعادها السـلبية. كنت أقترح أن يتمّ إقنـاع المرضى الموبوئين ومرضـى الجذام الموجودين تحت الحجـر الصحي فـي المستشـفيات بالنزول فـي إحـدى الليالي إلى القلعة الداخلية سـراً مقابل مبالغ ضخمةٍ تدفع إلـى ذويهم، وكنت أرى أن المجريين لن يجرؤوا على التفكيـر بالتصدي لوباءٍ يبدأ فـي هذا الحر، إلا أن الوبـاء إن انتشـر فسـيصعب التخلص منـه. وعندها، إن استسـلم العدو

بسبب المرض، فسيكون علينا إغلاق أبواب القلعة من الخارج هذه المرة، وإحراق القلعة الداخلية بمن فيها.

لا زلت أذكر أن سليمان خان كان يجول في المكان، وفي إحدى يديه كأسٌ بلورية مليئة بالثلج وعصير الكرز. وحين طرحت فكرتي، رمقني بنظرةٍ حادةٍ تناسب فكرتي التي لا ترحم، وصمت برهةً من دون أن يتكلم، وقد لمعت في أعماق عينيه الشهلاوين وعلى وجهه المتعرق قليلاً أشعة غريبة قبل أن تغيب. ووجد بيري باشا في الموقف فرصةً لا يمكن تفويتها:

- ألا تملك بقية وجدانٍ أيها الرجل؟!

- بلى. ولكن لاجوس لن يشفق على من يسلّمون قلعةً تحمل أهميةً تاريخيةً كبلغراد. وقد فتحت قلاعٌ كثيرةٌ بأساليب مشابهة على يد الإسكندر ويوليوس قيصر!

في تلك اللحظة، زمجر سليمان خان وهو يقول: «لكنني سليمان!». تمنيت حينها أن تنشق الأرض وتبتلعني. ثم أضاف سليمان: «سأعتبر أن هذا الاقتراح لم يقدم مطلقاً». وأنهى الموضوع. كنت في موقف لا أحسد عليه، وقد قدّمت ورقة رابحة لمن يكنون لي الكراهية.

تنحنح بيري باشا وأضاف:

- من الأفضل الانتظار بصبرٍ يا مولاي السلطان! فليس أمام شجعان إقليم الهنغار هؤلاء غير الاستسلام، وليس هناك ملاذٌ آخر.

«سنقوم بما هو أفضل من ذلك». قال سليمان خان ذلك ثم التفت إليّ مضيفاً: «عليك أن تجد خمسين ممن تحجرت قلوبهم مثلك يا إبراهيم. سنضاعف الهجوم غداً ليلاً على موقعٍ مختلفٍ غير متوقعٍ، وسنقوم بإنزال الرجال على الأبراج بواسطة الرافعات. فأنا لم أعد أتحمل المزيد من الفشل، وليأخذ كل واحد حذره، فهذه المدينة باتت تخنقني، ولا أريد أن أحارب فيها أكثر، أو أماطل أمامها أكثر».

حين غادر بيري باشا الفسطاط لم يلتفت إلي قطّ، ولم يقل شيئاً، بل كان يبتسم لأنه يعتقد أنه تعادل معي هذه المرة.

وفي الساعات الأخيرة من الليلة التالية، بدأت فرقة المهتران تعزف فجأةً لحن الهجوم، فقام على الأقل طابوران من الجنود الفلاحين بالهجوم على القسم الثالث الذي نسميه في الخرائط القطاع الشرقي، فيما يسميه سليمان خان عتبة جهنم. وخلال ذلك، سحبنا الرافعات المتحركة بمساعدة الفيلة إلى أقصى الجناح الغربي من الأسوار، وانتقل إلى المكان خمسون رجلاً قويًّا لارتقاء الأبراج في صمتٍ. وعلى الرغم من أنهم كانوا يرتدون لباس المشاة المجريين ودروعهم، فقد استطاع المجريون المدافعون عن الأبراج تمييزهم، ورأوا أنفسهم وجهاً لوجهٍ أمام هؤلاء المحاربين الشجعان، فسارعوا إلى رفع الرايات البيضاء تباعاً على ست نقاط، ظناً منهم أنهم قد فقدوا السيطرة على الأبراج تماماً. وعقب هذا الانهيار المفاجئ للدفاعات، أعلن الفرسان المجريون عن رغبتهم في التباحث حول شروط وقف إطلاق النار.

وعلى الرغم من ذلك، استغرق قدوم هيئة المبعوثين التي ستباشر بالمفاوضات أربعة أيامٍ. استقبل سليمان خان القادمين غاضباً، ومن دون أن يتخلى عن دماثته العظيمة، أعلن عن تقديره لشجاعتهم وحبهم لوطنهم، وقال لهم إنّ عليهم الاستسلام من دون قيدٍ أو شرطٍ لوضع حدٍّ لهذه الحرب التي لا معنى لها. أطرق رئيس المبعوثين الفارس زابو راسوليني واستغرق في التفكير وهو يهز رأسه يمنةً ويسرةً. وعلى الرغم من مظهره المتميز ببنطاله الحريري الأزرق الضيق، وجزمته الجلدية الحمراء التي تصل حتى ركبتيه، وقميصه المطرز، وعباءته المصنوعة من الساتان ذي اللون البني المحروق والتي يغطي بها كتفيه بدا رثّ المظهر إلى جانب وزراء مولاي السلطان.

كان سليمان خان خلاّباً بشكل غير متوقعٍ؛ مثل قوس قزحٍ تولد

بعد عصرٍ ماطرٍ. كانت الخطوط الرفيعة المرتسمة على وجهه تفصح عن نضج شيخٍ مجرّبٍ. كما كانت عباءته القطنية الطويلة المطرزة المصنوعة في بورصة، وقفطانه المزين بالمجوهرات، وسرواله الأخضر الزمردي المطرز بخيوط الذهب تضفي عليه مظهراً أنيقاً. وخنجره المطعّم بأحجارٍ كريمةٍ مختلفةٍ - الذي لم يفارقه منذ خروجه في الحملة - وجزمته المصنوعة من جلد الماعز الذي تنعكس عليه الأشعة المنبعثة من القناديل يجعلانه يبدو وكأنه من عالمٍ آخر مفعمٍ بالأحلام.

سادت لحظات صمتٍ أخرى، ولم نكن على عجلة من أمرنا. لكن سليمان خان، على الرغم من كونه على مشارف تحقيق هذا الإنجاز التاريخي، فقد كان يضيق صدراً من طول الانتظار. هذه المرة، لم يجد أورخون جلبي طريقاً يتسلل من خلاله إلى هذه القلعة المحمية. لكنه لم يكن مسؤولاً عن هذا، فما من شكٍّ في أن اختراق قلعةٍ كهذه لا تسمح لأهلها بالخروج بقدر منعها من يريد الدخول إليها أمرٌ صعب. وفي النهاية، فتحت أبواب القلعة، واستسلمت المدينة من دون قيدٍ أو شرطٍ، وأصبح الفرسان ومرافقوهم والمدنيون أسرى حرب. وفي اليوم التالي، دخل سليمان خان المدينة، وفي عينيه الشهلاوين نظرة حزينةٌ مفعمةٌ بالكبرياء، وهناك أصدر فرمانه الأول بحق بلغراد:

«محافظ المدينة، ابن عمتي الغازي الأمير محمد باشا، والمعروف أيضاً ببالي بك، يخصص له من الخزينة الخاصة مبلغ تسعمئة ألف آقجه سنوياً، وتضاف إلى أسوار المدينة مئتا مدفع لزيادة تحصينها، ويترك فيها ثلاثة آلاف من جنود اليني تشري المتمرسين للدفاع عنها، ويعاد بناء كل المباني المتضررة والمدمرة لتعود أفضل مما كانت عليه، وكل ذلك بإمرة بالي بك. وفي البداية، يجب أن تحوّل الكنيسة الكبيرة في بلغراد إلى جامع حتى نتمكن من أداء صلاة الجمعة هنا. كما آمر ببناء مسجد، وخان،

وحمّام، وعمـارة[1]، ونـزل للقوافل في وسـط المدينـة؛ لتكتسـب المدينة هويتها العثمانيـة. كما يتم تشـييد المباني اللازمة لتكون مخـازن للذخيرة، ومصنع المدفعية، ومسـتودع البارود. ولا يجب أن يظلم أحدٌ أبداً، وتطبق العقوبة في حقّ من يظلم دون تأخير».

* * *

وغدت بلغـراد التي أمضينا فيها تسـعة عشـر يوماً، وتمتعنـا بجمالها التاريخي والطبيعـي اعتباراً من اليوم دار جهاد؛ كما سـماها سـليمان خان إرضاءً لطلبة مـدارس أدرنه، وفيليبـه، وصوفيا. لم نكن قـد غادرنا المدينة بعد حين بدأت أخبار الأميرين الغازيين ميخال أوغلو وتورخان لي تتوارد تباعاً، وتنقل للسـلطان معلومات عن اسـتيلائهما على قلاع صلان كمان، وقارلوفجا، وميتروفيجا، وباريتش، وكولبنيك، وأويلوك، وبكراس.

كما أعلن السلطان سليمان أنه بوسـع الرعايا الصرب والبلغار الذين شاركوا في الفتح وكان لهم فضل كبير فيه أن يأتوا إلى إسطنبول، ويسكنوا في الأراضـي المخصصة لهم في يـدي قوله، وسـيلفري قابـى. وأضيفت إليهما في ما بعد بيوك دره.

في إحدى الليالي الأخيرة في المدينة، اسـتدعاني سـليمان خان إلى خيمته في ساعةٍ متأخرةٍ. كانت تلك الليلة مميّزة برائحة الدانوب الخاصة، وصرير الجنادب الإيقاعي الممتـزج مع نقيق الضفادع، فكانت سـيمفونية ليالي الصيف تلك تدفع الإنسان إلى حالة بين النوم واليقظة.

كان مولاي يريد أن يعرض عليّ رسـالة جاءته مـن حبيبته حرّم. كان مغموراً بالأضـواء الكهرمانية المنبعثة مـن القناديل ذات الـرؤوس الفضية والذهبية والقوائم البرونزية، والتي تظهر مدى فرحه بتلك الرسالة. وكانت النظرة السـاكنة في عمقِ عينيه تدل على عشـقه الشـديد وهيامـه. أمّا تلك البسـمة المعهودة المسـتقرة في ثنايا شـفتيه المظللتين فقد أصبحت خاتم

---

(1) تكية يقدم فيها الطعام للفقراء والمساكين وعابري السبيل.

عشقه المتزايد يوماً بعد يوم.

قال لي: «اقرأ يا أخـي الطيب، فما تراه على وجهـي ليس إلاّ عـلامةً على فرحـي الشـديد بهــذه النعمـة التـي أتمتع بهـا برعايـة اللـه أولاً، ثم بفضلك أنت».

في تلـك اللحظـة، أدركـت وجود ذلـك الشـاعر فـي أعماقـه، ولم أسـتغرب مطلقاً. فقـد كان فنانـاً حقيقياً ضـاق ذرعـاً بالمسـؤولية الدنيوية الملقاة على عاتقه. نعم، لم تكن مشاعره تلك غريبة. مددت يدي مبتسماً، ورفعت الورقة المتميزة برائحة زكيةٍ تفوح منها وبدأت أقرأ:

«بعد تقبيـل الأرض التي تدوسـونها مئات المرات، شمسـي، ورأس مال سـعادتي، ومـولاي السـلطان، إن سـألتم عـن مسـكينةٍ احترقـت بنار الفراق، واكتوت منها، وتحطمت بسببها روحها، وامتلأت عيناها بالدموع، وغرقت في بحر الحسرة حتى استوى عندها الليل والنهار... إن سألتم عن جاريتكم التـي تُذكِّر بعشـقها لكم بفرحـات ومجنون ليلى، فأنـا يا مولاي قد أصبحـت بسـبب آلام فراقكـم وآهـات بعدكم عنـي كبلبـلٍ توقف عن الشـدو والتغريد، وصرت أعيش في عذابٍ ولوعةٍ لا أتمناهما لأعدائي. يا مولاي، أنا أحبكم».

- آمل أن يرزق الله الإنسـانية كلها حباً حقيقياً كهـذا. ماذا أقول غير ذلك يا مولاي؟! وعندها، ربما سيكون الظلم في الدنيا أقل.

- اقرأ الكلمة الأخيرة مرةً أخرى.

- أحبكم! كان الحبر سـابقاً بلون الصدأ، أمّا في هـذه الكلمة فالحبر سميك أكثر مما أعرفه.

- هل لاحظت ذلك؟

- كنت أنظر إلى ذلك يا مولاي...

قلبت الورقـة وتلمسـتها بأطـراف أصابعـي، ثـم قربتها مـن الضوء، وأضفت:

- هذا... إن كان ما أفكر به يا سيدنا...

- إن الأمر كذلك يا إبراهيم. لقد كتبت الكلمة الأخيرة بدمها.

لقد فاجأتني فتاتي الجارية. فهي لم تكتف بإنجاب الأمير محمد لسليمان خان، بل ها هي الآن تستعد لدورٍ أكبر كانت تستهدفه أصلاً؛ هذا الدور كان دور امرأةٍ لا يمكن التخلي عنها. وإن سارت الأمور هكذا، فلن تنتزع من السلطانة ماهي دوران مرتبة الحسكية[1] فقط، بل ستكون أماً لسلطانٍ أيضاً. لقد كان الأمير مصطفى ذاك الولد الوسيم الذي أمضيت معه أوقاتاً طويلةً ممتعة الوريثَ الأول للعرش. وما يمكن أن ينجم عنه هذا الصعود السريع لحرّم بدأ يفزعني.

- أحببت الرد على هذه الرسالة برباعيةٍ يا إبراهيم! فهلاّ قرأتها.

أخذت الورقة التي كتب عليها بخطٍّ جميلٍ، وبدأت بالقراءة:

«ليتني أنظر إلى نور جمالك يا فراشة روحي

صديقتي، أنت شمعةٌ، وأنا العاشق الذي يدور حولك كالفراشة

أصطاد طائر الروح في بستان جمالك

وحال المحب جنونٌ في شباك شعرك»

- مرحى لك يا مولاي. ريشتك تقطر حبًّا، كم هو رائع عشقك هذا.

- وأنت يا إبراهيم، ألم تعشق امرأةً حرةً يوماً؟!

طوال سنوات صداقتنا لم يسألني هذا السؤال مرةً، فلماذا يسألني إياه الآن؟ وكيف خطر له؟ شعرت بقلقٍ مدهشٍ وكأن النار تشتعل في معدتي، وسرت قشعريرة على طول ظهري، وانتابني اضطرابٌ شديدٌ وأنا أفكّر بحرّم. فمنذ اللحظة الأولى كان بإمكاني أن أختارها لنفسي، فأنا أستطيع جمع مجوهراتٍ وأشياء ثمينةٍ لحسابي سراً، وكان بإمكاني أن أفعل هذا معها أيضاً... كان على حرّم أن تبقى على العهد، وعهدنا لم يكن مدوناً على الورق، لكن كل شيءٍ كان واضحاً. لقد بلغت حرّم ما وصلت إليه

---

(1) المحظية.

اليوم بفضل رعايتي، وكان عليها لقاء ذلك أن تؤمّن معرفتي بكل خطوةٍ يخطوها السلطان قبل الآخرين.

- لكن، الآن هناك مشكلة تكبر باستمرارٍ يا إبراهيم. إن هناك انسجاماً كبيراً بين زوجاتي فلانة، وماهي دوران، وكول فام، وأخشى أن يجعل تحالفهن هذا الحياة لا تطاق بالنسبة لحرّم. فهي لا تزال صغيرةً وتحتاج إلى رعايةٍ!

قلت في سرّي وأنا أضحك: في الحقيقة، هن اللواتي يحتجن إلى رعاية، ألم تدرك هذا بعد يا سليمان؟!

- إنهن لا يدخرن وسعاً في فعل أي شيءٍ لتحويل حياة حرّم إلى كابوس. وأنا الآن بعيد عنها، وهي بعيدة عن رعايتي. ربما ضاقت ذرعاً بهنّ يا إبراهيم! ووالدتي السلطانة حفصة، آه من والدتي! كم مرّة نبهتها في هذا الخصوص، لكنها كانت تقف دائماً إلى جانب ماهي دوران. ورغم ذلك، إنها تقيم نوعاً من التوازن بين زوجاتي. أطال الله تعالى عمر والدتي. كيف ستكون الحال في القصر لو لم تكن موجودةً يا إبراهيم؟

- هذه حال النساء يا سلطاني. وكما تعلم، نحن مضطرون إلى الاعتناء بهنّ. لكنْ، يصعب دائماً تحقيق كل مطالبهنّ. لم أر في حياتي شيئاً أصعب من مداواة قلب امرأةٍ جريح.

سكت عن الكلام لحظة كي أستريح، والفضول في داخلي يدغدغني، فقد أحببت أن أسأل السلطان سؤالاً لم أسأله إيّاه مطلقاً من قبل:

- ما الذي يميز حرّم عندكم عن سائر النساء في الحرملك يا سلطاني؟! لديكم أجمل النساء، وحرّم ليست أجمل جارياتكم بالتأكيد، لكنها من غير شكٍّ الأحبّ إلى قلبكم.

ميزةٌ حلوةٌ أضيفت إلى مظهره المهيب؛ إنه الشعور بالحياء. فقد ابتسم وأرخى بصره نحو الأسفل بهدوء وهو يقول:

- إن حرّم متعلقةٌ بالحياة والأحداث، ولا تكثر الحديث عن نفسها كبقية النساء، ولذلك فأنا لا أشعر بالضيق معها أبداً. كما أنها تسعى إلى إخفاء عيوب زوجاتي ومحظياتي عنّي خوفاً من غضبي، وتحب الحديث عن حسناتهن بدلاً من استغابتهنّ. وهي لا تدفع بنفسها إلى المقدمة أبداً، ولا تسعى إلى إفساد علاقتي مع بقية محظياتي، ولذلك تكبر في عيني يوماً بعد يوم. ثم إنها تسرّ كثيراً بسماع أشعاري وخططي، وبحديثي عن المستقبل، ولديها آراءٌ صائبةٌ في السياسة الخارجية العثمانية. ولو كانت رجلاً لاستحقت بالتأكيد أن تكون وزيراً. استغرق في تأمل عميق، ثم تابع:

- حين تتحدث عني أحب في عينيها تلك النار المشتعلة، وأحسّ فعلاً أن هناك من يحرص عليّ حقاً. في أجواء كل هذا الكذب والنفاق المحيطين بي يا إبراهيم، كنتما لي حقيقتين ثمينتين. وابتسم في مرارة وأضاف: «وما الذي يتغير لو كنتما كذبة كبرى أيضاً؟ إنني ما زلت ممتناً لك لأنّك قدّمت لي هذه الهدية، وما زلت أشعر بالسعادة في داخلي بفضلها. أما غير ذلك فلا يهمني الآن...».

حقاً، إنّ هذا الرجل يثير في أعماقي أنبل المشاعر. وفي تلك اللحظة، أقسمت على ألاّ أمسه بضرر ما دمت حياً، وقلت والدموع منهمرة على وجهي: «لو كنا قد التقينا في ظروفٍ غير هذه الظروف، وفي حياةٍ غير هذه الحياة هل كان من الممكن أن تتخذني صديقاً لك يا مولاي السلطان؟».

- قل اسمي يا إبراهيم... الآن هو الزمن المناسب لفعل ذلك. خاطبني باسمي، قل لي سليمان ولو همساً... قل اسمي حتى ترتخي قبضة التوحد المرعبة التي تمسك بقلبي بشدة تحت هذا القفطان السلطاني! قله حتى ترتخي تلك القبضة القاسية ولو للحظة!

همست بصوت مخنوق: «أنت أفضل أصدقائي يا سليمان».

- وأنت أفضل صديقٍ لي يا إبراهيم...

استأذن آغا الخدم بالدخول، وترك طستاً فضياً مطلياً بماء الذهب، ومزخرفاً بالألماس، ومغطى من الداخل بحجارة خضراء شفافة لغسل قدمي السلطان، ثم خرج لأنه لم يعد هناك أحدٌ يجهل أن هذا واجبي. كنت في كل مرة أغسل فيها قدميه، أشرب الماء من الطست حتى القطرة الأخيرة. كانوا يقولون من ورائي: «كان يقص أظفار جلالة الشهريار[1]، ويشرب الماء الذي يغسل به قدميه الشريفتين». ما كان لي مثيلٌ في الدنيا. فالناس لا يفكرون أبداً بالانتقال من التقليد إلى التحقيق، ولا يعقلون أبداً أن الإنسان يدفع الكثير من أجل مستقبلٍ مرتقب، ولا يعلمون أنني يجب أن أكافح أمام منافسةٍ شرسةٍ. يتراءى لي خيال تلك الجنية ذات الشعر الأحمر بهدوء، وأكاد أسمع همسها ضدي لسليمان. حرّم... حرّم... روكسلانا، حذار أن تنسي كيف بلغت هذه المرتبة لدى السلطان. حذار أن تديري ظهرك لي، وإلاّ فسأقوم بأعمال ضدك ليس بإمكانك تخيّلها، ولن تصدقي حينها سرعة سقوطك. لقد قطعت علاقتك معي مؤخراً، ولكنني لن أسمح بهذا أبداً.

---

(1) الحاكم.

خطوات قلبٍ أسيرٍ
(سليمان خان)

I

«تتماوج الأرواح الأخرى مع الموسيقى،
وروحي يا حبيبتي تسبح في عطرك!».

بودلير

(حذار! لا تخدعنك الدنيا، ولا تغرّنك
ومهما عظمت فكن كالنمل في صميمك
من ذا الذي يأتي ليرضى بكل داء وشقاء
ألم تسمع أن الدنيا ليست دار سعادة
لا تتكبر ولا تحسد، ألم تر الشيطان المطرود من الجنة
ولا تعتمد على زهدك، أما رأيت حال بلعام أور[1]
اصبر، فبالصبر تستخرج الحلوى من العنب الفج
ولا تنس أبداً أن يكون لقبك يا صبور
تلوثت هذه الروح بوسخ الدنيا
فاجهد بالتوحيد حتى يمتلئ مكانه بالنور

(1) عابدٌ من بني إسرائيل، عاش في زمن موسى عليه الصلاة والسلام، وكان مستجاب الدعاء، أغراه بنو إسرائيل ليدعو على موسى عليه الصلاة والسلام بامرأة مشهورة الجمال فضلّ.

أي محبي، لا تر كن إلى عرشك وقدرتك

ففي القبر الآن بهرام القوي[1]

استغرق عبور الجيش جسر ساڤا الذي شيّده المعماريّ سنان بن عبد المنان قبل الحصار يومين. في الليلة الأولى، كان هناك مطرٌ خفيفٌ يغسل ضفتي النهر، وارتفع ضبابٌ خفيفٌ، وانتشرت في الأجواء رائحة دخانٍ وطحالبٍ، وبعض قطرات الندى... كان صخب الجنود السعداء يصمّ أذنيّ؛ فالاحتفال بات من حقهم. وشعوري بالاعتزاز بشجعاني ملأ صدري فخراً. ولكنني في الوقت نفسه أحسست بألمٍ مجهولٍ يطعن قلبي ألف مرّة. ماذا كان سيحصل لو لم يعتد رجال إقليم الهنغار على حقوقنا؟! أغمضت عيني، وابتسمت حين تذكرت تلك الليلة التي باركت فيها آلامي وشوشات الريح الممتزجة مع اضطراباتي الداخلية. مهما يكن الأمر فأنا سلطانٌ مظفّرٌ، أليس كذلك؟! وأنا الوريث الحي الوحيد والحقيقي لهذه السلطنة، وظل الله على وجه الأرض... ولكن، لهذا السبب سيسألني الله عن كل ظلمٍ ارتكب باسمي... إذاً، كيف يضحك من يحمل على عاتقه مسؤولية كل هؤلاء البشر؟! إلاّ أن ظهوري بمظهر الحزين أمام أعضاء ديواني أمرٌ غير مناسب؛ فلقد حققت نصراً كبيراً وهاماً. إن بلغراد التي صدت جدَيّ مراد الثاني والفاتح باتت تحت قدمي الآن.

إذا كان النصر قد تحقق باسمي، فإن الغلبة الحقيقية لوزرائي وقادتي الذين يجتمعون الآن في حضرتي في الديوان باحترامٍ وسكونٍ. إنّ الإرادة التي لا تضطرب لأولئك قد تحولت الآن إلى سيلٍ يجتاح الأسوار، وعليّ الاستمرار في سياستي الدقيقة، كما يجدر بي الانتباه إلى تحذير الإداريين المنتمين إلى جماعاتٍ إثنيةٍ مختلفةٍ من بعضهم، والحفاظ على التوازنات الدقيقة بينهم.

(1) كان بهرام إمبراطوراً على الإمبراطورية الساسانية بين عامي (438-421م).

سعلت سعالاً خفيفاً لألفت انتباه الحضور، ثم شرعت في الكلام: «كان أبي يقول إن المجاهدين الأبطال الذين حوّلوا الأناضول إلى وطنٍ للأتراك لديهم تسع خصالٍ. الأولى: قلبٌ لا يخاف، والثانية: قوة السواعد، والثالثة: الحماسة، والرابعة: درعٌ متينة، والخامسة: قوسٌ مشدودة، والسادسة: سيفٌ مسلول، والسابعة: رمحٌ يثقب الدروع، والثامنة: صديقٌ حميمٌ، والتاسعة: حصانٌ جيدٌ. نعم، حصانٌ جيدٌ. لقد منح أجدادي الفرسانَ النصارى في البلقان الأراضي حسب أجناس خيولهم وقوتها. واعتماداً على قوتهم قبلوهم بين النبلاء ومنحوهم التيمارات، وبقي الجنود المشاة على الدوام أتباعاً ورعية. إلا أنه أيها الأصدقاء، كان هناك مجاهدون أبطال حاربوا رغباتهم، فهزموا العدو الأساسي؛ وهو الأنانية. ومن هنا ينبع اهتمامنا بالعلماء السنّة؛ لأنهم عندما يحاربون أنفسهم ورغباتهم فهم لا يعرفون الانحراف نحو الهزيمة والفرار، ويسدّون الطريق أمام الشيطان. نعم، إن جنودي من الينى تشري أغلبهم بكتاشيون[1]. لكنّ وضعنا لا يشبه وضع الآخرين، ويجب علينا دائماً أن نكون يقظين، وألاّ نخضع لنزواتنا، وألاّ نركن إلى أنفسنا. وعلينا أن نكون متأهبين وكأن الجمر تحت أخمص أقدامنا. ولذلك سلّمنا أرواحنا للتعاليم السنية. والحقيقة هي هذه بالنسبة لنا، ونراها الأنسب لرعيتنا[2].

تعلمون جيداً أنه في المراحل الأولى من قيام دولتنا العلية، كان سكانها في الغالب من الرّحل القادمين من آسيا الوسطى. وتقاليد القزلباش وأعرافهم كانت ملائمةً لحياة الترحال هذه صراحةً. ولهذا، كان الأطفال النصارى الذين يقدّمون إلى عائلاتٍ مسلمةٍ في الأناضول

(1) نسبة إلى الطريقة البكتاشية.

(2) يبدو أن السلطان سليمان كان يحاول معالجة مشكلة ميل الجنود الإنكشاريين للتمرد والفوضى.

يتعلمون إسلام القزلباش، فيمنحهم إسلامهم مرجعيةً وشعوراً بالأخوة والوحدة. وكما تعلمون، إن زواجهم وانشغالهم بالتجارة ممنوع، وأصدقاءهم في مؤسسة الينى تشري إخوتهم، والسلطان باعتباره الإنكشاري الأول أبوهم. إن الشعور بالوحدة هذا يوهمهم بأنهم قوة كبيرة لا يمكن تجاهلها وتجاوزها؛ وهنا مكمن الخطر. ولهذا السبب، يجب أن يخضع الينى تشري لنظامٍ تدريبيٍّ متميز!».

ينقل حملة المشاعل مشاعلهم الكبيرة إلى الداخل محمولةً على عصيّ طويلةٍ، وفي نهاياتها مناقل زيتية. سأرى في هذه الليلة وجوه الجميع بوضوح. وفيما كنت أتأمّل الوجوه حولي، دخل وهيمي أورخون جلبي مستأذناً، فرفعت صوتي وأنا أقول: «والموت...» دقق أورخون جلبي النظر إليّ بعينيه الصغيرتين، وهو يحاول التقاط أيّ إيماءةٍ سريةٍ ربما كانت كلماتي تحملها!

«... الموت مقدّر لكل واحد. وهو حق للسني والقزلباش. نعم، تمارس الدولة سلطتها إلى جانب السنة، لأن هذا البنيان هو الأنسب من أجل إقامة دولةٍ كبيرةٍ مستقرةٍ. وعلى الدولة أن تكون رحيمةً، وأن تعامل رعاياها بمساواة، وألاّ تحيد عن العدل مثقال ذرة واحدة...

هناك حقيقةٌ واحدةٌ نراها اليوم نحن ومجاهدونا الذين يتقدمون داخل أوروبا؛ ألا وهي حقيقة الموت التي يختلف صداها في تلك البقاع عنه في بلادنا. ففنها المعماري يعبر عن هذه الحقيقة في أنصع بيان؛ فالفن المعماري الغربي يقوم على أساس الوجه البارد والمدهش للموت، لذا يمكن أن نشاهد فيه النحوت والنقوش والهياكل التي تزعج الأرواح الشريرة بحسب رأيهم. أما الشرق، فهو بالإضافة إلى إثارته الراحة في النفوس بفنه الصافي[1]، يعانق الموت عناق حبيب مرتقبٍ!

---

(1) الخالي من الرموز والهياكل والأشكال.

حين ترى جنازتي لا تقل إنه الفراق!
فذاك وقت لقائي وصحبتي.
تراه غروباً في ناظريك، لكنه الشروق.
ربما القبر يبدو سجناً، لكنه للروح خلاص.

ألا يقول هذا حضرة مولانا[1]؟! إنه الفارق الفكري الأساسيّ بيننا. إنه ينبع من الفرق بين صدى الموت لدى كل منا. إنّ رؤية الموت هي التي تؤسس أيضاً للبنيان الروحي والفكري للإنسان.

دققوا إن شئتم في البنيان المعماري الخالص[2] لهذا الجسر المقام فوق نهر ساقا، إن الرجل الذي بناه هو المعماريّ سنان بن عبد المنان الذي اشترك مع أبي في حملة مصر، وهو الآن يخدم في الييني تشري. إنه رجلٌ موهوبٌ جداً، يمكنه لو أراد أن يترك بصماته على مبانٍ فخمةٍ كثيرةٍ بسهولةٍ، وقد أمرته الآن أن يعرض عليّ مخططاته ومشروعاته؛ لأن ذكاءً خارقاً كهذا لا يمكنه أن يرقد من دون إنتاجٍ. إنني على ثقةٍ بأنني سأرى موسيقى السكون والاستقرار قبل المقاييس الدقيقة للحديد والحجر. وبمناسبة ذكر الموسيقى، قارنوا إن شئتم بين ألحان عبد القادر مراغي (ماهوركار، ورست كار كبير، ونهاوند كار كبير، وسيكاه كار من الدرجة السادسة[3]، ورست كار) في حيدرنامته، وبين الموسيقى الغربية التي أبعدت عن الحياة الاجتماعية مئات السنين في ظل تحكم الكنيسة بها بحجة أنها خطيئة، حتى تم تبسيطها في أعمال غريغور، فبدأت تنتعش فيها روح الحياة مؤخراً، وبمشاركةٍ خاصةٍ من قصر بورغوينا، واسألوا أنفسكم أيهما أقرب إلى مفهوم الاستقرار.

---

(1) مولانا جلال الدين الرومي المشهور بمثنوياته.
(2) البعيد عن الزخارف وما شابهها.
(3) ربما يطلق عليه سيكاكار العراقي أو العالي.

والآن، فكروا بأزمة لوثر التي لم تستطع أوروبا تجاوزها بأي شكل من الأشكال، وقارنوا بين قسوة فن المجسمات المنحوتة وفن العمارة المتأثرة بالكنيسة الكاثوليكية في روما، وبين الاتجاه البروتستانتي الذي حاول تجاوز هذا. وتذكروا المنحوتات التي ترونها في كنائس باريس، وكنيسة نوتردام القوطية في ستراسبورغ، أو في شابليه الملكية. وتخيّلوا كاتدرائية سالسبوري في إنجلترا، وكنيسة سان ماركو في البندقية... إنها عظيمة، لكنها ثقيلة بمقدار عظمتها! إنها مبانٍ تعكس حالة الانحباس الروحي عندهم في أحسن بيانٍ. أما الآن، فقد آن أوان إخراج ملك إنكلترا هنري الثاني الذي يعاني منذ زمنٍ من تسلط اللوثريين والبابا من هذا الظلام إلى نورٍ جديدٍ».

فاضت عينا إبراهيم بالدموع المتزلفة وهو يقول: «أيها الخليفة، إنكم لستم خلاص أمتنا وحدها، بل خلاص الإنسانية كلها». قرأت في عيون الآخرين نظراتٍ غريبة، فشعرت بحاجة هذا المتملق الطيب لحمايتي: «حاشا يا إبراهيم! أنا عبدٌ ضعيفٌ، وما زلت شاباً، لكنني أعرف كيف أصغي إلى الكبار؛ وهذا دائماً يكون في صالحي!».

II

تشرين الثاني 1521م، إسطنبول

«في الأساطير الشمالية، يحكى عن شعبٍ فرّ من مواجهة جيوش روما التي لا تقهر، ثم اختفى عن الوجود». هكذا تهمس حرّمي وريح الشمال البارد تعزف ألحانها على نافذتنا، وتحرك بخفةٍ حواشي غطاء فراشنا، وأنا أصغي إليها، فيما أنفاسها الدافئة تداعب وجهي في سكون: «كثيراً ما تروى هذه الحكاية في بلادي. بعد فترة، يجد الفارون أنفسهم على ضفة خليجٍ ساكنٍ بعيدٍ. وبما أن الأطفال والنساء كانوا في حالةٍ مزريةٍ، قرروا الإقامة على تلك الضفة. وفي إحدى الليالي، في ساعة متأخرة، طوّقهم جنود روما، وأدرك الفارون أنهم ارتكبوا خطأً استراتيجياً هاماً حين لم يتركوا لأنفسهم سبيلاً إلى الفرار إلاّ الماء. ولكن، كان الأوان قد فات. فذهب بعضهم حصداً بالسيف، وهلك الآخرون غرقاً في البحر الذي رموا أنفسهم فيه.

تركت هذه الحادثة آثاراً مزلزلةً على الأقوام البربرية في ذلك الزمن. وسرت بين أقوام الشمال أسطورةٌ بسرعةٍ كبيرةٍ، يمكن أن تصادف مثلها في الثقافات الأخرى. إذ يروى أن صياد الروح يصطاد فريسته ليلاً، ويسحبها ويمزقها إرباً إرباً هناك في كهفه تحت أعماق ذلك الخليج الذي شوهد فيه ذلك الشعب المفقود، ثم يعيدها إلى أصحابها، وإنما بشخصيةٍ جديدةٍ تكون السعادة عصيةً عليها. فما يحبه في لحظةٍ، ينفر منه في لحظةٍ أخرى، وتتعرض أسعد لحظاته لهجومٍ مباغتٍ من ذكرياته التعيسة، وتتمزق.

هذا شعوري حين لا تكونون بجانبي يا سلطاني. إن ذاك الكائن

يتسلل إليّ في الليالي التي تغيبون عني فيها، وكأنه يخطف روحي ويغمرها في مياه الخليج المظلمة، ويفتتها إلى ألف قطعةٍ وقطعةٍ، ثم يقذف كل قطعةٍ في الفضاء اللامتناهي ويقضي عليها. وهكذا، أظل وحيدةً، بلا حولٍ ولا قوةٍ... ماذا لو أخذتموني معكم إلى كلّ مكانٍ ترحلون إليه؟ سيسعدني كثيراً وجودي معكم في أدرنة في رحلات صيدكم، وانتظاري إياكم في خيمتكم خلال حملاتكم».

فأضحك وأنا أمسح على شعر حبيبتي الناعم، وأشم رائحة المسك فيه: «كان الشاه إسماعيل يفعل الشيء ذاته يا حرّم. لم يكن يفارق زوجاته اللواتي يحبهن كثيراً، فقلبه الشاعري لم يكن يسمح له بمواجهة الموت بعيداً عن حبيباته. ولكن، ماذا حدث في النهاية؟».

- ماذا حدث؟!

- في جالدران، وقعت أحب زوجاته على قلبه بهروزة هانم المعروفة بتاج لي هانم - وكان جمالها ملحمةً على كل لسان - أسيرةً في أيدي العثمانيين. ونظراً إلى شدّة نار الانتقام المشتعلة في نفسه والدي، أمر بتزويجها لمؤلف فتح نامه؛ أمين السر وقاضي العسكر جعفر تاج زادة جلبي. وأسوأ ما في الأمر أن هذه المرأة الجميلة صارت زوجة لرجل مشوّهٍ بالجدري، ومنظره مخيف، وقد رثى لحالها رجال عظام، وسكبوا دموعهم حرى على تلك النهاية المأساوية لهذه المسكينة. فهل تظنين أنني أتحمل أن تكون عاقبتك هكذا؟!

- كان يمكن للشاه إسماعيل أن يرضي والدك بلهجةٍ مناسبةٍ، ويسترد زوجته.

هذا ما قالته ملاكي الطيبة، إنها لم تدرك بعد مدى قسوة الحياة!

ضحكت بصوتٍ مرير، ونظرت إلى عينيها النجلاوين الزرقاوين على ضوء القناديل الخافت: «يا حرّم، أمر أبي بتزويج تاج لي هانم لجعفر جلبي لأن الشاه إسماعيل تجرأ على مثل هذا طلب!».

تأوهت بصوت خافت، ودمدمت وهي ترتعش بين ذراعي كورقة ربيعٍ نضرة: «يا له من شيءٍ مخيفٍ!».

- إن الحياة نفسها مخيفةٌ يا حبيبتي. إن الوجود نفسه مصدر همٍّ. ومع ذلك يا حرّم، لقد حُكِم علينا بعيش هذه الحياة والكفاح فيها. ونحن نستطيع تيسير معركة الوجود هذه بحماية بعضنا، والحفاظ على تماسكنا.

- المهم ألاّ يتدخل أحد بيننا.

عرفت أنها تقصد إبراهيم. ولست أدري لماذا لم تعد تطيق مجرد سماع اسمه. وهمست:

- أخاف... أخاف من ذلك يا مولاي. أخاف من عينيه اللتين تنظران بخيانةٍ، ومن السم الذي تحت لسانه الحلو.

- لا تخافي أحداً. قلت ذلك وأنا أضمها.

كانون الثاني 1522م، إسطنبول

بعد حديث افتتاحي قصير، كشفت عن القرار الذي اتخذته حول مسائل أمن شرق البحر الأبيض المتوسط بعد استشاراتٍ ولقاءاتٍ مطولةٍ منفردةٍ مع كل من إبراهيم وبيري باشا: «باختصارٍ لقد حان الوقت يا سادة. لقد حان الوقت لشن حملةٍ على رودوس، وحان الوقت لإصلاح الغرب. سوف ننقذهم من محيط القسوة الذي يغرقون فيه. لقد حاصر جدي الفاتح هذه الجزيرة ثلاث مراتٍ، لكنه لم يوفق في فتحها. ولكنكم تعلمون أن فتح رودوس أمرٌ ضروريٌّ من أجل تأمين الطريق البحري الذي يصل إلى أكبر ولاياتنا بعد الأناضول؛ مصر، ولضمان سلامة رحلات الحج بمعناها الحقيقي، ولتخليص تجارة شرق بحر المتوسط من التسلط اللاتيني. إن هذه الجزيرة في موقعٍ يتحكم بكل الطرق البحرية، من سواحل الأناضول إلى جزر بحر إيجة، كما أنها عقدة الاتصالات بينها.

لقد نجح فرسان جماعة القديس جان[1] في حكم هـذه الجزيرة منذ مئات السـنين، كما أن فرسـان المعبد الذين نزلوا تحت الأرض بعد حرق أسـتاذهم جان جـاك دي مـولاي لهـم علاقـاتٌ وطيـدةٌ مع هـؤلاء. ومن المعـروف أنّ هؤلاء جميعـاً يتحركون معـاً في نقـاط التقاءٍ كثيـرةٍ، خاصةً بتشكيل الفرق التي ترتب عمليات الاغتيال ضد اللوثريين؛ وهذا ما توصل إليه جواسيسـنا بهذا الخصـوص. كلماتي هذه لكـم جميعاً، ومـن يتهاون تضعف صلتـه بالله تعالـى، فلتكونوا متيقظيـن دائماً ومنتبهيـن. لن يتغلب عليكم أحد إذا كانت عقولكم نيّرة. إنني أصغر سـناً مـن معظمكم، لكنني ترعرعت مثلكم بين أحضان ياووز.

أستطيع أن أفهم جيداً هذه الريبة الصامتة البادية على وجوه الكثيرين منكـم الآن؛ وأنتـم محقـون في ذلـك. إذ إنكـم تعتقـدون أنه بعد سـقوط بلغـراد مباشـرةً، سـتوقظ فكـرة سـقوط رودوس الأوروبييـن من سـباتهم العميق بالتأكيد. لكن، لا تتوجسـوا مـن ذلك، وكل ما يجـب عليكم فعله الآن هـو أن تفتحوا عيونكم وآذانكـم جيداً، وتؤججوا حالـة الفوضى هذه في أوروبا، وتعملوا على الاسـتفادة منها. إن رحيل أبي ياووز المبكر حال دون تحقيقـه الكثير من مخططاته. ولو أن الله مدّ في عمره عشـر سـنوات أخرى، لاسـتطاع جعل كل أوروبا تركـع عند قدميه...». شـعرت بجو من الكآبة يخيم على المكان، وسـعيت جاهداً إلى حمل نفسـي على الخروج من هذا الجو وأنا أصدر الأوامر: «سـيكون وزيرنا الثانـي مصطفى جوبان باشـا مسـؤولاً عن قيادة الحملة، وقيادة أسـطولنا سـتقع على عاتق بحارنا الخبير مصلـح الدين قـورت أوغلو، وسـأكون معكم علـى رأس القوات. فليستعد الجميع طيلة الشتاء، ولتصلح جميع السفن الحربية تمهيداً لحملة رودوس، ولتسـحب الـزوارق الجديدة إلـى الزلاقات؛ ويمكننا الاسـتعانة بأهالي البندقية في هذا الخصوص، ولتصنع سـفينة حربية سلطانية خاصة،

(1) وهم فرسان مالطة.

ولتنشأ ورشةٌ خاصةٌ لهذا الغرض على ضفة الحديقة الخاصة، وسأتابع صناعة السفينة السلطانية بنفسي. وسأحيل مسؤولية هذا العمل إلى قورت أوغلو فور عودته إلى إسطنبول، فقد أثبت قورت أوغلو باستخدامه منظومة الآلات التي طورها في تدمير سفن الأعداء الحربية أنّه بحّارٌ موهوبٌ. فما رأيك أنت يا بيري باشا؟!».

بدأ بيري باشا الحديث بصوتٍ أجش غامضٍ: «مولانا، كما قلتم، يصنّع قورت أوغلو رافعاته من أفضل أنواع القنب من دون أن يغمسها في القطران، ويكتفي بوضع القليل من الإسفلت. وكان القطران يستعمل سابقاً ليكون القنب في يد صانع الحبال أكثر طواعية للفتل، وفي السفينة ليكون أكثر طواعية في الاستعمال، حتى اكتشف قورت أوغلو أن الإفراط في استخدام القطران لا يجعل الرافعات أكثر متانةً، ولا يساهم إلا في جعلها أكثر ثقلاً، وأقل قابلية للاستخدام. وعندها، ركّز عمله على الرافعات فجعلها رفيعةً، وأمّن متانتها بقطرانٍ خفيفٍ، وجعلها سهلة الاستعمال. فأصبح الانتقال بها أمراً يسيراً بالنسبة إلى ملاحٍ واحدٍ، ناهيك عن نظام Arkebüz[1]، الذي يمكن أن ننقل به الحبال إلى مسافات أبعد خلال لحظةٍ».

ابتسمت، وتكلمت بغرور: «بمثل مجموعتي هذه سوف نستمر في تحقيق إنجازاتنا بإذن الله. أتمنى أن أسمع آراءك حول الحملة أيضاً يا باشا».

«كما أشرتم يا سلطاني، سنزيد دعمنا للوثريين، وسنعمل على تأمين تحركهم بحريةٍ وأمانٍ، وعلى الأخص في هذه المرحلة؛ فهذا هام جداً. أما اتفاقية التجارة التي سنجددها مع أهالي البندقية فستسكتهم لفترةٍ طويلةٍ. إن أتباعكم الأرثوذكس، وحتى البطريرك نفسه؛ أصبحوا يتمنون

(1) سلاح ناري كان يستخدم في ذلك العصر، ويمكن من خلاله إيصال طرف الحبل إلى مسافات بعيدة في لحظة واحدة.

انسحاب الكاثوليك من شرق البحر المتوسط تماماً. إلا أنه في هذه الحالة سيستثنى أهالي البندقية!».

بدت على وجهي بسمةٌ مستهزئةٌ نوعاً ما وأنا أقول: «إن أتباعي الأرثوذكس يتمنون هذا. ولكن، ماذا سيفعلون في ما يتعلق بالأموال التي يجمعونها من القوافل التجارية؟! إذا انسحب الكاثوليك من الساحة، فإن هؤلاء سوف يبدأون الصراع مع الأرمن واليهود هذه المرة!».

يتقن الباشا الوصول إلى الحل الوسط كما في كل مرةٍ: «هذه عادة التجار يا سلطاني؛ فهم يفعلون كل شيءٍ من أجل تجارتهم وسلامتها من دون تردد. المهم أن نمنع جنودنا من التحرش بهم، وما تبقى غير مهم».

- على الأقل، أضيفوا إلى الاتفاقية التي ستعقدونها مع أهالي البندقية بنداً حول مرور المساعدات إلى ملك فرنسا فرانسوا الأول على متن السفن التجارية المتوجهة غرباً. فلم يعد هناك من يجهل دعمنا لفرانسيسكو. وإن احتاج الأمر فسأتحدث أنا مع المبعوث البندقي ماركو ميمو.

- لن نأمل بالحصول على عون الكفار يا سلطاني. إن أهالي البندقية الذين تضيق بهم ميادينهم التجارية يوماً بعد يوم مضطرون إلى التعايش مع شارلكان أيضاً. والقراصنة المرتبطون بنا يمكن أن ينجحوا في أداء هذا العمل إن بدّلوا ملابسهم.

- إنني أثق بخبرتك يا بيري باشا. إن ملك فرنسا الآن، هذا الشاب فرانسيسكو واحدٌ من أفراد أسرة كابي؛ وهي من أعرق الأسر الأوروبية. وهو ذكي ومتشبث بالحكم بقدر ما هو أصيل. كما أنه يقاوم الخضوع لشارلكان. وأذكر أنه كلما كانت أخبار محاولاته الرائعة تصل إلى والدي كان احترامه له يزداد. ولو أطال الله عمر والدي لقدم له المساعدة المادية بالتأكيد.

- إن كون فرنسا مستقلة عن شارلكان هام في وضع أوروبا بين فكي

ملزمة مولاي السلطان. إذ إن وجود دولة متطورة حديثاً في الغرب كفرنسا سيعني تحطماً كبيراً لحلم شارلكان. وفي هذه الحالة، ستنشغل ألمانيا بحماية حدودها الشرقية محققة بذلك تفوقاً معنوياً كبيراً.

وهنا، يستأذن إبراهيم للحديث.

- تحدث.

- مولاي السلطان، على الرغم من أن بيري باشا محقّ؛ إلاّ أن ما نحتاج إليه في هذه الأيام ليس فرنسا المستقلة عن ضغط شارلكان، بل على العكس فرنسا التي تئن تحت وطأة ظلم شارلكان.

كانت كل الأنظار مسلطة على إبراهيم مجدداً. وأنا أعرف غرامه بمثل هذه المواقف، وحبه لإثارة الحيرة لدى الناس؛ وهذه الموهبة المدهشة لديه لا يمكن إنكارها...

- ماذا تريد أن تقول يا إبراهيم؟!

- إن ما أريد قوله يا سلطاني هو أنه كلما استمر الضغط الألماني على ولايات فرنسا الشرقية، وفي مقدمتها ولاية بورغونيا، فإن فرنسا لن تتمكن من الخروج من دوامتنا. وكلما كانت بحاجة إلينا، كانت بمثابة خنجر لنا في خاصرة غرب أوروبا. ويجب تأمين استمرار هذا الوضع حسبما أرى يا مولاي.

بادر الوزير الثالث وكبير حراس القصر داماد فرحات باشا إلى تأييد البرغالي:

- إبراهيم آغا محق في ما يقوله يا مولاي. فما من أحدٍ يجهل أن فرنسا في الحقيقة عضوٌ أصيلٌ في الاتحاد الكاثوليكي. لكنّ الفرنسيين وبسبب اعتراضاتهم على زعامة شارلكان لأوروبا وعلى سياسته التوسعية، انكفأوا على أنفسهم، ولا يجدون مفراً من التقرب منا.

وأيّد كل من غازي محمد بك أفندي شقيق ابن عمتي قوجه بالي بك، والغازي خسرو بك، وأمير أمراء الأناضول قاسم باشا رأي البرغالي.

أليـس هذا مـا أريـده أيضـاً؟! بلـى، أرى أن البرغالـي محق. فهو سياسـي محنـك، وذكاؤه لا ريبـة فيـه، ولكنني أرثـي لحـال وديعة أبـي وصدري الأعظم؛ فهو ينحدر بسـرعةٍ كبيرةٍ، وعمره شارف على السـتين، ويبدو أن هذا الصراع قـد أصبح ثقيلاً عليـه. فلننته من هـذه الحملـة أولاً، ولنر بعد ذلك ما سنفعله.

سـارع طاش كوبرولي أحمد عصام الديـن أفندي إلى نجـدة الرجل العجـوز، فتدخل مسـتأذناً باسـم مستشـاري القانوني شـيخ الإسـلام علي جمالي الزنبيللي أفندي:

- إن ما قاله بيري باشـا ليس خطأً، وما سـيحصل على المدى البعيد هو ما قاله بيري باشا يا مولاي السلطان.

أبدى الباشـا بعض الارتياح لهـذه المداخلة، وأبديت بـدوري تأييداً للباشا:

- إن بيـري باشـا يرشـدنا إلـى الطريق المناسـبة؛ وهـو بعيـد النظر. فعندمـا نضيق الخنـاق على شـارلكان سـيبدأ فرانسيسـكو بالوقـوف على قدميه، وكل ما أراد إبراهيم آغا أن يشـير إليه هـو أن لا يكون هذا النهوض مفاجئاً وقوياً، وإلاّ فلن يكون فرانسيسـكو ممتناً لأحدٍ، وسـيرفع رأسه في ولايته الصغيرة، وعندها لن أسـتغرب أن يشـنّ حملة صليبية ضدنا يتعاون فيها مع شارلكان. لا يمكننا أن نثق به حتى النهاية.

صمت بيري باشـا وقـد احمر وجهـه، لكن صمتـه هـذا كان كدويّ الرعود الذي يملأ السماوات السوداء، أو كزئير الأعاصير الكبيرة. وأردت تغيير الموضوع:

- هنـاك همـس يبلـغ مسـمعي حتى فـي هـذا المجلـس، ويزعجني كثيراً، وأريد في هذه الأمسـية أن أشـارككم إياه أيضاً. فأنـا متأكدٌ من أنكم جميعاً قد سـمعتم بـه. إذ يُقـال: إن أبي أراد قتلـي وتنصيب ولـدي الأمير مصطفى مكانـي، لكنه لم يوفـق في ذلك. وكانـت نتيجـة التحقيقات التي

طلبت إجراءها أن هذه الإشاعة كانت واحدة من الأكاذيب التي لا تحصى التي تمّ إلصاقها بوالدي. فكما كانت قصة قتل أربعين ألفاً من القزلباش من قبل والدي تروى بين المسلمين لإثارة الفتنة على الرغم من وضوح السجلات التي تكذبها، كذلك الأمر في ما يتعلق بهذه الرواية التي لا تستند إلى أي دليلٍ. تذكروا أنني ولي عهد والدي الجليل، ولم يكن له وريثٌ على العرش غيري. يزعمون أن والدي لم يكن راضياً عن أسلوب حياتي المسرف حسب رأيه، ولذلك أراد أن يأمر بقتلي، ويجعل ولدي الأمير مصطفى الذي لم يكد يبلغ السادسة من عمره ولياً على عهده، وأن يشرف بنفسه على تربيته. انتبهوا أيها السادة، إن الحديث الذي لا يستند إلى أدلة واضحة تدعمه يؤدي بالإنسان إلى الهلاك؛ لذا امتنعوا عن قول الأكاذيب.

II

كانون الثاني 1522م، إسطنبول

كنت سعيداً لظهور سببٍ يدعوني إلى لقاء أخي الكبير في الرضاعة يحيى أفندي، والاستماع إلى نصائحه. ففي التاسع عشر من شهر تشرين الأول، أي بعد خمسة أشهر ويومين استغرقتها حملة بلغراد، وعند دخولي العاصمة مع جيشي في مراسم مهيبةٍ، عانقت أخي الغالي الذي كان يقف بين المستقبلين، لكننا لم نجد وقتاً للحديث. ثم تلقيت أخبار وفاة أولادي تباعاً؛ الأمير محمود خان، والأمير مراد خان، وابنتي السلطانة فلانة؛ ماتوا جميعاً في وباء الجدري. في تلك الأيام، كنت أتلوى حزناً عليهم، ولم أكن أرغب في لقاء أحدٍ، ونظراً لانشغالي شخصياً بالتحضير لحملة رودوس مؤخراً لم أستطع لقاء أخي.

وعلى الرغم من وجود بعض الحراس الخاصين والدفتردار سنان باشا، كنا نسير متنكرين فيما الثلج يهطل في شوارع إسطنبول فيبدو وكأنه غبار النجوم. وعلى طول الطريق المعبد بالحجارة، غطت العالم زرقة غير عادية؛ لعلها كانت بسبب الثلج، ولعلّ ذلك يرجع إلى شوقي إلى السير في مثل هذا الجو منذ زمن طويل. كانت أقدامنا تطأ طرقات تمتد إلى ما لا نهاية؛ لا تعرف بدايتها ولا نهايتها، طرقات ضيقة ومتمادية في الطول، تعلو تارة وتهبط طوراً، وعلى وجوه البيوت الخشبية المرهقة والمتكاتفة بحنان تلمح عيناي حزناً معتّقاً. ففي هذه المدينة أشياء قديمة استعصت بكل عظمتها على الانهيار، أم إن رد يحيى أفندي على سؤالي كانت فيه إشارة إلى هذا؟ كنت قد سألته فقط: «أنت إنسان مثقف يا أخي وذو رؤية بعيدة. فهلاّ تكرّمت وأخبرتنا بما تتوقع أن تؤول إليه عاقبة آل عثمان.

هل سينقطع نسلهم وينقضي عهدهم برأيك؟! وإن كان الأمر كذلك فما السبب؟».

لكن رد أخي كان غريباً: «وما الذي يعنيني في هذا الأمر يا أخي».

كنا نفكر ببلوغ هدفنا قبل أذان المغرب. كانت معظم الدكاكين ترخي ستائرها، فينبعث من تحتها لون رماديٌّ يُخيّل للناظر إليه أن النجوم تبثه.

كانت البيوت المبنية من الأخشاب التي نخرها السوس، واسودت بتأثير البرد القارس وشمس الصيف الحارقة متداخلةً مع المقابر. وكانت هذه الأزقة المتداعية تمر أحياناً أمام حدائق القصور الفارهة الغنّاء المطلية بلون فخاري ينيرها مثل لون الشمس في أثناء الغروب. لم يكن الدفتردار سنان باشا يعرف معظم أصحاب هذه البيوت التي تغطي نوافذها الأزهار المزروعة في أصص جميلة تحملها الركائز المنحوتة، والتي يغطي اللبلاب جانباً من جدرانها على الأقل. وكانت هذه البيوت تقع خلف أشجار الحدائق الكثيفة.

أما بيوت الناس العاديين، فكانت متكاتفة، وتكاد شرفات سقوفها تتلامس وتترك انطباعاً بميلانها إلى الأمام قليلاً. فيما الأزقة تبدو مظلمةً حتى في الأيام المشمسة، والملابس المنشورة على الحبال المشدودة تملأ الشوارع بروائح ماء الورد والصودا؛ وذلك عندما تهب ريح خفيفة. حينها، كنت أبتسم في حبورٍ، وأستنشق تلك الروائح الطيبة، وأتذكر أيامي في طرابزون.

كان صمت المقابر يثير نوعاً من السكينة في هذه الشوارع المتداخلة، وفي هذه البيوت ذات النظام الغريب. وشواهد القبور، على الرغم من تحطم بعضها خلال حركات تمرد اليني تشري، فهي تبدي حالةً من اليقين في وجه الموت البارد. بعد شوارع عدةٍ، ظهرت مناهل الماء الصغيرة والكبيرة المصنوعة من المرمر، والتي شيّدها بالتأكيد أهل الخير،

فشربنا من أحدها. إن إسطنبول تحتوي على نسيج من الأحياء. حيث يمكن رؤية الأبنية الفخمة التي نراها في المدن الأوروبية؛ وهذه لا توجد إلاّ في أحياء الفرنجة، وكذلك الأبنية البسيطة في الأحياء التركية الخالصة؛ والتي تتميز رغم مظهرها الفقير بأجواء حميمية فريدة.

بعد مسيرٍ طويلٍ وممتعٍ، وصلنا أخيراً إلى آق صراي. يسكن أخي يحيى أفندي في أحد الأوقاف هنا، ويشارك في مجالس العلم التي يعقدها شيخ الإسلام علي أفندي الزنبيللي. وعلى الرغم من إصراري، فإنه لا يقترب من القصر، ولا يرضى بما أقدمه له في مركز إسطنبول. إنه يسعى فقط إلى إتمام تحصيله العلمي. وهو إنسان مختلف تماماً؛ إنه رجلٌ قديرٌ. وأنا على ثقةٍ بأنه في القريب العاجل سيترك بصماته المباركة في إسطنبول.

والآن، ها نحن نقف قرب باب الدار، وتهب علينا من البحر ريحٌ محملةٌ بروائح الملح والطحالب. أظلمت السماء تماماً، ولم يعد بالإمكان تمييز بيت أخي عن البيوت العادية المجاورة. ها هو يظهر بهدوءٍ من خلف بابٍ خشبيٍّ أصدر صريراً عندما فتحه، ويدعونا إلى صحن دارٍ غسلت أحجاره للتّوّ، يغطيه ضبابٌ خفيف. يسارع أعوانه بالاصطفاف في صفين، ويقفون أمامي باحترامٍ، وقد أحنوا رؤوسهم صامتين.

كان أخي يحيى أفندي ككل مرةٍ مرتدياً ملابسه البسيطة البيضاء، ومبتسماً، ومتوكلاً على الله. نتعانق، فتبعث نظراته الراحة في نفسي، وتلامس كلماته القليلة روحي. فهو في الوقت نفسه شاعرٌ وطبيبٌ، ويكتب أشعاراً جميلة تحت اسم مستعار (مدرّس).

يقولون: الله وحده يعرف العلم اللدني
ومسائل الشريعة يعرفها الشيخ
كيف يدري ما السواحل من كان في بحر الروح دفيناً
واللؤلؤ المكنون في الأعماق البحر يعرفه

لا يدرك أهل الأسباب قمة الذوق الروحاني
وعيسى خير من يعرف لذة العزّاب
بطيب الكلام يسحر أهل الروح البلغاء
من لا يدرك أسرار الكلمات، فهو يقول: الله يعلمها
يا شيخ طلاب المدارس، اصبر على أبواب مدارس الحكمة
حتى لا يكذب من قالوا إنك تعرف الكيمياء

بعد تجاوز الباحة المفروشة بالحصى الصغيرة، دخلنا حجرته المتواضعة التي تفوح منها رائحة الدخان وماء الورد. مُدَّ على الحجارة الباردة بساط طويل عليه رسومات، أمّا الرفوف المصنوعة من أخشاب السنديان على الجدران فكانت تعج بالكتب. في إحدى زوايا الغرفة أريكةٌ صغيرةٌ مهترئة مغطاةٌ بقماش الكتان، وأمامها مباشرةً رحلة[1] مصنوعةٌ من خشب الجوز - وهي هديتي له - وفي الزاوية إبريقٌ وطستٌ ومحملٌ لفرشةٍ واحدةٍ ضيقةٍ أمامها ستارٌ، وقربها فرشةٌ مخصصةٌ للضيوف، وعدة قطعٍ من الثياب.

تربعت على الأريكة وشرعت أقول مبتسماً: «أخي، لقد وصلنا الجواب عن السؤال الذي وجهناه إليك بالأمس، إلاّ أننا لم نستطع أن نعطيه معنىً ما».

فردّ مبتسماً: «لقد أجبت بكلام مبطن يا مولانا السلطان! وأستغرب عدم فهمكم إيّاه». فقلت ممازحاً: «كيف ذلك يا أخي؟»».

التقط نفساً عميقاً وأضاف: «لو ساد الظلم والمماطلة، وقال كل من يسمع بهما هذا أمر لا يعنيني، ولم يحاولوا الحيلولة دون ذلك فستحل الكارثة. وهذا ما قصدته حين قلت: أكل الراعي الغنم واتهم الذئب بذلك، وتستر الذين يعرفون هذا الأمر عنه ولم يكشفوا عن فعلته، وتصاعدت آهات الفقراء والمحتاجين والغرباء إلى السموات، ولم تسمع بها إلاّ

(1) مسند خشبي يستعمل لدى قراءة القرآن والكتب.

الحجارة؛ فحينها ستكون الكارثة قد وقعت. وعندها، يخشى على نسلك من الانقراض، وتعلن خزائنك الإفلاس، ويتمرد جنودك ولا يطيعونك، والفناء مقدّر!».

يا لها من كلمات محققة؛ العدل، ثم العدل، ثم العدل. إذا اقتنع الناس أنهم سيحصلون على حقوقهم بعد خضوعهم لمحاكمات عادلةٍ فسيرتاحون في أعمالهم ومعيشتهم. وإلاّ فإن هذا المجتمع محكوم عليه بالانحلال والانحطاط؛ وبالتالي محكوم عليه بالهلاك. يا الله، الشيء الوحيد القادر على إقامة هذه الدنيا هو العدل، وأنا سوف أحقق هذا العدل.

- هل هناك حاجة إلى تشريع قوانين جديدة يا أخي؟

- عليكم أن تسعوا إلى تطبيق القوانين الموجودة تماماً ومتابعتها يا مولاي السلطان. يقول المؤرخ الروماني تاسيتوس: قبل انهيار الدولة تكثر تشريعاتها. نعم، تكثر؛ فعند وضع تشريعات جديدة، يظن المشرعون أنّ في ذلك إحياء لروح القوانين السابقة المنسية، ولكن للأسف يكون ذلك أملاً فارغاً.

- أفهم ذلك يا أخي. ألوي رقبتي وأفكر برهةً، ثم أضيف: «سوف أشن حملةً لإنقاذ المسلمين من إرهاب فرسان رودوس قريباً إن شاء الله. وسوف أجعل الدنيا تضيق بأولئك الفرسان، فهم يهاجمون المسلمين العزّل كل سنةٍ في موسم الحج، ويعتقدون أن استعبادهم نجاح لهم وفوز».

- حتى أولئك عاملهم بالعدل، ولا تظلمهم يا أخي. فإن أخلصت أحسنت، وإن أفلحت في أن تكون محسناً فستكون قد قطعت شوطاً في محاربة الظلم. ولا تنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم عرّف الإحسان بأن تعبد الله وكأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك.

III

نيسان، 1522م

لم يستطع أي طبيب في إسطنبول تشخيص مرض أمي السلطانة حفصة التي مرضت بشكل غير متوقعٍ، واشتد مرضها منذ الثالث والعشرين من ربيع الأول، فضاق صدري بذلك. وحين أدركت خطورة الموقف، أرسلت رسولاً إلى العالم الكبير، والطبيب الذي لا مثيل له مصلح الدين مركز أفندي بتوصيةٍ من أخي يحيى أفندي. وكنت في مرحلة ولايتي للعهد أحضر معظم مجالسه، ولطالما استعنت بنصائحه. وفي الحادي والعشرين من ربيع الآخر عاد الرسول حاملاً معه خلطةً من النباتات الطبية، إضافة إلى رسالةٍ كتبها مصلح الدين مركز أفندي.

«حضرة السلطان سليمان خان! علمت بنبأ مرض السلطانة الطاهرة حفصة عالية الشأن ببالغ الألم. ومن أجل دفع هذا المرض عنها بعناية الله وبإذنه الكريم، أرسل إليكم معجوناً حضّرته من أربعين صنفاً على نيّة الشفاء، فإن استفادت منه، فعليكم أنتم وأحفادكم الاستفادة منه أيضاً!».

أشكر الله على نعمه، إذ لم تمض سوى عشرين يوماً حتى شفيت أمي، وبدأت تتجول في حديقتي الخاصة، وظهرت علامات التحس على وجهها الذي بدأ يتفتح كالورود. وطلبت مني تحضير هذا المعجون في الوقت نفسه من كل سنةٍ، وتوزيعه على الشعب في جامع السلطان في مانيسا. كانت طلباتها أومر واجبة الطاعة بالنسبة إليّ. وكان ذاك المعجون الذي سمّاه مصلح الدين أفندي معجون المسير مصنوعاً من القرفة، والفلفل الأسود، والبهار الجديد، والقرنفل، والحبة السوداء، وحبة

الخـردل، واليانسـون، والكزبـرة، والزنجبيـل، وزهـرة القرفـة، والكركم، وجـوز الهنـد، والشـمرة، والكبابيـة، والسـنامكي، والإهليلـج الأصفـر، والفانيليـا، وفلفـل الـذرة، وحـب الهـال، وشـرش الحلـوى، والظلمبـاء، وخيارشـمبة، والعصفـر، والإكسـير، والكمـون، والجلنجـا، وصمـغ الصنوبر، والميرصافي، وعسل السـوس، والحول الشامي، وقشر الليمون، والطرطير، والزعفران، وعود القهر، وصحن العود، والإسـكير، والترياق، والراوند، وملح الليمون، وبذرة مرجان التيس، وعسل الشمس.

أيار، 1522م

رغم صغر ما حـدث اليوم، فأنا أشـعر بالفخـر والاعتـزاز حين أرى العدالة التي أبدي تجاهها حساسيةً كبيرةً وهي تتأسس على أراضي دولتي.

ففي قريةٍ مـن القـرى القريبة من الأسـتانة، بـدأ رجـل بحراثة أرض اشـتراها من شـخص آخر. وقبل أن يمضي زمنٌ طويلٌ، علق محراثه بجرةٍ مليئـةٍ بالذهب الأصفـر، فانطلق فوراً إلـى الرجل الذي باعـه الأرض يريد تسليمه جرة الذهب وهو يقول: «لقد اشـتريت منك سطح الأرض، وليس الذهب الذي فيها. وما كنت لتبيعني الأرض بالثمن المتفق عليه لو علمت بوجود هذا القدر من الذهب فيها، فخذ ذهبك».

فأجابه مالك الأرض السـابق: «لقد بعتك الأرض كمـا هي؛ بترابها، وحجرها. وهذا الذهب ليس من حقي. إنه لك فافعل به ما تشاء».

تضايق الفلاح الـذي عثر على الذهب، وأصر على نقل المسـألة إلى القاضي، وكـرر دعواه أمـام القاضي. اسـتمع القاضـي إلى المسـألة بدقةٍ، وأعجب بحرص الطرفيـن على التقـوى والعدالة، فما كان منـه إلا أن قرر تزويج بنـت الأول بابن الثاني، وجعـل الذهب مهراً بينهمـا، وأضاف: «إن الزمن زمن السلطان سليمان خان، ولا ينبغي فيه أن نحيد عن العدل مقدار شعرةٍ. ولا نرى إلا المصاهرة حلاً يليق برجلين في مثل ورعكما».

30 حزيران 1522م

نبدأ المسير بالمهابة نفسها، فيما دوي الطبل العملاق يصل إلى الآفاق، ويبلغ الأسماع على بعد عدة فراسخ معلناً عن انطلاق الزحف الكبير. وكانت أصوات الطبول تثير الحماسة في الصدور، وتصم آذان عشرات الآلاف من المودعين المصطفين على طول طريق الديوان في أثناء مرور الطوابير بأسلحتها المخيفة، وبريق دروعها، وجمال ملابسها ذات الألوان الزاهية. عن يميني، سار الفرسان بدروعهم ذات السلاسل، وملابسهم القطنية الصفراء والأرجوانية، وعن يساري سار رجال السلاحدار بقبعاتهم الحمراء، وأمامي مباشرةً سار الخيالة من عبيد القصر والغرباء برماحهم التي تتدلى من رؤوسها المشربيات المصنوعة من ذيول الخيل، وجعبهم الحمراء المبهرة. تقدّمت معهم، وعلى جانبي حصاني الحراس العُسُر والحراس الخاصون بثيابهم الصفراء والحمراء التي تتدلى منها المشربيات وبقبعاتهم المخروطية المائلة. استعرضت وحداتي وأنا أحيي شعبي ممتطياً حصاني الأبيض الذي كان بريق درعه المزينة بلآلئ المحيطات الجنوبية، والألماس، والزمرد، والياقوت يكاد يخطف بصري.

كنت مضطراً إلى الابتسام حتى لا أكشف عن القلق الذي يعتريني من تمنع هذا الموقع الأكثر تحصيناً في العالم، والذي رُدّ جدي الفاتح عن أسواره ثلاث مراتٍ. لقد لبست درعي وتسلحت بسيفي لتكون رودوس في قبضتي، أو لأهلكن عند أسوارها. ولكن، هناك في الأعماق، وفي مكان سري أنينٌ يسري بفتنته المؤلمة التي تكاد تفضحني. فكيف أكتم حزني على فراق حبٍّ يكاد يحرق قلبي ويفنيني؟ أعرف أن كل شيء يبدأ بكذبة، ولكنْ، كيف سقينا كذبتنا المشتركة خلال الأيام والشهور والسنوات حتى نمت كزهرة جميلة فريدة؟ وكيف تعانقت روحانا عناقاً شديداً في وجه الرياء، وتشابكتا كجذور اللبلاب المتسلقة؟!

في الأسبوع الثاني من شهر أيار تجادلنا حول مسألةٍ بسيطةٍ، ويحز

في نفسي الآن الموقف الذي اتخذته. فمنذ زمن وحرّم تتحكم بدخول النساء قصر الحريم وخروجهن منه أكثر مما تتحكم به والدتي السلطانة حفصة. وما من شكٍ في أنها تعمل على إقصاء منافساتها من النساء؛ إما باحتوائهن أو تزويجهن وإبعادهن عن القصر. وأنا أراقب هذا من دون اعتراضٍ. وكيف لي ألا أسكت وفيها كل ما أبحث عنه؟! فقد قدمت لي حبها الفريد، وأنجبت لي الأمير محمد خان الذي يساوي الدنيا كلها بالنسبة إليّ. ولم تعد تخيفني أي كذبة أخرى، ولهذا أبتسم في راحةٍ ولا أبالي، لأن المبالاة لم تنفعني... ولهذا، أنا الآن أرى بوضوح أكبر مقدار عجزي وخواء قدرتي من أي معنىً حقيقيٍّ.

كان الجدل قد ثار بيننا حول الجارية صوفيا التي جاءت مع الهدايا التي أرسلها فرانسوا. فهذه الفتاة الفرنسية في العشرين من عمرها، ولا تعرف كلمةً واحدةً من غير لغتها، وتبكي دائماً. وما أعلمه أنها من أسرة عريقة. امتنعت صوفيا عن تناول الطعام والاغتسال منذ أن وطئت قدماها قصر الحريم. فأشفقت على حالها، وأمرت آغا الحرملك بأن لا تجبر على أي شيءٍ. غير أن ذلك لم يجد نفعاً، فلم تكن تأكل إلاّ بضع لقيمات تقدمها لها الجواري في الليالي، وتستمر في صمتها.

أوصاني إبراهيم بزيارتها ورؤيتها علّ زيارتي تجدي نفعاً. لكن حرّم اعترضت على الزيارة بوجهٍ عبوسٍ، ورأت أنه من غير المناسب أن يذهب سلطانٌ عظيمٌ إلى جاريةٍ قدمت حديثاً، وطلبت أن أترك الأمر لها لتتولاه بنفسها، وقالت إنها ستقدم هذه الفتاة إلى سلطان العالم بيديها في أبهى شكلٍ. ومضت أيامٌ أخرى من دون أن يتغير شيء من أمرها، فزرتها ذات ليلةٍ في الحرملك ومعي إبراهيم والمترجم الفرنسي. وعندما رآني آغا الحرملك ومعي رجلان غريبان، نقر على دفٍّ صغيرٍ، فأخلي المكان، وأمرت بأن تبقى صوفيا وحدها.

لا بد أن صوفيا قد توقعت قدومي من حركة آغا الحرملك، فقامت

لتحييني بوجهٍ واجم. كانت في حالةٍ مزريةٍ، فشعرها الأشقر المتلبد يتناثر على كتفيها، ورائحةِ العرق تفوح منها، ولم يفلح أحدٌ في إقناعها بتبديل ذلك الفستان المتسخ. ولكن، على الرغم من كل ذلك، لم تكن تخفى عن العيون رشاقتها الجذابة التي تطالعك بها قامتها الفارعة، وخضرة عينيها التي بدت وكأنها تزيد من حجمهما. ولم تكن بشرتها بيضاء كتلك البشرة التي يتمتع بها ذوو الأعراق السلافية، بل كانت تشع بشفافيةٍ ساحرةٍ لا تصادفها إلا عند اللاتين في البقاع الشمالية. فإذا كانت صوفيا جميلة هكذا وهي في هذه الحال، فكيف ستبدو في يومٍ جميلٍ تعيش فيه كما يحلو لها. لم يكن إدراك ما كان إبراهيم يشعر به صعباً من خلال النظر إلى عينيه، فقلت ممازحاً وضاحكاً: «إن كنت تريدها فلك أن تأخذها».

أحنى إبراهيم رأسه في حياءٍ شديدٍ وهو يقول: «إن فتاة كهذه تليق بحاكم العالم فحسب يا مولانا».

- أهي جميلة إلى هذه الدرجة يا إبراهيم؟!

- إنها جميلةٌ أكثر مما يمكن للمرء أن يتصور يا مولاي. هذه الفتاة مثل حلم يستحيل تحققه، ومثل صاعقة تجعلكم تعيدون كتابة ديوانكم الشعري مجدداً، في عينيها عالمٌ سحيقٌ من الأسرار يمكنه أن يرقى بشاعريتكم إلى أماكن عصيةٍ على الخيال.

- يوجد هنا الآن شاعرٌ واحدٌ، وهو أنت يا إبراهيم.

قلت ذلك والحيرة تتملكني، فرأيته ينظر إلى عيني في دهشةٍ:

- مولاي السلطان، ألا ترون أن هذه الفتاة تحمل جمال عهدٍ قائمٍ بذاتهٍ؟!

- أرى ذلك. ولكنني لا أكترث يا إبراهيم، فالروح لا ترضى بالثنائية ولا تتسع لأكثر من حبٍ واحدٍ. فأنا قد وجدت حرّمي مرةً، ودونها يخبو جمال العالم كله في نفسي يا إبراهيم.

أمرت المترجم بأن يقول لها: «لا تنزعجي، ولا تشعري بالقهر

هكـذا، ولتغتسـلي، ولتملئي معدتك، فسنسـلمك إلى مبعوث فرنسـا على متن أول سفينة».

فقال المترجم:

- ليسـت المشـكلة في بقائها هنـا. فالفتاة راضيـة بالبقـاء، ولكنّ ما يزعجها هـو المعاملة السـيئة التـي تلقاهـا من السـلطانة حرّم؛ فهـي تقول إنه منذ قدومهـا إلى الحرملك وهي مهـددة بالقتل. فإمـا أن تظل هكذا في حالةٍ متسخةٍ تبعدها عنها، وإما سـتلجأ إلى حيلةٍ تودي بحياتها في النهاية. وهي تدرك الآن أنها تلقي بنفسـها في التهلكة بهذا الاعتـراف، ولكنها تثق بعدالتكم.

فقلت ضاحكاً: «ألا ترى يـا إبراهيم؟! ماذا يمكننـي أن قول في مثل هذا الوضع؟».

تمتم إبراهيم فيما الانزعاج يبدو على محياه: «أنتم أدرى يا مولاي».

- ولكنني أسألك عن رأيك.

- لا يمكن لأحـدٍ أن يدّعـي حقاً على سـلطان العالـم، حتـى لو كان ذاك الشخص زوجته الشـرعية. إنه فوق الجميع، ويحق له أن يحكم وينفّذ من دون أي اعتراض. أما رأيي في هـذا الموقف فهو أنه ينافي الأدب، ولا ينبغي لأحدٍ أن يفكر في ذلك مجرّد تفكير.

كان إبراهيم محقًّا فـي ما قاله. وكنت بفضل هـذا الحدث قادراً على رؤية ما يمكن أن تفعله حرّم من أجل حبها وشغفها.

- إن هذا يتجاوز الغيرة يا مولاي، إنها تتلاعب بكم من دون احترام.

دهشـت كثيراً حين سـمعت ما قالـه، لأنّ إبراهيم لـم يقل يومـاً كلمةً سـيئةً بحق حـرّم. ومـا إن عدت إلـى جناحي الخـاص حتى ظهـرت حرّم أمامي بهيئتها المنكسـرة، وعباءتها الطويلة العنابية المشـدودة من وسـطها بحزام رفيع تتدلى حتـى تلامس عقبيها، ومـن فتحة العباءة يبدو سـروالها الحريري الأخضـر بلون الزمـرّد. وكان صـوت خفيها المخمليـن اللذين

يغطيـان قدميها الصغيرتين يثير مشـاعري... لقد كانت جميلـةً تكاد تحرق روحي. حاولت أن أبتسم لكنها لم تقابل ابتسامتي بمثلها. شعرت بروحي تتماوج في شـعرها الأشـقر، وتزلزلت مجدداً في تيار غضبها الذي تغلغل في نخاع عظامي. وقبل أن أنبس ببنت شفةٍ؛ سمعتها تقول:

- هل أعجبتكم تلك الفتاة كثيراً؟! ما اسمها؟! آه، نعم صوفيا.

- لا تفعلي هذا يا حرّم. ألم تري حال المسـكينة؟! ولا يحق لك أن تتصرفي معها هكذا.

- وكيف تصرفـت معها؟! قالت ذلك ورعشـةٌ عصبيـةٌ غاضبةٌ تظهر على شفتيها الورديتين.

- لقد هددت الفتاة.

- أهي التي قالت هذا؟! واحتد غضبها.

- لا يهـم من أخبرنـي ذلـك. وأضفت بصبـر: «لن يتصـرف أحدٌ أو يقوم بأي أمر من دون إذني وأمري».

ترقرقت دموعها في عينيها الزرقاوين وسـالتا فـي روحي: «ألا ترون أن هذه مكيدة؟! ألا تدركون أنها لعبةٌ للتفريق بيننا؟!».

تكسّـر التمثال السـلطاني المتحجر فـي داخلي دفعـةً واحـدةً متأثراً بدموعها:

- أي لعبةٍ؟ وأي مكيدةٍ يا لب روحي؟!

- إنها لعبة إبراهيم. إنه يغار من حبكم لي، ولا يحتمل حبنا، ويضيق ذرعاً بكل شيء بيننا، ويخطط ضدنا...

- من أين تأتين بكل هذه الأفكار يا حرّم؟

- إنني أستقي أخباره.

قطبت جبيني، ولوحت بإصبعي في حركة إنـذار كما لو كنت أعاتب طفلاً صغيراً:

- ممـن تسـتقين الأخبـار؟ ومـاذا تدبرين يـا حـرّم؟ وهـل لوهيمي

أورخون جلبي علاقة بهذا؟ حذار يا حرّم، حذار أن تستعملي رجالي ضد بعضهم، حذار يا حرّم. لا تحاولي أبداً استغلال حبي لك كنقطةٍ ضعفٍ.

تابعت زوجتي وكأنها لم تسمع ما قلته:

- ... لم يتوقع يوماً أن نحب بعضنا إلى هذه الدرجة. وهو اليوم يحاول تغيير ذلك بتعريفكم بامرأةٍ أخرى، ويحاول شدّ انتباهكم إلى امرأةٍ أخرى لا تستطيعون رفضها. ألا ترون يا مولاي السلطان أن من أرسل صوفيا ليس فرانسوا؛ بل إنه البرغالي ذاته الذي أقنع القبطان بنقل الفتاة من كورسيكا إلى السفينة.

- بالله عليك يا حرّم، أتدرين معنى ما تقولينه؟ إن إبراهيم أفضل صديقٍ لي شئت أم أبيت. بفضله تعرّفت عليك، وبفضله تزوجتك. وهل حدث أن تزوج سلطانٌ جاريةً؟! فقد مُنِع السلاطين العثمانيون من عقد قرانهم على أيّ جارية، وقد خالفت ذلك وغيّرته من أجلك.

- اسألوه إن شئتم... اسألوا البرغالي... أجبروه على الإجابة... وابحثوا عن علاقته بهذه الفتاة...

- كفى يا حرّم! لا يمكنني أن أتخلى عن صديقي افتراء من أجل هذا.

صرخت حرّم قائلةً:

- إنه ليس صديقاً لكم، إنه ليس نداً لكم، ولا يمكن لأحدٍ أن يكون نداً لكم.

- ألهذا أنا وحيدٌ يا حرّم؟!

- أنا موجودة يا سلطاني، ألست كل شيء بالنسبة إليكم؟! وألستم أنتم كل شيء بالنسبة إليّ؟!

- إن ما أتمناه الآن أن تهدئي قليلاً يا حرّم.

همست بغضبٍ مخيفٍ وهي تبدو كساحرات الشمال في الأساطير الكلدانية: «إبراهيم ليس سوى عبدٍ بسيطٍ سافلٍ وخائنٍ». وصمتت

للحظات من دون أن تتنفس، ثم سألتني:

- لماذا تحدقون إليّ هكـذا؟! أعلم أنكم تقولون في سـرّكم: إذاً، ما الفرق بينكما؟

سـرت نحو النافذة، وبدأت أتأمّل حزم الأشـعة الحمـراء التي تمزق غيوم العاصفة التي تغطي المضيق، ثم تغرق في ظلمة المياه وقلت لها:

- إنك حساسـة جداً يـا حرّم. هـل تسـتحق الغيرة كل هـذا الغضب الشـديد؟! ألا تعلمين أنني لن أفكـر بأمرٍ كهـذا لأجلك؟ ألـم تدركي بعد مقدار حبي لك؟ ألا تعرفينني جيداً بعد يا حرّم؟!

ركضت، وركعت قرب قدمـيّ، وانكبت على يـدي مُقبّلة إياها وهي تقول:

«أتحبنـي حقاً يا مـولاي؟! كم يمكنـك أن تحبني والدنيـا كلها مُلك يديك؟!».

همست وأنا أداعب شعرها الأشقر:

«ليتك تدركين كم هي ضعيفةٌ هذه الدنيا، وكم هي مسكينةٌ أمام حبي لك يا حرّم».

- لا أستطيع أن أفهم...

- ألا يكفيك أي شيء يا حرم؟

- لا يكفيني.

- أحبك...

نهضت وهي تصـرخ: «لسـت أدري. مـا أريده هـو أن لا تـروا تلك الفتاة مرةً أخرى».

لقد فقدت صوابها من شـدة غيرتهـا؛ وإلاّ فمن ذا الـذي يجرؤ على رفع صوته في وجهي هكذا!؟

وصرخت أنا هذه المرة:

«كفاك! أنسيت مع من تتكلمين؟!».

- ما الذي ستفعلونه؟ أستسلمونني أنا أيضاً إلى جلادكم؟

- لا تضغطي علي يا حرّم، ودعيني الآن بمفردي.

- أنتم لا تحبونني. ولو كنتم تحبونني لما ملتم إلى امرأة أخرى، ولما فضّلتم صداقة ذلك العبد السافل على حبي لكم.

التفت نحوها ورميتها بنظرةٍ حادةٍ، وإذا بتلك العواصف التي كانت تهب قبل قليلٍ في عينيها الزرقاوين المتسعتين خوفاً تهدأ في الحال.

- اخرجي الآن... اخرجي فوراً.

فما كان منها إلاّ أن خرجت وهي تجري، وعلى وجهها تسيل الدموع كالسواقي في ألمٍ مشحونٍ.

الفصول الأربعة
(وهيمي أورخون جلبي)

I

3 أيلول 1522

كانت ليلةً حارةً. خرجت كالمعتاد متمنياً تحقيق النصر الساحق بسبب شعوري بالخوف والقلق. لقد كان فرماناً من السلطان، فرماناً لا رجعة فيه ككل الفرمانات. فقد قال لي وهو يشعر بالضيق، وبحدّةٍ تذكّرني بأبيه: «أريد رأس الأستاذ الأكبر، أريد فل دو ليسل آدم، ولا تتعب نفسك في المحافظة على رأسه أو في الخشية من اتساخه، أو عدم وضوح ملامحه، يكفيني أن تحضر لي أي علامة تدل عليه».

في مثل هذه الأوقات، كنت أتصالح مع نفسي، وأركز اهتمامي على الهدف، وكأنني أنفث النار من يديّ وقدميّ. وكانت أسناني تصطك بشدةٍ، فأحرك فكي السفلي بقوة يمنةً ويسرةً حتى ترتخي عضلاته. وحين كنت أنتبه إلى أنّ كتفيّ مشدودتا العضلات، كنت أتنفّس بعمقٍ من أنفي من دون أن يشعر بذلك من أتحدث معهم، وأحاول أن أسترخي لأن توتر الإنسان يظهر في البداية في تشنّج كتفيه؛ كما سبق لي أن ذكرت من قبل.

تقدمت خفيةً في الظلام، وفي هدوءٍ تامٍّ على طول الأرض الجرداء الممتدة حتى أسوار القلعة. لا بدّ أن أحد رجال دون أندريه دامارال قد أنزل لي سلّماً مصنوعاً من الحبال من أحد الأبراج الشمالية الغربية

لأسـوار القلعة، وهو أعلى الأبـراج؛ إذ يبلـغ ارتفاعه اثنين وعشـرين متراً. إحدى الأسيرات من جاسوسـاتنا داخل القلعة سترشدني إلى مكان السلم من خلال الشـرر الصـادر عن حجـري الصـوان عندمـا تقدحهمـا معاً في فتراتٍ متقاربةٍ. لا يمكننـي الانتظار لحظةً واحدةً. ولـو كلّفتم بعمل كهذا، فسـتدركون أن أسـوأ مـا يمكـن أن يصيبكم هـو التردد فـي اتخـاذ القرار. لذلك، كان يجب عليّ أن أتحلى بالدقة والسرعة والقوة أكثر من أي وقتٍ مضى.

نعم، كان يؤرقنـي كثيراً أن أتجـول في المكان مثـل مهرجي القصر، مرتديـاً ملابـس الفرسـان المتدربيـن. غيـر أن القميـص الأزرق ذا الياقـة والكمين الواسـعين، والبنطال ذا السـاقين الضّيّقتين اللتيـن تضغطان على عضلات رجليّ، وردائي المصنوع من القطيفة السـوداء كسواد الليل؛ كلها كانت تخفيني عـن الأعيـن المترصدة في الأماكـن الصخريـة الضيقة التي كنت أختبئ فيهـا. فبفضل ردائي الأسـود تحديداً لم يكن أحد يسـتطيع أن يميزني وسـط الظلام الحالك. حتى إن الحذاء الجلدي الـذي كنت أنتعله كان شـديد السـواد كالحبر الفارسـي، ولم يكن يحدث صوتاً عند السـير؛ وكأنني أرنب يسير بخفّة.

كانت النجوم تبدو وكأنها قد تفرقت بفعـل الرياح الدافئة التي تهب، وانغرسـت في الليل المدلهم. وكان قلبي ينتفض أحياناً، فأتخيل أن صوته سيسـمع من الخارج، وكأنه سـيقفز مـن صدري. كنـت أحاول أن أبتسـم لأنني أعلم جيداً أن الابتسـامة التي سأرسمها على شفتيّ وإن كانت خفيفة فستوجّه فهمي وإدراكـي توجيهـاً إيجابياً. ولكـن اللحظة التي عشـتها في تلك الأثناء كانت وكأنها ذكرى، وذكرياتي في الأصل هي المستقبل نفسه. وربما كان تأثير الظلام شديد الحلكة يشوش وعيي. فقد خيّل إليّ أن الليل قد انفتـح أمامي كمرآةٍ قديمـةٍ للزمن، إطارها مرصعٌ بالأصـداف والعقيق، وقد تراكم عليها تراب العصور. شـعرت برأسـي يدور، ولم أكن أسـتطيع

التخلص من تلك التأثيرات الخيالية للماضي، والتي امتزجت مع الحاضر والمستقبل.

في الساعة المحددة تماماً أضاءت الشرارة، كانت صغيرةً وبعيدةً، لكنها كانت في تأثيرها كافيةً لتجديد آمالي. حثثت الخطى مسرعاً إلى هناك، وتسللت إلى الخندق الذي يرمي فيه الطرفان جثث موتاهم في ساعات المساء بتسامحٍ متبادلٍ. كان عمق الخندق عشرة أمتارٍ. ولكن، بفضل طلقات المدافع التي راكمت الحجارة فيه، فكرت في أن تخطيه لن يكون صعباً كما يبدو. وبالفعل لم أكن مخطئاً في ذلك. عبرت الخندق بسرعةٍ، ووصلت إلى أسفل الجدار. رفعت رأسي ونظرت إلى أحد الأبراج الذي لم أرَ بعده سوى فضاء الليل الواسع بنجومه اللامعة، غير أنني لم أرَ هناك أيّ شخصٍ، وتناهى إلى سمعي حديث الجنود الذين يقومون بالحراسة في موقعٍ ليس ببعيدٍ. يبدو أن الفترات التي أمضاها هؤلاء الفرسان في أمانٍ قد جعلتهم يتراخون إلى حدٍّ ينسون فيه القواعد الأساسية؛ وهذا يعني أن النظام العسكري العثماني يتضمّن الكثير مما ينبغي لهؤلاء الفرسان ومدربيهم أن يتعلموه.

بدأت أتسلق السّلّم كريحٍ باردةٍ، أو حلمٍ وحيدٍ، أو صوتٍ مختنقٍ بعيدٍ، وقد تجردت من كل شيءٍ حتى من نفسي. وكانت قدماي ترتعشان كلما ارتفعت أكثر، واهتز السّلّم بشدةٍ بفعل الرياح التي هبت فجأةً محمّلةً برائحة البارود والدماء والطحالب. منذ نعومة أظفاري وأنا أكره المرتفعات. ولكن، كان عليّ أن أتابع التسلق لأنني أعلم أن الخوف إذا أسر الإنسان مرةً فلن يدعه وشأنه أبداً؛ إذ تتيبّس عضلات المرء أولاً، ثم يضيق صدره، ثم يبدأ عموده الفقري بالتجمد؛ إنه يعذب الإنسان كثيراً قبل أن يقتله.

ولكنني لست طفلاً، فتهديد شخصٍ يحيا وسط النيران بالنار أمرٌ غير ذي جدوى. عدت إلى نفسي، وغرقت في ذكرياتي... لقد تسلقت قلاع

العذاب، وتجرعت القيح، وغصت في بحور الـدم. وكنت أنت يا صديقي وأخـي وولي نعمتي ومـولاي السـلطان ياووز سـليم خان مـن ألقيتني بلا هوادةٍ أو رأفةٍ فـي تلك الظلمات خـارج العالم. ولكن، رغـم ذلك، ظلت رئتاي على مر السـنين تدميان بحبـي اللامتناهي لك. كان من السـهل جداً أن تكره سلطاناً أو إمبراطوراً أو ملكاً، ولكن، ماذا عن محاولة فهمه؟!

تسلّقت البرج ثم نزلت إلى المدينة. وأول ما شممته هو تلك الرائحة التي تبعث على الغثيان، والتي ملأت المـكان، والمنبعثة من الفارس الذي يبدو أنه يعتبر الاغتسـال والنظافة شـيئاً مهيناً. وأمام تلـك الرائحة المقزّزة التي لم أشمها منذ مدةٍ، لم أجد أمامي حلاً سوى أن أخرج منديلي المعطر بماء الورد، وأضعه على أنفي.

لم أكد أخطو عدة خطواتٍ حتى بدأت فصائل مدافع الهاون بإطلاق النيران بناءً على أمر السـلطان. ووفقاً للمخططات التي سبق لي أن رأيتها، مشـيت في الشـوارع المظلمة إلـى أن رأيت بـرج الجرس لقلعـة القديس جين. تقدمت بخطىً واثقةٍ من النوافذ، حتى سمع الخدم الذين اختبأوا في أقبية المنازل وقع قدميّ. في تلك الأثناء، أصابت قذيفة مدفع هاون سقف منـزلٍ جميلٍ أبيـض اللون يقع إلـى جانب حديقـةٍ تكسـوها الخضرة على مقربة مني. غيـر أن صـوت ارتطامها الذي يصـم الآذان وصـوت الأوعية والأواني الزجاجية المتكسرة لم يفزعاني رغم شدّتهما.

كان الدخـان قـد بدأ يتصاعـد من الفتحـة التـي أحدثتهـا القذيفة في سـقف المنزل، واندلعت الشـرارات الأولى للحريق، وتصاعدت أصوات الاستغاثة من البيت، ولكن لم يكن لدي متسعٌ من الوقت للانشغال بها... وبعد ذلك، دوّى انفجارٌ آخر على مقربةٍ مني، وتناهى إلى مسـمعيّ صراخ امرأةٍ وطفـلٍ يصـك الآذان... ثم توقّـف الزمن عنـدي، وتحول إلـى أزمةٍ أبديةٍ لا نهاية لهـا، وتداخلت الأحداث كلها في بوتقـةٍ واحدةٍ. بدا لي برج القلعة مرتفعاً فبحثت على الفور عن طريقٍ بديلٍ. وسـرعان ما عثرت على

شـارع ضيق مظلم مرصوف بالحجارة على بعد عشـرين ذراعاً من كنيسـة على النمط القوطي. أسـرعت الخطى، ودخلت شـارع الفرسـان الموازي لشـارع مـولاي ذي الأبنيـة البيضـاء المائلـة المبنية علـى الطـراز اليوناني القديم.

عندما سـمعت الدوي الصـادر مـن مينـاء مندراكي، ورأيـت الضوء المشـؤوم برتقالي اللون الذي أضاء ظلمـة الليل، أدركـت أن هناك حريقاً بدأ يندلع فـي الجـوار. كان قصر ليسـل آدم يقع في نهاية الشـارع حسـب الوصف الـذي تلقيته، ويقع قصـر حليفنـا دون أندريه دامـارال إلى جواره تماماً. وكانت دوريات الحرس التي تسـير على طول الطريق، والمشـاعل المضيئة في حدائق المنازل تصعب علي مهمتي. كنـت أمام أحد خيارين: إما أن أستخدم شـارعاً جانبياً آخر كنت قد لاحظته في أثناء المسير معرضاً نفسي للتهلكة باعتباري غريباً عن المدينة، أو أن أجازف متجاسراً وأمضي في طريقي معتمداً على ملابسي وعدّة لغاتٍ أجنبيةٍ أعرفها.

وحسـمت أمري علـى أن أمضي نحـو هدفي بخطـىً ثابتـة، ورأيت ذلك خيراً من السـير متخفياً كلصٍّ. كنـت أعتقد أنني سأسـتفيد قليلاً من الجلبة التي تحدثها مدافع الهاون؛ ممّا منحنـي نوعاً ما الجرأة على متابعة المسير.

انحنى اثنـان مـن جواسيسـنا المتخفين في زي الأسـرى المسـلمين تحيةً لي في أثناء مروري بجوارهما، وأشارا إلى المنزل الموجود في نهاية الطريق. مرت أمامي مجموعةٌ مسـرعةٌ من الفرسـان الذين يتصبّبون عرقاً، ثم ظهر أمامي فارسـان يمتطيان حصانيهما ويحملان رمحيهما، ويحرسان الأسـرى الذين يقومـون بمـلء الأكيـاس الكتانيـة بالرمل فـي حديقة أحد المنازل. وخارج المنزل، جلست أسيرتان شابتان ترتديان ملابس مصنوعة من قماش سـميك. كانتا تصلحان ثياب الفرسان الشهيرة بيضاء اللون التي رسـم على كلّ منها صليب أحمر كبير، بالإضافة إلى القلنسوات. ففرسان

القديس جين يسندون الأعمال المنزلية إلى الأسيرات لأنهم لا يتزوجون؛ شأنهم شأن فرسان المعبد.

كان هناك وجه مألوف يقف بانتظاري عند بوابة حديقة قصر ليسل آدم الكبير المشيد من الرخام والجرانيت، والمحاط بالأعمدة المشيدة على طراز كورينث[1]. كان شارباه الطويلان المفتولان يبدوان بوضوح على ضوء المشاعل الخافت. أما شعره الطويل المدهون بالزيت فقد ربطه في مؤخر رأسه... عرفني على الفور، وأشار بهدوءٍ إلى أن الباب مفتوحٌ، ثم ذهب باتجاه اثنين من الفرسان المتدربين اللذين كانا يتناولان بعض الطعام وهما واقفان. لم أكن أصدق أن الأمور تجري في يسر هكذا. وإذا استمرت الحال على ما هي عليه، فسأكون بعد قليلٍ داخل منزل ليسل آدم. ولو نجحت في ذلك فسيكون خلاص الفارس من يدي أمراً في غاية الصعوبة.

دخلت الطريق المرصوف بالحجارة والممتد حتى باب القصر الكبير المصنوع من شجر الجوز، ورأيت عدداً من فرسان ليسل آدم متواجدين في الحديقة. كان لديّ ثلاثة رجالٍ على الأقل في الداخل. كان أحدهم سائساً، وكنت أعلم أنه في تلك اللحظة يراقبني بطرفي عينيه من حيث يقف في الإسطبل. أما الثاني فشابٌّ يعمل ساقياً لمحاربين يتناولون الطعام إلى المائدة الموضوعة تحت المظلة الكبيرة المستقرة في الحديقة التي يغطيها البنفسج. كنت أعلم أنه أسيرٌ منذ خمس سنواتٍ، وكان بإمكاني أن أخرجه من هناك لو أراد، لكن والده ووالدته المسنين لم يكونا في حال تمكنهما من القيام بمثل هذه المغامرة. لذا، كانوا يواصلون حياتهم في الأسر كغيرهم من المسلمين، لكنهم كانوا في وضعٍ يمكنهم من أن يكونوا بجوار الفارس الإنجليزي العجوز الذي يخدمونه. إن ما يقوم به هذا الشاب الآن عمل تحيط به المخاطر في ما يتعلق بعائلته، لكنه

(1) الأبنية الرومانية القديمة المشهورة بالمدرجات والأعمدة الحجرية والتماثيل.

تطوع للقيام به، وأنا لا يمكنني ردّ رجلٍ في وسعي الاستفادة منه.

كان القصر من الداخل مزدحماً ورديء التهوئة، وكانت رائحة اللحم الدسم والزيت المحروق والبصل المنبعثة من المطابخ تملأ المكان. تبعني أحد جواسيسي وتجاوزني متفقداً المكان، ثم اقترب مني بهدوء وهمس: «الطابق الثاني».

تقدمت بين التماثيل التي وضعت في تجاويف الجدران، والتي يصل طول بعضها إلى ثلاثة أمتارٍ، وبين اللوحات الجصية الرائعة ذات الألوان البراقة على الجدران. وعندما لاحظت أن قدمي تنزلقان فوق الأرضية الرخامية بشكلٍ ملحوظٍ، أدركت أن المطبخ في الطابق الأسفل مباشرةً. قيل لي إنه عليّ أن أصعد السلالم الدائرية التي حدثوني عنها من قبل للوصول إلى الأعلى، لكن الطابق العلوي بدا لي هادئاً تماماً. وقد تعلمت من تجاربي السابقة أن أعتمد على حدسي في هذا العمل، لكن الوقت لم يكن يسمح لي بالتردد... لذا، تسلقت السلم بخطىً متثاقلةٍ وأنا أحمل السيف في يدٍ وسكين الفرسان القصير في الأخرى، ووصلت إلى معرضٍ للتحف الفنية لا يقل فخامةً عن الأروقة الموجودة بالطابق السفلي. كانت قنطرة تعلوه، وتضيئه ثرياتٌ من الكريستال، وقد انطفأت معظم مصابيحها.

مرّ بجانبي رجلٌ آخر من رجالي متخفياً في هيئة خادمٍ، وتقدمني مسرعاً وهو يشير إلى غرفةٍ واسعةٍ في زاوية يتقاطع عندها الممر مع ممرٍ آخر، عند سقفٍ مقببٍ فيه ثقوبٌ تسمح بوصول الضوء والهواء. وكان باب الغرفة مفتوحاً جزئياً، وهناك أشخاصٌ يتحدثون بالإيطالية. في البداية، لم أستطع أن أحدد عدد الأشخاص الموجودين في الداخل. وبعد قليل، سمع دويّ انفجار قذيفة مدفعٍ في مكانٍ قريبٍ فيما كنت أتقدم نحو الغرفة، ثم خرج على إثره شخصان من الغرفة. أومأت برأسي بتحية الفرسان في هدوءٍ، وتابعت المسير حتى رأيت ليسل آدم من فتحة الباب

يجلس إلى رأس منضدةٍ مرصعةٍ بالجواهر علـى الطراز البندقي، ويتحدث مع رجلٍ يدير ظهره إليّ. التقطت أنفاسـاً عميقةً حتى أسـيطر على تنفسـي وأنا أستل خنجري المسـموم من غمده، كنت أغطيه بردائـي الذي يخفيه عن العيون. وكان رجالي الثلاثة مسـتعدين لمسـاعدتي حتى نضمن نجاح الخطة، وكانوا يراقبون المكان على مسافاتٍ قريبةٍ مني داخل الممر.

II

دفعت البـاب بهـدوءٍ ودخلت الغرفـة. لم يسـمعا صرير البـاب عند فتحـه. ميّـزت مباشـرة رائحـة الشـراب السـاخن فـي الغرفـة. وكالمعتاد، شـعرت بالغثيان من تلك الرائحة الكريهة، وتقلصت معدتي، وشعرت بها تنكمش.

كان ليسـل آدم يقول: «لن يسـتمر الوضع هكذا. فقريباً سـيعود أحد الرسـل الذين أرسـلتهم إلى البابـا حاملاً الجـواب». وكان شـعره الكثيف مجعداً بعض الشـيء، ولا يزال يحتفظ بلونه القاتم رغم تقدمه في السـن. ولحيتـه أيضاً كانـت كثيفة، وعينـاه الزرقاوان تشـبهان عيـون الأطفال، أما رداؤه الـذي يغطي كتفيـه العريضتين فيزيـده هيبةً. أضاف بصـوتٍ حزينٍ: «إن قداسة البابا أدريان السـادس يقيم القداس كلّ ليلةٍ في كنيسة سيستين، وفي كنيسة القديس بطرس من أجل الحصول على مساعدة الرب وتأييده. إنه ذو قلبٍ مليءٍ بالحب، إن الرب معنا يا صديقي».

قـال الرجـل الآخـر الـذي كان ظهـره باتجاهـي بصـوتٍ يـدل على الحكمة: «أتمنى أن يتغير الموقف المتخاذل للبابا هدريانوس سكسـتوس المعروف باسـم أدريان السـادس - والذي يسـتمر عليه حتـى يومنا هذا - عندمـا يرانا ونحن نصطـاد العدو واحـداً تلو الآخـر. ولكن، تذكّـر أنه في أثناء سقوط القسطنطينية، انتظر قسـطنطين الحادي عشر الجيش الصليبـي الكبير الـذي كان البابـا سيرسـله؛ ولكن مـن دون جـدوى...». ترى، هل كنت أعرف هذا الصوت من مكانٍ ما؟ صمت الرجل وهو يضحك بشدة، ثم استـطرد قائلاً: «والآن، أيها الفـارس النبيل، هل تـرى وهيمي أورخون جلبي هذا الذي يقف ورائي الآن، والذي طالما حدثتك عنه؟».

تحسس ليسل آدم لحيته، ومدّ رأسه قليلاً، ورماني بنظرةٍ حادةٍ من فوق كتفي الرجل الذي لم أكن أعلم من هو حتى تلك اللحظة. وبينما كان يتفحصني بعينيه من رأسي إلى أخمص قدمي، كان الرجل الآخر يتابع حديثه: «إنه وهيمي أورخون جلبي فدائي السلطان ياووز سليم الشهير الذي ذاع صيته كرياح الشتاء الباردة في كل البلاد النصرانية؛ وخاصة في البلاد المجاورة للدولة العثمانية. وتسري الآن حكاياتٌ وأساطير عن مهارته الفائقة في فصل رأس جويلا كيبس قائد بلغراد المغوار عن جسده مستخدماً الموسى الخاص به».

أومأ لي دو ليسل برأسه إيماءةً خفيفةً قائلاً: «سررت بلقائك».

التفت الرجل الآخر ببطء، وفي تلك اللحظة، شعرت وكأن كل الدم الذي يجري في عروقي قد تجمد. إنهما تانك العينان الزرقاوان. بالتأكيد أنا أعرف صاحب هذا الشعر الأبيض واللحية الطويلة.

لقد كان لويجي سافينو هو من يقف أمامي؛ قائد جماعة الصليب الحديدي الذي كان يخضع لمراقبة شديدة هو وفريقه في إسطنبول، ولكنهم أفلتوا من يدي. قال لي وعلى وجهه ترتسم ابتسامة ساخرة: «هكذا ينصب الفخ يا أورخون وليس كما ظننت أنت!». أدهشتني تركيته الممتازة مرة أخرى: «أعتقد أنه ما زال هناك الكثير مما ينبغي عليك تعلّمه. أربعون عاماً ليست سنًّا كبيرة. لو كان لديك متسع من الوقت لتمكنت من إتمام تلك النواقص، ولأصبحت جاسوساً ممتازاً بكلّ ما للكلمة من معنى».

كنت مندهشاً جداً إلى درجة أنني شعرت بأنفاسي تنقطع. وقام الحراس الواقفون خلفي بتجريدي من سيفي وسكيني وخنجري المسموم. وقال ليسل آدم: «اذهبوا به مع أعوانه إلى الأسوار، واربطوهم بالمنجنيقات، وأرسلوهم إلى مقر جيشهم مع أول أضواء النهار».

استدعيت شخصيتي المتقلبة التي تعرف التحكم بالنفس في مثل

تلك اللحظات، وكادت أن تستعصي علي، واستطعت بصعوبةٍ أن أسأل سافينو: «كيف حال ذراعك؟!». وكنت حتى ذلك اليوم أظن أنه قد شلّ إثر ضربة السيف التي تلقاها في ذراعه.

أجابني سافينو ضاحكاً: «هل استطعت أن تلاحظ ذلك وسط تلك الجلبة!؟». ثم شمر الكم الحريري الأيسر عن ساعده، وأظهر تلك الندبة الغليظة التي لا تزال تحتفظ بلونها الوردي، وقال: «كما ترى، لا يزال موضع الجرح حساساً للغاية، ولا يزال ساخناً جداً. ولكن، لا تقلق فهذه ليست المرة الأولى التي أجرح فيها. وجرحٌ عميقٌ مثل هذا يذكّرك بنفسه دائماً. ولكنني سأصفي حسابي قريباً مع عمال قوارب الصيد كانجاباش عندكم. فأنا أحاصر بلادكم من الداخل شبراً شبرًا يا وهيمي أورخون. وأنتم لم تعودوا مثلما كنتم في عهد السلطان ياووز سليم خان. وأنت غافلٌ لا تدري شيئاً!».

قلت له من دون أن أرفع نظراتي الباردة عن عينيه: «ربما تظن ذلك يا لويجي. ولكن، هل لك أن تتأكد من أن رجالك لم يقبض عليهم واحداً تلو الآخر؟! هل يمكنك التأكد من أنهم لم يسلموا إلى الجلادين ومعاونيهم ليسلخوا جلودهم؟!».

نهض على قدميه وتقدم نحوي، ثم قال: «إننا جميعاً نعلم أن سليمان ليس ذئباً كوالده. هل تعلم أنه ما زال يطلق عليه في أوروبا لقب الحمل الوديع؟! حتى إنّ فتح بلغراد لم يكن كافياً لتغيير هذا اللقب! إنه ليس الشخص الذي يمكنه تعذيب أحدٍ، وأنت وأنا نعرف ذلك جيداً!».

- لا تقلق، فليس بينكم وبين أن تعرفوا أن هذا الحمل ليس سوى أسدٍ؛ إلا أن نقوم بتعليقكم على أسوار هذه القلعة! ثم ذكرت له بعض عناوين جواسيسه وأضفت: «إن عملاءك لا يزالون يمارسون أنشطتهم هناك. وليس لديك انتشارٌ داخل البلاد كما تظن، ولن يكون لك ذلك أبداً، فلا تسلِّ نفسك بأوهامٍ خادعة!».

كانت الدهشة تسيطر عليه هذه المرة وهو يحاول ألا يظهر ذلك: «لنقل إن تلك العناوين صحيحةٌ، لماذا إذاً لم تقبض على رجالي حتى اليوم؟!».

- لو أردت ذلك لكنت قد أمرت بإلقاء القبض عليهم منذ فترةٍ طويلةٍ، ولأمرت بسلخ جلودهم بموجب سلطتي يا لويجي. ولكنني لم أستطع أن أجزم يا سافينو إن كان جبان مثلك سيمر على تلك الديار أم لا! وكنت دائماً أقول: يوماً ما... يوماً ما سيأتي إلى أحد هذه المنازل، وسأقبض عليه! ولكنني أرى أن ذاك اليوم الكبير الذي كنت بانتظاره قد حلّ الآن، وهنا. وعندنا تعبيرٌ نستخدمه في وصف مثل هذا الموقف: وجدته في الأرض بينما كنت أبحث عنه في السماء. وهذا بالضبط ما حدث معنا اليوم.

غابت الفرحة عن وجهه، وباعد بين يديه وهو يحاول الابتسام وقال:

- أريد أن ألفت انتباهك إلى أنني أنا من قبضت عليك اليوم، وكنت أعرف مكانك وأنت لا تزال تعبر حافة السور. وأنا عبد للرب الذي يحبني يا أخي، ولذا فأنا محميٌّ كما ترى. أما العصاة مثلك فمن المؤكد أنهم سيقعون في النهاية في الفخ بطريقةٍ ما.

نظرت إلى وجهه مبتسماً، وتعابير قاسية تبدو على وجهي وقلت له بالإيطالية: «كلٌّ منا مقزز أكثر من الآخر. فعملنا هو الوشاية، وكسب ثقة الناس ثم خيانتهم...».

- أنا أفعل هذا من أجل وطني، ومن أجل النصارى...

صرخت فيه قائلاً:

- دعك من هذه الحماسة يا سافينو. الإنسان هو الإنسان، والكذب كذبٌ، والخيانة خيانةٌ. ولا تغيّر حقيقة ذلك من أجل ماذا أو من أجل من تقوم بهما... مهما وضعت أمامك من غاياتٍ وأهدافٍ ساميةٍ فهذا لا يغير حقيقة أننا نخون ثقة الناس بنا. إنك على وعيٍ تامٍّ بكل قواعد

دينٍ لا تؤمن به، وإلى درجة تمكنك من أداء الخطب في مساجد البلاد الإسلامية. حسناً، ألم تخجل قطّ من أولئك الناس المخدوعين الذين يعتبرون كلمةً واحدةً منك مكسبا لهم؟ ألم تخجل ولو مرةً واحدةً يا سافينو؟!

سيطر العبوس على وجهه؛ مما يدل على أنه يدرك صحة كل ما أقوله، وتابعت حديثي:

«السلطان سليم خان جعل الله الجنة مثواه كان يحميني، ولكنه لم يكن يحبني قطّ. وأنا أيضاً كنت أكرهه؛ لأنه قاتل والدي، ولكنني أيضاً كنت مرتبطاً به، وكنت أشعر بالسعادة لوجودي إلى جوار أقوى رجلٍ في العالم. نعم يا سافينو، لم تسمع بشكل خاطئ... إنه شيءٌ غريبٌ إلى أقصى حدٍّ، وربما يخيل إليك أنه مرضٌ، ولكن الأمر هكذا... كنت أتساءل دائماً عن السبب، ولكنني لم أجد الإجابة قطّ. فهل يمكن أن يكون ذلك بتأثير ما منحني إياه من سلطةٍ وأكياسٍ من الذهب البراق؟! هل يمكن لشخص ما أن يكون سافلاً ودنيئاً إلى هذا الحد يا سافينو؟! وإلا قل لي يا سافينو، هل هناك أي مبرر يفسّر نسياني أبي الذي كان أعز من روحي، وتقربي من قاتله متخلياً عن الثأر له سوى لهاثي خلف متاع الدنيا؟! ولو كان الأمر كذلك، فلِمَ لم أكن أبالي بحياتي؟! كيف كنت آخذ على عاتقي أصعب المهام وأشدّها خطراً وأنا مغمض العينين؟! كيف كنت أغوص وسط النيران بشوقٍ كسمكةٍ خارج الماء تسعى جاهدة للعودة إليه؟ هل تدري لماذا أيها العجوز؟!».

التقطت أنفاسي، ونظرت إلى وجوه الرجال الذين كانوا يصغون إلي في الغرفة بمنتهى الانتباه:

- إن هذا الرجل الذي قتل أبي منحني حريتي، كما منحني الفرصة لأكون رجلاً... هذا الرجل منحني الفرصة لبدء حياةٍ جديدةٍ تماماً... ولا بد لكل شخصٍ حتى يكون رجلاً قوياً أن يودّع يوماً ما أباه وينزله بيديه إلى

القبر. هل تفهمني يا سافينو؟! هذا ما كان السلطان سليم خان يقوم به مع كل من يتعلق به. فقد كان يجعل أولئك الذين يتعلقون به وجهاً لوجهٍ مع الصفحة القاسية للحياة، ثم يمد يده ويأخذ بأيديهم عبر وحدتهم المميتة. من منا لا يريد أن يكون أقوى من والده يا سافينو؟! أنا أقوى من أبي، ولا بد أنك أيضاً كذلك. هل يمكنك أن تحاسب نفسك ولو قليلاً وفقاً لما أخبرتك إياه؟ ألم تشعر يوماً عند النظر إلى المرآة بثقل الوحدة التي لا يمكن تحملها؟!

ظهرت في عيني سافينو علامات الانكسار، ربما لأنني واجهته بمجموعة من الحقائق التي كان قد أجّل التفكير فيها أو يهرب منها لسنواتٍ. فأي جاسوسٍ مهما بلغ من العمر، لا بدّ له من لحظةٍ ما يتواجه فيها مع الظلام الموجود داخله. فإما أن يتجاوز تلك الصدمة النفسية ويتقبل نفسه كما هي ويقتنع بما يقوم به، وإما أن يظل مخلبٌ ضخمٌ ينخز ضميره طوال عمره.

قال سافينو وقد ظهرت تكشيرة عابرة على وجهه المرتعد: «اليوم سأخلصك من كل أعباء ضميرك أيها الشجاع، وسأمنحك الهدوء والسلام. لا تقلق فلن أعذبك، هناك ميتةٌ سهلةٌ في انتظارك!».

هززت رأسي ونظرت أمامي بطريقةٍ توحي بأنني غير عابئ بأي شيءٍ. وعندما أخرجوني من الغرفة، رأيت أنهم قبضوا على رجالي الثلاثة الآخرين كما توقعت. لم يكن هناك أدنى شكٍّ في ذكاء سافينو، إلا أنني وبصراحةٍ كنت أتوقع منه أن يكون أكثر فراسةً وفطنةً من ذلك. فعندما أخرجونا إلى الشارع كان هناك ثلاثة رجالٍ آخرين يتربصون بهم. وكنت قد نبّهتهم سابقاً إلى أن يأخذوا حذرهم ويكونوا مستعدين لأي نتيجةٍ سيئةٍ محتملةٍ. وسيدرك سافينو بعد قليلٍ أنه ارتكب خطأً فادحاً عندما لم يأمر بتقييد يدي وقدمي بالسلاسل.

ولكن، عليّ أيضاً أن أعترف بأن القدر قد ساعدني. فقد أطلقت

قذيفتـا مدفـعٍ على مـكانٍ قريبٍ جـداً منـا، وأصبح من السـهل جـداً على الرجال الذين كانـوا ينتظـرون الفرصة المناسـبة أن يباغتوا الرجـال حولنا ويفاجئوهم. ثم سـمع صوت إطلاق النار وسـط الزحام. كان من الواضح أن هذه الأصـوات تعود لبنـادق الإيطاليين الذين لـم يتقنوا قـطّ ضبط كمية البارود فيها؛ لذا كانت تتسـبب في حـوادث كثيرةٍ. ولكن، هـذه المرة كان رجالي هم الذين يسـتخدمونها. ومن الواضح أنهـم أخرجوها من مخازن الذخيرة بالقصر، وأنّ من أعدّ كل هذا بالطبع هو دون دامارال.

انتشـرت جلبـةٌ وفوضـى، وبعـد فتـرةٍ وجيـزةٍ رأيـت الشـاب الذي كنت قـد رأيته وهو يخـدم الفرسـان ويقدّم لهم المـاء. رأيتـه وهو يغوص وسـط الأعداء مضحياً بنفسـه. ملأت رائحة دخان البارود، ورائحة اللحم المحترق أرجاء المكان. لا بد أنّ أحدهم قد أصيـب، إلا أن الجميع كانوا يصيحون صيحةً واحدةً، وكان من المستحيل تحديد المصاب بينهم.

وفي تلك اللحظة، لم يكن هناك شـيءٌ أهمّ بالنسـبة لي من خروجي مـن هنـاك. وتبـادر إلـى ذهنـي أن جماعتي يمكـن أن تنضـم مباشـرةً إلى إبراهيم البرغالي عندما أموت، وشعرت بضيقٍ شـديدٍ من احتمال حدوث ذلك. فهو سـيفعل أيّ شـيءٍ ليتمكن مـن تحقيق هـذا؛ لأنه مقتنـع بأنه قد نال ثقة السلطان سـليمان خان. والإنسـان إذا اقتنع بشـيءٍ ما حتى لو كان وهماً أو كذباً فبإمكانه أن يتغلب على كل العوائق التي تواجهه بسهولةٍ غير متوقعةٍ؛ تماماً كما حصل مع والي الأناضول الوزير الثالث داماد فريد باشا الذي اسـتطاع أن يزيل شـخصور أوغلو وكل عائلته من طريقـه. ولو نجح إبراهيـم البرغالي في ذلـك فسـيحول الوطن العثمانـي الكبير إلـى مزرعة خاصة له. ولكن ذلك بعيد المنال، ولن يتحقق بهذه السهولة، فهو يستهين بي وبالسلطان سليمان خان أكثر من اللازم.

وألقى أحد رجالي سـيفاً أمام قدمي، فالتقطته علـى الفور، واندفعت بكل ما أوتيت من قـوة متوغلاً في صفوف الأعـداء الذيـن أرادوا قتلي أنا

ورجالـي. وحـدث تناحـرٌ دمـويٌّ بيننـا لفتـرةٍ قصيرةٍ، وسـرعان مـا بدأت صيحات الحرب لـدى رجالي تتحول إلـى صرخاتٍ يطلقهـا من هم على وشـك الموت. وقبل أن يمضي وقتٌ طويلٌ، تحولت تلك الصيحات إلى أصواتٍ متحشـرجةٍ تخرج من الرئات التي امتلأت بالـدم... كنت أحارب وأنا مغمض العينين، مخفضاً رأسي قدر المستطاع. أتذكر أنني تعثرت مرةً وسـقطت على الأرض، إلا أن فدائيًّا آخر من رجالي أمسـكني من ذراعي، ودفعنـي بقوةٍ مذهلـةٍ نحو بـاب الحديقـة... عند سـقوطي، ارتطم رأسـي بالأرض، وأصبحت كتفي اليسـرى مجرد عضو غريبٍ في جسدي بعد أن تمزّقت إثر ضربة رمحٍ لسـت أدري متى تلقيتها؛ إلا أنني لم أكن أشعر بأيّ ألمٍ. وقـف رجلان آخران مـن رجالي يدافعـون عن بـاب الحديقة، ولا بد أنهما جاسوسان تحالفا مع رجالي الناشطين في الداخل، ولحقا بالجماعة بإشارة من دون أندريه دامارال.

وبينما كنت أهرول هارباً تلقيت ضربةً قاسـيةً على ظهري، فسـقطت منكبّاً علـى وجهـي، وومضت عينـاي كالبـرق، وسـمعت صوت تكسـر أسناني وهي ترتطم بالحجارة، إنه لأمرٌ عجيبٌ... إن الموت الذي لم أعبأ به قطّ أو الـذي تظاهرت دوماً بأننـي لا أعبأ به لا يبـدو الآن مرعباً فعلاً... وبينمـا كنت علـى وشـك الإغمـاء وأنـا أكاد أميز ظلمتـه الزاحفـة نحوي لترخي علـيّ سـتائرها، تذكرت مـا حصل معي عندمـا كنت طفـلاً؛ عندما شـددت عقد أمي المصنـوع مـن العنبر الـذي كانـت تضعه حـول عنقها، وكيف قطعته فقط بسـبب غضبي... حينها نظرنا كلانا إلى تلك الفصوص الصفراء بلون شـمس الأصيل وقد تبعثرت فوق الأرضية الخشـبية محدثةً صـوت ارتطـامٍ يشـبه هـذا الـذي سـمعته منـذ قليـلٍ عنـد ارتطام أسـناني بالحجارة. ترى، هل تذكر هذا أمي العزيزة التي ترقب الآن عودتي؟!

أتذكّر أن أحدهم أمسك بي مرةً أخرى، وساعدني على الوقوف على قدمي المنهكتين وهو يقول لي: «هيا أيها الرئيس، لا تستسلم هكذا. انظر،

إن رجالك يهلكون أنفسهم من أجلك... اهرب هيا... فحياتك مهمةٌ أيها القائد... اهرب».

ترى، هل كان ذاك الرجل هو نفسه الذي أدخل ذراعه تحت إبطي وأسندني وأعانني على متابعة المسير؟! لم أكن متأكداً من ذلك، وكل ما أعرفه هو أنه ليس مهمًّا أن أعرف. فمع الأسف، تلقى ضربة رمحٍ في أعلى فخذه، فيما تلقيت طعنة سكينٍ في ظهري... في تلك الأثناء، انفجرت قذيفة مدفعٍ أخرى وسط الطريق تماماً. انبطح الجميع على الأرض ما عداي، وتطايرت قطع الحجارة الكبيرة والصغيرة مرتطمةً بجسدي، وأصابت إحداها عيني اليسرى، وأطفأت نورها، وزلزلت الأرض حولي زلزالاً شديداً، وربما كان ما شعرت به زلزالاً حقيقياً. كل ما كنت أعرفه هو أن قذيفة المدفع هذه المرة لم تكن قذيفةً عاديةً. وتتابعت أصوات المدافع القادمة من خارج الأسوار. لا بد أن هجوماً ليليّاً قد بدأ، وإن كان لديّ حظٌّ، وهناك احتمال بأن أنجو بحياتي فسيكون الآن؛ في هذه اللحظة بالذات. استطعت أن أمشي وأنا أجر قدميّ، ومررت بجانب الهوّة التي أحدثتها قذيفة المدفع من دون أن أسقط فيها... وتناهى إلى سمعي صوت سافينو من مكانٍ قريبٍ؛ رغم الدوي الذي كان يصمّ الآذان. لقد فقد أثري تماماً بسبب الغبار والدخان اللذين زادا من حلكة الظلام. لاحظت أن سيفي لا يزال في يدي وأنا أجر جسدي بصعوبةٍ. وانحسر صوت الطنين في أذني، وسمعت صوت سافينو مرة أخرى... كان يصيح في رجاله، ويحاول توحيد صفوفهم... وتمتمت: «لن يحدث هذا بالطبع!».

تراجعت إلى الوراء، ومضيت بقوةٍ متجدّدة شعرت بها تسري في عروقي التي أحسست أنها اتسعت فجأةً... وبعد عدة خطواتٍ، وصلت إلى المكان الذي كان يقف فيه متتبعاً صوته، ومستعيناً بالظلام والغبار وملابس الفرسان المتدربين التي كنت لا أزال أرتديها، والتي لا تزال تفيدني. ثم خرجت فجأةً من وسط الغبار والدخان، ووجدت نفسي أمام

سافينو، وعلى مقربةٍ منه. حدث الأمر فجأةً، حتى إنني دهشت مثله تماماً. فمنذ فترة قصيرة تمكنـت من الابتعاد عنه عدّة أذرعٍ علـى الأكثر! وقبل أن تختفي نظرات الدهشة وعدم التصديق من عينيه، أغمدت سيفي في صدره حتى مقبضـه. لا أذكر أنني رأيـت من قبل فـي أي ميدانٍ للقتـال مثل تلك الدهشـة التي لا توصف التي رأيتها فـي عينيه الزرقاوين المتسـعتين. مات على الفور رغم أنني لم أكن أريد ذلـك؛ وكأن قلب هذا العجوز قد توقف قبل أن يسـقط علـى الأرض! كنت أتمنى أن يسـيل دمه لفتـرةٍ طويلةٍ، وأن يموت موتاً بطيئاً. لقد كان رجلاً يؤدي عمله المقزز بتفانٍ، وكان من أخطر الرجال الذين رأيتهم في حياتي. وقبل أن يدرك أحدٌ ما حدث ابتعدت عن المكان بصعوبةٍ. ولكن، هذه المرة كنت راضياً؛ فأنا لم أستطع أن أقتل فل دو ليسل آدم، ولكنني قتلت سافينو.

III

26 أيلول 1522

«كل شيءٍ. أريد أن أسمع كل شـيءٍ يا عثمان». هذا ما قلته للجندي الشـاب عثمان من زونغولـداك فانطلق يقول: «حسـناً يا سـيدي، لا ترهق نفسك».

كنـت قـد أخذتـه تحـت حمايتـي منـذ فتـرة، وكنـت أعلمـه بعـض الأسـاليب حتى يصبـح جاسوسـاً جيـداً. كان واضحـاً أنه قـد وضع بضع قطراتٍ من زيت الزيتون على شـاربه العريض الكثيف الذي أطاله مؤخراً، ومشـط شـعره بيديـه بطريقةٍ مـا مغمضـاً عينيـه الزرقاويـن اللتين تشـبهان الخرز. وبتعبيرٍ أكثر دقّة، كان شـاباً وسـيماً. وإذا رسـم ابتسـامته المقوسة على شفتيه؛ فهذا يعني أنه لا يوجد عملٌ لا يستطيع القيام به.

«فلتسـمع ما حصل إذاً. أتدري مـاذا حدث وأنت راقـد في غيبوبتك ما يزيد على عشـرين يوماً؛ من دون أن تعي شـيئاً من حولك، وأنت تهذي بسبب حرارتك المرتفعة؟».

عنفته برقّةٍ: «اختصر يا عثمان».

ضحك عثمان وهو يقـول: «فلتكن صبوراً بعض الشـيء يا سـيدي. كانـت جراحك عميقـةً، ولكنها لـم تكن مميتـةً والحمد لله. وقـال حكيم باشـي[1] أحمد جلبي إنك سـتنهض على قدميك في غضون أسـبوع، لكن أضلاعك يمكـن أن تؤلمك لشـهورٍ، كما ينبغـي ألاّ ترهق نفسـك حتى لا تسـوء حال جراحك. والأهم من ذلك أن عينك سـليمةٌ، وسـتظل مضمدة

---

(1) كبير الأطباء.

هكذا لفترةٍ ما، ويجب أن تتدبر أمرك وأنت على هذه الحال حتى تشفى».

- دعك مني...

- حسناً يا سيدي. أنت تذكر التقرير الذي قدمته في تلك الليلة وأنت راقدٌ على النقالة عندما وصلت إلى مقرّ الجيش أليس كذلك؟!

- أتذكر قليلاً.

- لقد منحك السلطان مخصصاتٍ جديدةً، كما أمر لك بعشرة آلاف قطعةٍ ذهبيةٍ.

- أعرف ذلك أيضاً.

- في تلك الليلة التي وصلت فيها، نجح الجنود في التقدم بهدوءٍ حتى اقتربوا من السور من خلال النفق الذي حفروه في الناحية الجنوبية لبرج الإنجليز، وأسقطوا جزءاً كبيراً من البرج بتفجير كميةٍ كبيرةٍ من البارود. وبعدها مباشرةً، شنّ جنودنا الفلاحون[1] هجوماً كبيراً. وعلى الرغم من المقاومة الشديدة التي أبداها الفرسان، تمكن بعض جنودنا من الوصول إلى الجزء العلوي من البرج. غير أن ليسل آدم كان قد وجّه معظم قواته إلى تلك الجهة، وأنشأ خط دفاعٍ مزدوجاً في المقدمة. وعلى الرغم من الغطاء الذي شكله رماة النبال لدينا، تمكنت نيران الأركبوزات[2] من حصد جنودنا بسرعةٍ كبيرةٍ، وفقدنا أكثر من ألفي جنديٍّ. أما السّريّة الصغيرة التي حوصرت داخل البرج، فقد قُتل جميع أفرادها، وتمّ إلقاء رؤوسهم إلينا بواسطة المنجنيقات.

- ما الذي تقوله يا عثمان؟ هل باءت الحملة بالفشل؟!

هز رأسه بهدوءٍ وهو يقول: «مع الأسف يا سيدي، لقد اضطررنا

(1) هم جنود يتم استنفارهم وقت الحرب، ويعملون في الأراضي في حالة السلم، ضمن تقسيمات إدارية للدولة العثمانية في ذلك العصر، ويتدربون على الفروسية ورمي النبال وأنواع القتال المختلفة.

(2) سلاح ناري محمول بدأ الفرنسيون باستخدامه في القرن الخامس عشر.

للانسحاب».

تحدثت وأنا قلقٌ ومهمومٌ: «على جيشنا أن يراعي نقطةً هامةً. فما يواجهنا ليس جيشاً عادياً، بل إنهم داخل قلاعهم المنيعة، ومرتبطون ببعضهم برباط الأخوة حتى الموت. إنهم محاربون نبلاء، وهؤلاء الرجال يمكنهم أن يموتوا من دون الشعور بأي خوفٍ، وهم لا يتراجعون أبداً، وتوقع ذلك منهم ضربٌ من الغباء. لا بد أن تستخدم وحداتٌ وكتائب أكثر تأثيراً، لذلك يجب أن تشترك كتائب اليني تشري، وأن تستخدم القوات الخاصة في آخر مراحل الحرب وإلا فإن الأمر سيطول كثيراً».

ابتسم عثمان فجأةً وقال: «في هذه الأثناء حدثت تطوراتٌ جيدةٌ».

- وما هي؟!

- لقد سقطت جزيرة إيلكه لي بيد القبطان الرئيس قره محمود والرئيس قهرمان...

وفجأه قطّب عثمان وجهه، ثم التقط نفساً عميقاً وقال:

- لكن الرئيس قهرمان سقط شهيداً وهو يحارب في الصفوف الأمامية بمنتهى الشجاعة والبطولة.

وقعت كلماته على مسمعي وقوع الصاعقة، وكنت كمن تلقى صفعةً على وجهه، وقلت وأنا أكاد لا أصدق ما أسمعه:

«وا أسفاه على الرئيس قهرمان. لقد كان جسوراً وقوياً، يحارب العدو بمفرده وكأنه جيشٌ. كان إنساناً عظيماً يفعل ما يقوله. فليتقبل الله جهاده وليكتبه في عداد الشهداء. اللهم اكتب لنا الشهادة ونحن نقاتل الأعداء».

وتابع عثمان كلامه قائلاً: «ثم في الرابع عشر من شوال، فتح جنود البحرية بقيادة مصطفى رئيس وبهجمةٍ واحدةٍ جزيرة انجيرلي الواقعة جنوب غرب جزيرة إيلكه لي، وعسكرت بعض سفننا الحربية في تلك المنطقة، وشكلت خط دفاعٍ أماميًّا ضد خطرٍ محتملٍ للأسطول الصليبي.

- هذا تقدمٌ جيدٌ يا عثمان. هذه الجزيرة كانت في موقع مناسب ليشنّ العدو هجماته منها، وكانت مصدر قلقٍ وإزعاجٍ كبيرين لنا؛ تماماً كشوكةٍ تحت أقدامنا.

- انتظر يا سيدي، فهناك المزيد.

- وكيف ذلك؟

تنهد عثمان وهو يلوي رقبته، ثم قال بصوت مختنق:

«لقد تكبدنا خسائر فادحةً، وانضم الينى تشري إلى حملتنا قبيل حلول المساء، واستمرت الحملة طوال اليوم، ولكنهم قتلوا جميعاً. ولذلك قام السلطان سليمان خان بعقد اجتماع، ووبّخ كلاً من الصدر الأعظم بيري محمد باشا، والوزير الثاني سردار أكرم مصطفى باشا، وعنّفهما قائلاً: أهذا هو الولاء؟! أين التفاني والشجاعة والإقدام؟! فما كان منهما سوى أن قالا بانكسار: النصر لا يتحقق إلاّ بالصبر يا مولانا!

بقي المجلس في الديوان منعقداً طوال الليل؛ حتى أعدت خطةٌ جديدةٌ لشنّ هجومٍ شاملٍ. وكنا نتصرف بموجب هذه الخطة، ونحاول أن نسرع في عملنا قدر المستطاع. وكانت الخطة هي الاستمرار في حفر الأنفاق التي يتم حفرها بالطريقة نفسها، والقيام بهجومٍ شاملٍ عند تحطم الأبراج. إلا أنه ظهر أمامنا هذه المرة ذلك المهندس الإيطالي الذي يدعى غارلي مارتينينغو. لم نعرف متى قدم ومن أين جاء، لكن الرجل كان بحقٍّ خبيراً في حفر الأنفاق والممرات. فقد تمكّن من تحديد أماكن كل الأنفاق؛ حتى تلك التي تصل في أعماقها إلى أربعمئة مترٍ تحت الأرض، وحفر الأنفاق المضادة، ونصب الفخاخ لجنودنا، فانفجرت عشرات البراميل من البارود في جنودنا الذين كانوا يحفرون الأنفاق في منتهى التفاني، ودفنوا وهم أحياء تحت الأنقاض في تلك الأعماق».

- هذا أمرٌ سيّئ... هذا يعني أنه سيتوجب علينا بذل تضحياتٍ كبرى كي ننهي هذه الحرب يا عثمان. لقد أصبحت السيطرة على قلعة رودوس

مسألة شرفٍ بالنسبة إلينا جميعاً، ولا يمكننا أن نفكر مجرد تفكيرٍ في رفع الحصار عنها. سأقدم أفكاري في ديوان الحربية.

سألني عثمان بصوت يملأه الأمل: «ما الذي يدور برأسك يا سيدي؟».

- ما نحتاج إليه ليس فقط مدافع الحصار، بل إننا بحاجة إلى استعمال مدافع الأسطول أيضاً لتطلق نيرانها من مسافةٍ أقرب.

- لقد كان الأسطول يشن هجماته طوال اليوم يا سيدي، ولم تتوقف نيران مدافعه.

شعرت بألمٍ شديدٍ في كل جسدي وأنا أصيح: «عثمان، استخدم عقلك قليلاً! إن ما أعنيه هو سحب مدافع الأسطول إلى مكانٍ قريبٍ من الأسوار. فإن كانوا يحمون أبراجهم الدفاعية بالقطران والمواد الملتهبة العجيبة، فعلينا أن نزيد من قوة نيراننا».

- ولكن، ألا يستلزم ذلك يا سيدي حفر متاريس جديدة؟

- بالطبع أيها الفتى الحائر. يجب القيام بأعمال الحفر وإنزال المدافع ليلاً.

ظهرت علامات الكدر في عيني عثمان، وبدتا وكأنهما سحابتان محملتان بالمطر:

- سيدي، لم أخبرك بالأسوأ بعد.

- ماذا تقول يا عثمان؟! وكيف يمكن أن يكون الأمر أسوأ بعد؟! أقسم إنك ستجعلني أندم على استيقاظي من فراش الموت.

- سيدي، لقد بدأت أعمال حفر الأنفاق مرة أخرى بأمر من سلطاننا في التاسع والعشرين من شهر شوال. كانت الأنفاق الخمسة عشر الأكثر عمقاً تحفر في وقتٍ واحدٍ. ونجح غارلي كالسابق في تحديد أماكن الحفر، إلا أنّ تطوّراً مرعباً في الأوضاع حصل بالنسبة له وللفرسان. ففي الثاني من ذي القعدة، قامت جاسوساتنا الثلاث داخل القلعة بتفجير

مخزن الذخيرة، واستشهدت اثنتان منهن هناك. أما الأخرى فقد ألقي القبض عليها وهي تحاول الهرب، وقُطّعت إرباً. لقد بدأ ذلك الصباح بانفجارٍ هائلٍ يا سيدي أورخون. وبينما كانت كرات النار الملتهبة وسحب الدخان السوداء تتصاعد لتصل إلى عنان السماء، لم أكن أستطيع أن أحدد إن كان ما أراه حلماً أم حقيقة.

- إن ليسل آدم ليس غبياً إلى الدرجة التي يضع فيها كل ذخيرته في مكانٍ واحدٍ يا عثمان.

- وهذا ما حدث بالفعل. ولكن، على الأقل لم يعد لديهم بارودٌ لتفجير الأنفاق التي كنا نحفرها. وفي الرابع والعشرين من أيلول، في ساعات الصباح الباكر، بدأت الحملة الكبرى التي اشترك فيها السلطان بنفسه، وارتفعت النداءات بأمر من السلطان بين صفوف المقاتلين: الحجارة والأرض للسلطان، والدم والمال للجنود، واندلعت اشتباكاتٌ رهيبةٌ في الأنفاق، وتحولت تلك الأنفاق الضيقة إلى مقابر لمئات الجنود الشجعان. وكان الأعداء يحفرون من الجهة المقابلة بالحماسة والقوة نفسيهما. والتقى الفريقان في الأنفاق كلها، ودارت المعارك الضروس بينهما في تلك الأنفاق الضيقة التي لا تتسع إلا لمرور شخصين متجاورين.

وفي الخارج، كان الدوي المرعب الهائل الصادر من القذائف التي تلفظها المدافع يبدو مخيفاً، فيما كانت القذائف تدك الأسوار بمساعدة البارود الذي كان ينفجر في الأنفاق مهدّماً بعض النقاط في الأسوار والأبراج الدفاعية. أمّا نيران البنادق والأركبوزات فكانت تؤمن الغطاء للجنود الذين تدفّقوا عبر الثغرات المفتوحة تحت وطأة القذائف والنيران التي شكّلت سحباً. وعلى الرغم من كل هذا، كان الوضع سيئاً بالنسبة إلى جنودنا المتساقطين جماعاتٍ جماعاتٍ أمام هذه المقاومة العنيفة. كنا نرى من حينٍ إلى حينٍ بعض راياتنا ترفرف فوق الأبراج، غير أنها لا تلبث أن

تختفي بسرعة... عندها، كنا ندرك أن جندينا الذي نجح في الوصول إلى البرج يخوض معركةً طاحنةً. وفي تلك الأثناء أيضاً، رأيت والي مصر خير بك وهو ينضم إلى الغارات على رأس مجموعةٍ من الفدائيين.

ورغم كل ذلك، إن ذكاء السلطان وفطنته المدهشة كانا العامل الأساسي الذي أضعف مقاومة الفرسان، ورفع الروح المعنوية لدى جنودنا. كان عليك أن ترى يا سيدي السلطان وهو يدنو من الأسوار، شاهراً سيفه، وحوله الحراس الذين أقسموا على حماية جسده الغالي؛ حتى من الطيور المحلّقة. وكان السلطان يصيح في أبنائه الجنود بكل ما أوتي من قوةٍ، ويبث فيهم روح العزيمة والحماسة قائلاً: هيا قاتلوا أيها الشجعان، قاتلوا... قاتلوا أيها الأبطال. إنه اليوم المنشود لتثبتوا فيه بطولتكم. فإما أن نرحل من هنا ونحن نشعر بالخزي والعار، وإما أن نمضي منتصرين... قاتلوا يا أبنائي الشجعان، وأروني ماذا ستفعلون. فاستجمع الجنود قوّتهم وشجاعتهم مجدداً، متحمسين لوجود السلطان بينهم، ولم يبقَ بينهم متردد أو جبان... استمر الزحف طوال اليوم والفرسان يصبّون الزيت المغلي على رجالنا من فوق الأبراج وهم يدافعون عنها. حتى إذا مال النهار نحو الغروب، بدأوا يستخدمون النيران الإغريقية التي لا تطفئها المياه... لم يتوقف جنودنا الشجعان أو يتوانوا لحظةً واحدةً، ومضوا إلى الموت دونما ترددٍ؛ لأن السلطان سليمان خان في تلك اللحظات كان يقترب كثيراً من وابل السهام والنيران؛ حتى إن الوزراء اتجهوا إليه خائفين، وحاولوا إقناعه بالعودة، لكنه لم يكترث حتى بالسهام والرصاص والشظايا المتطايرة فوق رأسه، وكان يبعد الجميع عنه قائلاً: إذا كان الموت مقدراً فلا مفر منه. لقد كان مثل أبيه رحمه الله؛ ينفث غيظه في نقطةٍ لا نراها داخله.

وهكذا، حرّضت تصرفات السلطان غير المبالية بحياته آغا الينى تشري بالي آغا، فقام مع مجموعة من رجاله بالهجوم على أبراج القلعة،

ونجح في الوصـول إلى القمة ورفـع رايتنا هناك. ولكنهم طوّقـوا بعد فترةٍ قصيرةٍ بسبب عدم وصول الإمدادات إليهم، واندلعت معركةٌ حاميةٌ شديدةٌ شـهدها كل من كان بالقرب من الأبراج. حتى إن الطرفيـن تركوا المعركة وشـاهدوا النزال. وهمّ السـلطان سـليمان بقيـادة حصانه العربـي الأصيل مباشرةً إلى منطقة النزال، إلا أن بيري محمد باشـا تدخل في الأمر بنفسه، فقـام الفرسـان المكلفون بحراسـة السـلطان والمرتبطـون به مباشـرةً بأمرٍ من محمد بيري باشـا باحتجـاز حصان السـلطان العربـي الأحمر الأصيل بيـن أحصنتهم القويـة المغطـاة بالندبات من آثـار الجروح، ولم يسـمحوا له بالاقتراب من موقـع النزال. أما السـلطان فـكان يصيح بهـم: اتركوني، اتركوني. ماذا تفعلون؟! اتركوني... ألست سلطانكم؟! ابتعدوا عني.

في تلك اللحظات العصيبة، ألقى بيري محمد باشـا بجسـده النحيل أمام قوائم حصان السلطان، وأمسك باللجام، وبدأ يتوسل للسلطان قائلاً: أرجوك أن لا تفعل هذا يا مولاي. إن نهاية هذا الأمر هي الموت المحقق. مما يعني ترك المسـلمين بدون قائِد بسـبب هـذا التصرف المتسـرع! إنك معـروفٌ بهـدوء أعصابك يا مـولاي، فلتحافظ علـى هدوئك. عمـا قريبٍ ستسـقط الأبراج كلها بإذن الله الكريم، وليس فقط هذا البرج. إنها معركةٌ بلا أملٍ بالنسبة إلى فرسـان رودوس. أرجوك ألاّ تقترب من موقع النزال يا مولاي. إن هذا سيجلب علينا غضب الله، وستكون نهايتنا مؤسفة...

وأخيراً، وبشـق الأنفس، عدل السـلطان عن قراره الجنوني، واضطر إلى مشاهدة انهزام أبطاله الموجودين في البرج، وعيناه ممتلئتان بالدموع. حاول بالي آغا والفدائيون العشـرون الذين كانوا معه المدافعة عن أنفسهم باستخدام الرماح في البداية، لكن رماح الفرسـان الشهيرة كانت أطول من رماح جنودنـا. وعندما بدأوا يتسـاقطون الواحد تلو الآخـر، ألقوا دروعهم من فوق الأسـوار، وأمسـكوا بسـيوفهم على طريقة اليني تشـري القديمة، وقاتلوا لفترةٍ طويلةٍ جداً بسـيوفهم مجرّدين من الـدروع. ولولا الإمدادات

التي حصل عليها فرسان القلعة المهرة، لتمكن جنودنا من التخلّص من ذلك الحصار اللعين، ولنجوا بأنفسهم. لقد ذاد بالي آغا ومن بقي معه من رجاله على قيد الحياة عن رايتنا، والتفوا حولها كشجر صنوبرٍ أحمر قانٍ معمّرٍ يبلغ من العمر مئات السنين. وفي النهاية، عندما أدركوا أنه ليس هناك أي أملٍ في النجاة، ربط بالي آغا الراية على رمحه، وألقاها لأصدقائه أسفل البرج، ثم هجم على العدو للمرة الأخيرة. في ذلك اليوم فقط سقط منا خمسة عشر ألف شهيدٍ...

- ما الذي تقوله أيها الفتى؟

- أنا أخبرك الحقيقة يا سيدي. لم يقبل السلطان بانكسار جنوده أكثر، وكان يعتقد أن وضع من هم داخل القلعة أصعب بكثير من وضعنا نحن، لذا قرّر معاودة الهجوم في صباح اليوم التالي. لم يخلع السلطان سليمان خان درعه في ذاك المساء، وبقي في خيمته الكبيرة مع وزرائه وقادته وحراسه. لم يتحدث قط، بل ظل صامتاً، وعيناه مثبتتان على نقطةٍ ما وسط الظلام. لكن صمته ذاك كان جميلاً ومعبّراً، وربما يغنيه عن الكلام طول العمر. لم يتناول لقمة واحدة حينها، وما أعرفه أنه لم يكن يتناول شيئاً منذ عدة أيام. يرى بعضهم أن ذاك الصمت ليس بسبب الحزن فقط، بل لأنه كان ينتظر خبراً... نعم، كان ينتظر خبراً في غاية الأهمية.

قلت لعثمان: «اذهب الآن يا فتى، وقل لعمر فهمي جلبي وأرطغرول جلبي[1] إنني بخيرٍ، وإنني علمت منك بكل ما حدث. وأخبرهما أنني أريد منهما إطلاعي على كل أحوال السلطان».

(1) جلبي هنا لقبٌ وليس اسما دالا على عائلة.

IV

عمر فهمي وأرطغرول فدائيان يأتمـران بأمري. وهما في الوقت ذاته في القصر بناءً على أمر السـلطان. أحدهما مشـرفٌ على موائد السـلطان، والآخر رئيس السّرّاجين. لا يتضرر أحدٌ من وجودهما، ولا يهتم بهما أحد بسـبب مظهرهما الصامت الخجول مقارنةً مع حراس السـلطان الخاصين ضخام الجثـث. لكنهما فدائيـان لا يتوانيان عـن القيام بالأعمـال الخطرة، ورجلان يصعب الوقوف في وجهيهما. وكانا مكلفين بحماية السلطان من كل المخاطر، وقاما بالعديـد من الاغتيالات وعمليات التجسـس في عهد السلطان سليم خان.

قال عمـر أفنـدي بابتسـامته التـي تزيـن وجهـه الهـادئ: «لا، الخبر المنتظـر ليـس خبـر الإمـدادات الجديـدة، بـل إن كانـت عمليـة اغتيـال المهندس الإيطالي غارلـي مارتينينغو قد نجحـت أم لا. والحمد لله، فهذا العمل الذي تـولاه حليفنـا دون أندريـه دامارال تكلـل بالنجـاح، فقد قتل المهندس الإيطالي يا سـيدي أورخـون. ويصعب عليهم بعـد الآن مقاومة الأنفـاق التي نقـوم بحفرها. لقـد بدأت بالفعـل علامات الخـوف والرهبة تبدو عليهـم، وبدأت حـالات الفرار مـن القلعة ليـلاً عن طريـق الممرات السرية، وبالقوارب الشراعية الصغيرة تحت ظلمة الليل».

قلت ضاحكاً: «هـذا يعني أنهم ليسـوا أهل فخر ونبل بمقـدار ما كنا نظن».

قـال أرطغرول أفنـدي وقد لمعـت على وجهه الأسـمر نشـوة الظفر الوشـيك: «وإذا أضفنا إلى ذلـك عمليـات الانتحار من فوق الأسـوار كل ليلتين أو ثلاث، فسندرك أن معنوياتهم لـم تعد كما كانت من قبل».

21 تشرين الأول 1522

نعـم، كانت هـذه ظاهـرة تـدل علـى أن النصـر بـات قريبـاً. ولكن، متى؟! كنا نكتفي بشـنّ الهجمات التكتيكية الخفيفـة، والقيام بأعمال حفر الأنفاق التي تجعل الأسـوار خرابـةً مدفونةً تحت الغبـار والتراب. وكانت المدينـة تبـدو أحيانـاً بأسـوارها البيضـاء الشـامخة مكانـاً مهجـوراً. لكن فرسـان القلعة لم يكفوا قـطّ عن مواصلـة الترميم وسـدّ الثغـرات، وكانوا يواصلون أعمـال الصيانة طوال الليـل في ظل الأناشـيد والابتهالات بعزمٍ وتصميمٍ جديرين بالاحتـرام. وكانت الليالي تئنّ بسـبب أصوات الفؤوس والمطـارق والرافعـات. وفـي المقابل، كان السـلطان سـليمان خـان يأمر عازفي الموسيقى بقرع الطبول لفتراتٍ طويلةٍ، فتستمر أصواتها بالتردد في المكان حتـى بزوغ خيوط الفجـر الأولى وانبلاج النهـار. وبدأت علامات الملل والضيق تبدو على جنودنا، إلا أن السلطان سليمان كان يختلط بهم، ويأكل معهم مما يأكلـون منه، ويتجـاذب معهم أطـراف الحديث، ويعمل على رفع معنوياتهـم. ولولا هذا التصـرّف الواعي من قِبَل السـلطان لكان صبر الجنود على الحرب التي طالت قد تلاشـى منذ وقتٍ طويلٍ. لكنه لم يكن يظهر لليني تشـري هذا اللين الـذي كان يبديه تجاه الجنـود العاديين، بل كان صوته يرتفـع تعبيراً عن ضيقه وغضبه منهم، فيسـري الاسـتياء في صفوفهم وهم يقولـون: يبدو أن سـلطاننا قد أقسـم على أن يدفننـا جميعاً تحت هذه الأسـوار التي تفوح منها رائحة الجثث. هل يليـق بنا أن يموت هذا العدد الكبير من أصدقائنا في سـبيل هذه القلعـة الصغيرة؟! نحن نريد أن نعود إلى إسطنبول؛ إلى معسكراتنا...

فكان السلطان سليمان خان يخرج من خيمته عندما ترتفع أصواتهم، ويقول لهم: «ألسـت أباكم؟! ألست رفيقكم؟! ألسـت كبيركم وسيدكم؟! أهو الخوف الذي يدفعكم إلى العودة وأنتم تنالون عطاياكم وتستوفونها؟! حرب القـلاع تختلف عن حـرب الميدان، وقـد يطول الأمر أحيانـاً، والله

وحده يعلم ميعاد الفتح. فهل كنتم تتوقعون خوض حرب سهلة وأنتم المحاربون المجرّبون؟».

وعندها، كان الصمت والهدوء يسودان لفترةٍ تأثراً بكلام السلطان. لكن هذه الطائفة التي تملك الاستعداد الدائم للعصيان سرعان ما كانت تتذمر مجدّداً.

كنت أشعر بتحسنٍ كبيرٍ، لكنّ أضلاعي كانت لا تزال تؤلمني. وكما حذّر الأطباء، كان ينبغي ألاّ أقوم بعملٍ شاقٍّ للحيلولة دون تردّي حالتي الصحية، فضلاً عن الألم الشديد الذي كان يتركني في منتهى العجز. أما كتفي اليسرى فكانت قبل عدة أيّام تشتعل ألماً، فيما لم يكن بإمكاني رفع يدي اليسرى أعلى من محاذاة رأسي. وكنت عندما أفعل ذلك أسمع صوت طقطقةٍ غريبةٍ، ثم أشعر وكأن سيخاً رفيعاً وحاداً ينغرز عند مفصل كتفي. أخبرني الجراحون أن إصابتي تحتاج لعمليةٍ كبيرةٍ. لكن، كان لدينا في ذلك الوقت الكثير مما يجب القيام به، ولذلك لم أكن أستطيع أن أخاطر بالحصول على العلاج لفترة طويلة. وفي كلّ الأحوال لن أتحسن تماماً، واحتمال حصول ذلك ضعيفٌ جداً.

تحولت منخفضات رودوس إلى ما يشبه أنفاق الخلد بسبب كثرة الأنفاق فيها. كان يخيل لي أحياناً وكأن القلعة برمتها ستسقط وينتهي أمرها. يا الله! كم روحاً أزهقت في سبيل سقوطها؟! إلا أن خبر الخسارة العظمى جاء عقب صلاة الظهر اليوم. فقد خرج بيلر بيي مصر خير بك مع مجموعةٍ من رجاله في طلعةٍ استكشافيةٍ نحو القسم الداخلي للجزيرة؛ بحثاً عن صيدٍ طازجٍ للسلطان، فوقعوا في طريق عودتهم على فخٍّ نصبته لهم مجموعةٌ من الفرسان. لم يكونوا مستعدين لذلك، ولم يدركوا ما حل بهم. ويبقى السؤال الأهم والأخطر: إلى أي مدىً يستطيع فرسان القلعة الخروج من القلعة والحصول على مياه شربٍ ولحم صيدٍ وقتما يريدون؟! كنا نعرف أن لديهم ممرات سرّيّةً تؤدي إلى البحر، ولم نكن

نهتم بهـا كثيراً. ولكـن، إن كانت لديهم ممـرّات أخرى تـؤدي إلى جنوب الجزيرة فهذا يمكن أن يشكل لنا جميعاً مشكلةً كبيرةً.

حارب خير بك ورجاله بجرأةٍ وجسـارةٍ، لكن فرسـان القلعة تمكنوا مـن مباغتتهم، واسـتفادوا مـن عنصـر المفاجأة، فسـقط خير بـك ورجاله خلال فترةٍ وجيزةٍ واستشهدوا جميعاً؛ باسـتثناء من قادوا أحصنتهم بسرعة البرق ولاذوا بالفرار.

حزن السـلطان سـليمان خان لذلك كثيراً. فقد كان خير بك شـخصاً عادلاً وشـجاعاً خـدم السـلطان سـليم بمنتهـى الـولاء، وحـاز على حب السـلطان سـليمان خان وثقته أيضـاً عندمـا جاءه بالإمـدادات فـي الوقت المناسب من دون أن يطلب منه ذلك.

غضب السـلطان غضباً شـديداً، وأمر بتسـريع الهجمات مرةً أخرى. وقام على رأس مجموعةٍ من حراسـه بزيارة جنود التحصينات الذين كانوا يعملون على نقل مدافع الأسطول إلى أماكن أقرب للأسوار، وتفقد أعمال حفر الأنفاق، ودعا بالخير لهم جميعاً. وفي ذلك اليوم، صلى السلطان كل الصلوات مع جنـوده، ونزع عنه ملابسـه الفخمة، ولبس ثيـاب قائد عادي لمجموعةٍ من الجنود، وكأنه يريد أن يزيل عن كاهله عبء السـلطنة الثقيل ولو لفتـرةٍ وجيـزةٍ. ورأيناه وهو يمسـك بالجـاروف، ويعمل مـع الجنود. اعتـرض وزراؤه ولكنه لم ينصت إليهم، ولـم يسـمح لأي منهـم بالتدخل. لقـد كان يحفـر الأرض وكأنه يـود أن يلقـي بالألم الذي يشـتعل فـي قلبه والتعـب الروحي الـذي ينهكه فـي باطـن الأرض. وأخذ يحفـر ويحفر... ثم اعتدل في وقفته تحت المطر الشـديد وهو يقول: «اسمعوا أيها السادة، وأيها القادة. إن لم أتمكن من إسـقاط هذه القلعة، وإن لـم أثأر لأصدقائي، فليكن قبـري داخل هذه الأنفـاق». فصاح كل مـن كانوا حولـه في صوتٍ واحدٍ: «حفظ الله السـلطان». إلا أن من رأى ذاك الحـزن الفظيع في عينيه أدرك على الفور مدى رغبته الشديدة في الانتقام.

في تلك الليلة، انضممت إلى الديوان بصفتي قائد الحرس الخاص، وأصغيت إلى كل من تحدث. كان السـلطان سـليمان يبدو متعبـاً وغاضباً كما لم أره من قبـل، وكان الصمت يسـود المجلس، ولم يكـن أحدٌ ينبس ببنت شـفةٍ. وبعد عبارات العزاء تحدث إبراهيم البرغالي. وما إن سـمعت صوته حتى انتبهت بكل جوارحي رغم ذلك الألم الذي كنت أشـعر به في معدتي، وأصغيت لما يقوله.

أنـت أيضـاً كنـت تلاحـظ وجـودي وتحتـاط لـه، أليـس كذلـك يا إبراهيم؟! أنت أيضاً كنت تشـعر بالخوف لأنك تعتقد أنـه يمكن أن يكون هناك من يرى ما هو تحـت قناعك. ولكنك رغم ذلك لـم تكن تعبأ بأحدٍ. كنت تشـعر بالقلق خوفـاً من انكشـاف خطواتـك الكبيرة الصامتـة عاجلاً أم آجلاً. لقـد كنت منذ البدايـة تكرهني كرهاً شـديداً. لم تكـن تكره بيري باشا أو مصطفى باشا أو أي شـخص آخر من الوزراء والسادة وكبار رجال الدولة من الأتراك إلـى الحد الذي تكرهني به. كنت تشـك فـي أنني على علمٍ بالمؤامـرة الدنيئة التي نفّذتهـا مع حليفك فرحات باشـا للتخلص من شـخصور أوغلو البريء، وكنت تخاف كثيراً من أن أقـوم بفعلٍ خارجٍ عن سيطرتك، وتشـعر بأنني قريبٌ مـن السـلطان بشـكلٍ خفيٍّ، ولم تسـتطع التخلص من خوفك من انقلاب السـلطان عليك بسـبب قربي الشديد منه. ولكن، هل لك أن تصدق أنني كنت أتجنبك يا إبراهيم؟ فقد أغاظني كثيراً وقوع خير بك في ذاك الشـرك البسـيط بتلـك الصورة. عـلاوةً على ذلك، كانت كل خطوةٍ تخطوها تسبقني بخطوةٍ. وأعترف أنّ ما استطعت تحقيقه بقربك من السلطان أكبر مما حققته أنا.

ولكن، كنت أعرف أنك تثق بأحاسيسك مثلما تثق في ذكائك. ولهذا كنت أكتفي بالانتظار. فلا تنس أن من يقف أمامك جاسـوس. وبينما أنت تنتظر بفـارغ الصبر حتـى تبصق على قبـري، كنت أريـد أن أرى مـن بعيدٍ الغربـان وهي تنهـش جسـدك. وباختصارٍ، لم أكـن لأواجهـك. وكان هذا

أيضاً فارقاً بيننا؛ وهو ما لم تستطع فهمه قطّ. لقد كنت تنزعج قليلاً وأنا أستخدم ضدك بعض أوراقي الرابحة في الخفاء، ولكنك لم تكن تستطيع أن تعرف ما هي مطلقاً؛ لأننا أنا وأنت يا أخي نتنافس هذه المنافسة المخزية وسط جهنم تماماً. ولكنني أقسمت أن أقوم بتجميدك في أعماق جهنم يا إبراهيم. لطالما كنت واثقاً من وجود علاقة ما أو اتفاق بينك وبين حرّم، وكان مكرك هذا هو ما سيعجل بنهايتك. كما أن مشكلة الجارية الفرنسية صوفيا علقت بذهن السلطان وكأنها شوكةٌ رفيعةٌ، ولكن هذه الشوكة الرفيعة تكبر وتذكره بوجودها يوماً بعد يومٍ.

شيءٌ واحدٌ يصف كلينا
(إبراهيم البرغالي)

I

«جريت، وعانقت موسم الدماء مبكراً،
وفي ممرٍّ دمويٍّ أصبت وعلقت».

يلماز أوضة باشي

كانت عيناه مسلطتين عليّ مجدداً، وكان ينظر إليّ مباشرةً... ألن تتراجع أبداً يا أورخون جلبي؟! وهل تعتقد أنني لم أفهم؟! كنت أدرك أن هناك خطأ ما، فأنت لم تتخلف عن تعقبي مطلقاً، لكنك كنت تعلم جيداً أنني لم أكن أحمق. ونهايتك لم تعد بعيدةً، وكذلك نهاية كل الأتراك على هذه الأرض لم تعد بعيدةً أيضاً. فتلكأ قليلاً، وقف جانباً لترى كيف تكون العبقرية. أمّا أنا، فسأقف وسط الديوان وألعب لعبتي وأنا أستعد للمشهد. فالآخرون لا يخيفونني؛ إنهم لا يخيفونني على الإطلاق.

قلت ووجهي يغتسل بالضوء المنبعث من الشمعدانات العملاقة ذات القوائم البرونزية:

- مولاي، كان حاكم مصر في عهد المرحوم والدكم خاضعاً للمماليك، وهي الدولة التي أسسها قوقازيو الشمال من الأصل التركي. وبعد الانتصار في الريدانية عام 1517، بلغت عدالة الدولة العلية تلك الأراضي أيضاً، وتم تأمين طرق الحج بمقدارٍ كبيرٍ. وقد ترك والدكم أشراف القوم حكاماً على كل المناطق التي فتحها؛ وهذا يرجع إلى شدّة

عبقريته ودهائه. وأرى أنه من المناسب الآن أن تتبنوا أنتم أيضاً السياسة نفسها.

فأجاب السلطان سليمان خان بحدةٍ مرتدياً درعه البرّاقة التي لم يخلعها منذ أيام:

- ما الذي تحاول أن تقوله يا إبراهيم؟!

- ما أحاول أن أقوله لجلالتكم هو ضرورة أن يكون حكامكم أيضاً من أصول تركية.

سعل السلطان سليمان خان سعالاً خفيفاً وقال:

- أنت محقّ. أنت تعلم يا إبراهيم أنني أحترم فِراستك. ثم سأل: «ما رأيك أنت يا باشا؟!». مشيراً بيده إلى بيري باشا.

لامس بيري باشا لحيته البيضاء برقّة، وعلى الرغم من ارتسام ملامح تفكيرٍ عميقٍ على وجهه الصغير تحدث قائلاً:

- أرى أن ما قاله إبراهيم البرغالي آغا صحيح يا مولاي، ولكنه لا يصحّ الآن في هذا الموقف. إذ إن قدوم الواحد منهم وتضحيته برأسه في سبيلكم بعد كل ما فعلناه في مصر لا يترك مجالاً للسؤال عن ولائهم. وربما يسبب هذا ردّ فعل معاكساً بحسب رأيي.

- أتقول إنّ تصرّفاً كهذا سيحدث مشكلةً في الثقة يا باشا؟

- إنه احتمالٌ فقط يا مولاي. فمتى كانت مصر معمورةً كما هي الآن في عهدنا؟! وفي أي زمانٍ تمتعت بهذه الراحة والأمان؟ فالجنود العثمانيون يجوبون الصحراء في دورياتٍ ضد الخارجين عن القانون، والشعب يتمتع ببيئةٍ يعمّها السلام.

- سآخذ بعين الاعتبار أفكارك وخبرتك يا باشا، وسأفكر مليًّا في الموضوع.

* * *

حين انفضّ الديوان في وقت متأخر من الليل وبقينا وحدنا قلت:

- إن وزيركم الثاني حضرة سردار أكرم مصطفى باشا مناسب جداً لهذه المهمة. فهو ذو أصلٍ تركيٍّ، كما أنه رجلٌ مخلصٌ وصاحب خبرةٍ، ولهذا السبب سينسجم بسهولةٍ مع شعب المنطقة.

فأجاب السلطان سليمان خان فيما الحزن لم يعد يفارق عينيه اللتين تفيضان بالتعب والرغبة في النوم:

- إن مصطفى باشا إنسان عظيم، ولن يمتعض من أداء أي مهمةٍ توكل إليه. ولن يتردد في تحمل كامل صلاحيات القائد. إنه اختيارٌ سليمٌ، ويجول في خاطري أيضاً أنه الشخص الذي يمكنني الوثوق به أكثر من سواه.

- إنه مناسب يا مولاي.

- وإذا تم ذلك، فمن الذي يمكن أن يشغل مكانه يا إبراهيم؟

- بحسب رأيي يا مولاي، أحمد باشا الألباني أمير أمراء روم إيلي.

- هل أنت متأكد من ذلك يا إبراهيم؟

- أراه اختياراً جيداً يا مولاي. فأحمد باشا رجلٌ عاقلٌ وخبيرٌ وجسورٌ لا يعرف معنى الخوف، وهو يمضي إلى هدفه من غير تردد.

ليتني أستطيع القول إنني لم أر التعبير المفعم بالشك والتساؤل الذي لمحته في عيني السلطان. ترى، هل تماديت أكثر ممّا ينبغي؟! هل كان السلطان سليمان خان يرتاب في تصرفاتي ويخفي ذلك عني ببراعة؟ أم إنه أعظم ممثل هنا؟ هل يمكنه أن يفعل ذلك؟ أنا أعرفه منذ زمن طويل، لكن البشر يمكن أن يتغيروا.

- فليصل فرماني إلى مصطفى باشا، وليتحرك مباشرةً إلى مصر غداً. سيتولى السلطة هناك ويحكم مصر باسمنا. وأرسل لأحمد باشا أيضاً عمامة الوزارة وقفطاناً، فهو سردار[1] الغزوة منذ اليوم. وتحدث مع الدفتردار سنان باشا عن الهبات التي ستمنح وفقاً للقانون، وبلغني بما

(1) قائد القوات.

ستؤول إليه الأمور.

فانصرفت من مجلسه وأنا أقول: «أمركم يا مولاي».

كانت المواجهة بين أحمد باشا وبيري باشا في أثناء الهجوم على بلغراد لا تزال حيةً في النفوس. فقد أقنع أحمد باشا السلطان في بادئ الأمر بالمسير أولاً إلى بودين، وكان يصعب على بيري باشا تغيير رأي السلطان، فتجادلا بجرأة في حضرة السلطان وتماديا أمامه. غير أن قرار السلطان كان لصالح بيري باشا، وأصبح من المستحيل ألا يحمل أحمد باشا في سرّه ضغينةً ضد بيري باشا. وكان لا بد لأحمد باشا من البحث عن طريقةٍ للانتقام من بيري باشا إن أصبحا في منصبين متقاربين، وسيكون ذلك سبباً للقلق وإثارة القلاقل في قمة السلطة. أما السلطان سليمان خان فسيتحمل هذا الموقف لفترةٍ قصيرةٍ على أقصى تقديرٍ؛ رغم كونه صبوراً. فهل يمكن لخطتي هذه التي تبدو في غاية الحكمة والبساطة أن تعرّضني للمساءلة؟ وهل تضعف حيطتي كلما ازدادت قوتي؟ ولكن، إن لم أستطع أن أحصل على فريستي في وقتٍ ضبابيٍّ كهذا تعبت فيه العقول والأفئدة، فكيف ومتى ستتاح لي فرصةٌ كهذه مرةً أخرى؟

II

15 تشرين الثاني 1522

من المؤكد أن المكوث أمام هذه القلعة منذ أربعة أشهر وحتى الآن قد أتلف أعصاب الجميع. وأصبحت مواصلة العمل ليلاً ونهاراً، تزداد صعوبةً. وبالرغم من بحثنا المكثف، لم نستطع أن نعثر على الممرات التي يستخدمها الفرسان للخروج من القلعة. وكان هذا الوضع يثير ضجر السلطان سليمان خان وسخطه فعلاً. وعلى الرغم من أن هذا الأمر لم يكن هاماً - إذ لم يكن من الممكن أن يتجولوا على سجيتهم داخل الجزيرة - إلاّ أنه كان كافياً لإثارة الغضب؛ فالذبابة صغيرةٌ لكنها مزعجة. وذات يوم، حدثت مصادفة صغيرة، إذ عُثِر على منحدر على الضفة الأخرى كشف عن ممرٍّ ضخمٍ يقود نحو الخارج لم تلاحظه عيوننا من قبل. فأحياناً، تكون الطريقة المثلى لإخفاء شيءٍ ما بتركه واضحاً مع القليل من التمويه؛ وهذا ما حدث هنا بالضبط.

فالأرض ذات المرتفعات الكثيرة في المنحدر البعيد جنوبي القلعة كانت تختفي وراء أشجار كثيفة، ولم يكتشف وجودها أحد من هذا الجيش الكبير. وفي أحد الأيام التي أمضيناها هناك، عثرت مجموعةٌ من جنود اليني تشري في دورية لهم هناك على أرنب بري ضخم، وأصابوه بسهم، لكنه نجح في الهرب زاحفاً. وعندها، أصرّ الجنود على تتبع آثاره، إلى أن عثروا عليه ميتاً، فيما كان يحاول الاختباء في حفرةٍ صغيرةٍ بين الشجيرات. لم تكن الحفرة تشبه جحر أرنب عاديًا، فقد وجدوا فيها عدة مواضع بارزة، وسطحاً مستوياً في الداخل لا يستطيع أي حيوان أن يصنعه. وبينما كانوا يستشيطون غضباً، ظهرت أمامهم آلةٌ. كانت عبارة

عن رافعة منتصبة فوق منصة تتحرك بنظام البكرات، ترفعها وتخفضها. استطاعوا تحريكها، فرأوا عندها بعض الأشجار في السهل وهي تهبط نحو الأرض وتخرج مكانها منصات كبيرة، ورأوا في الداخل نظام أنفاق شاسعاً ومعقداً. واتفقت آراؤهم جميعاً على أنه ليس المخرج الوحيد. وبعد جولةٍ قصيرةٍ، أغلقوا المنصة كما فتحوها، وعادوا ليخبروا قائدهم عمّا وجدوه.

أمر السلطان سليمان خان بإعداد كمينٍ في ذلك المكان، لكن أحداً لم يخرج من الممر. واستمر الصمت عدة أيامٍ. ثم في إحدى الليالي، وفي ساعةٍ متأخرةٍ، سُمِع صوت السلاسل وأزيز البكرات المحمّلة بحملٍ ثقيلٍ. ولم يكد الفرسان يخرجون من الممر حتى وجدوا أمامهم الجنود العثمانيين. فهاجمهم جنود اليني تشري وضيقوا عليهم الخناق ولم ينج أحد منهم. لكن الجولة التي قام بها جنود اليني تشري داخل الأنفاق المظلمة انتهت عند حاجزٍ حديديٍّ غليظٍ مشبكٍ عمره بضع مئات من السنين، فكان لا بد من تفجيره وفتح الممر وإدخال كميةٍ كبيرةٍ من البارود إلى القلعة. وكان من المتعذر نقل المواد المطلوبة إلى هناك، فرماة السهام خلف قضبان الحديد لم يتركوا أي فرصة لذلك، والنهر بدوره كان يفيض مساءً فيغرق كل الأنفاق. وإذا كنا لا نستطيع الدخول، فهم أيضاً لن يستطيعوا الخروج من هذا الممر منذ الآن فصاعداً.

9 كانون الأول 1522

صباح هذا اليوم، تم تجاوز الأسوار من خمس نقاط وذلك بعد هجومٍ كبيرٍ. وفي النهاية، اضطر الفرسان للانسحاب والاختباء خلف المتاريس الداخلية بعد أن حاولوا التصدي للهجوم ببسالةٍ، وواجهوا مصيرهم بكل شجاعةٍ... وعلى أي حالٍ، لا بد من تقدير جهود الطرفين؛ فالأمطار الباردة التي هطلت من دون توقف في الأيام الأخيرة، ورياح

الشمال الشديدة ألقت بظلالها المنهكة على الطرفين معاً!

قال السلطان سليمان خان الذي فقد الكثير من وزنه، وارتسمت على وجهه الجميل خطوط عميقة تظهر على وجه من يتقدم به العمر: «سأعطيهم فرصة أخرى». كنت أعلم جيداً أنه يضغط على نفسه ليظل هادئ الأعصاب، ولم يعد يتحمل كما كان سابقاً. ثم تنهد سائلاً: «هل تعلم لماذا يا إبراهيم؟ لأن كل شخصٍ يحارب من أجل وطنه يستحق فرصةً ثانيةً».

- وهذا يليق بمقام سموكم يا مولاي. إن جواسيسنا في الداخل يقولون إنهم استهلكوا في الأيام العشرة الأخيرة ذخائر كانت تملأ أربعة عنابر وترسانتين، ولن يستطيعوا الصمود كثيراً في ظل هذه الظروف.

فحوّل نظراته المتعبة التي لا تزال ثاقبة نحوي وقال:

«جهز لي يا إبراهيم رسولين يفهمان في السياسة. وليقابلا قائد القلعة فل دو ليسل آدم وليقنعاه بشروط تسليمها. سأسمح لهم بأن يبقوا المدافع داخل القلعة على أن يسلموا الأسلحة والعتاد ومقتنياتهم القيمة في غضون ثلاثة أيامٍ من دون التعرض لخطر الهجوم. وسيكون هذا آخر عروضي لهم، وبعد ذلك سأهدّم كل شيءٍ، وأدخل من دون الشعور بالرحمة تجاههم. يجب أن يدركوا جيداً أنني سأنتصر في هذه الحرب. أملِ كلّ ما قلته على أحد الكتّاب، واجعل بيري باشا يصادق على الرسالة، واختمها بخاتمي». وواصل كلامه وهو يضرب بقبضة يده اليمنى ركبته بخفةٍ ويقول: «ماذا سيقول الأوروبيون عندما يجدون أن الحرب طالت هكذا يا إبراهيم؟ ألن يرسلوا رسولاً يستجدون به شفاعتنا؟».

- بلى، سيفعلون يا مولاي. ولكن، إن لم يكن هناك أمرٌ هام للغاية تريدونه منهم، فسيقابل وزراؤكم الرسل القادمين.

- كن موجوداً أنت أيضاً في تلك الاجتماعات منذ الآن فصاعداً يا إبراهيم، وأنا أمنحك صلاحيةً مطلقةً.

لم أضيع الفرصة وقلت: «يا مولاي، إن موقف بيري باشا معروف للجميع! ويمكن أن يفهم أنكم أرسلتموني لأكون رقيباً عليهم، أو جاسوساً لكم. وأنتم تعرفون ما سيقوله بحقي، فهو الذي أطلق عليّ لقب أكبر متملقي العصر».

ضحك السلطان سليمان خان وقال: «لا تلق لذلك بالاً يا إبراهيم. فقد أصبح بيري باشا عجوزاً، وسأكلمه إن لزم الأمر، فكن مرتاحاً ونفذ أمري».

في اليوم التالي، كان الغازي سلطان زاده خسرو بك وصاحب غيراي رسولينا إلى فل دو ليسل آدم... وكان رده على الرسالة المختومة بختم السلطان الذهبي أنه يريد إطالة المهلة إلى عشرة أيام. إذ لم يكن يريد أن يظهر بين رجاله كقائدٍ مسكينٍ يقبل كل شروط العدو، وهذا أمر طبيعي.

كانت تقع على كتفيه مسؤولية سلالةٍ عريقةٍ معتادةٍ على الحكم طيلة عمرها، ولم تعرف الهزيمة حتى في أحلك الأزمان اسوداداً. وكان واضحاً أن ليسل آدم لم يعد سوى رجلٍ مطأطئ الرأس نحو الأرض بسبب شعوره بالذّل. ولم يكن لدى السلطان سليمان خان وقتٌ للتفكير في مشاعر أحد منهم. وكان رد الفرسان على موقفه أنهم أطلقوا النيران مجدداً من مدافعهم... وفي اليوم نفسه، جاء رسولان من قبل فل دو ليسل آدم إلى المعسكر، وقابلهم الوزير الثاني وقائد العسكر أحمد باشا. وعرفت في ما بعد أن هناك وثيقةً مثيرةً للانتباه يحملها الرسولان؛ وهي الوثيقة التي كتبها السلطان بايزيد الثاني، والتي تعبر عن عرفانه بجميل فرسان رودوس بسبب المساعدات التي قدّموها للسلطان جم. وقد بين فيها السلطان بايزيد أنه لن يكون راضياً في الدنيا ولا في الآخرة عن أي سلطانٍ من نسله يضع رودوس نصب عينيه.

قرأ أحمد باشا هذه الوثيقة واستشاط غضباً، وسمعت ممن كانوا

هناك أنه مزق الوثيقة إرباً إرباً من دون الاكتراث لقيمتها التاريخية، وداسها بقدميه، وأمر ببتر أصابع الرسولين وآذانهم وأنفيهما، وبعث رسالة مليئة بالسباب الفاحش إلى دو ليسل آدم، ثم ندم لاحقاً على ما فعله بعد فوات الأوان، وحاول إخفاء ذلك. وكان بإمكاني أن أتستر على الحادثة وقد بلغتني كورقةٍ رابحةٍ، ولكنني لم أفعل؛ إذ كان من الضروري أن يكبح جماح أحمد باشا حينها.

تصنعت حالةً من الحزن والغم، وذهبت إلى سرادق السلطان سليمان خان الذي كان يعجّ بالروائح وأصوات طقطقة النار المشتعلة، فسألني ما إن رفع رأسه: «خير يا إبراهيم؟». فقصصت عليه ما حدث بصوتٍ هادئٍ ومهمومٍ، وشرحت له أنّ ما أوقع الكآبة في نفسي هو رؤيتي رسالة ذات قيمة تاريخية كتبها واحد من آل عثمان تداس تحت الأقدام، وتنتهك بدلاً من تقبيلها ووضعها فوق الرؤوس.

- وقد أمر ببتر أعضاء الوزراء أيضاً أليس كذلك؟ إنها إهانةٌ لتذكار جدي الأكبر وظلمٌ للرسولين. أرسل في طلبه حالاً يا إبراهيم، وليحمد الله لأنني لست إنساناً سريع التصرف مثل والدي، وإلا لكنت قد أمرت بقطع رقبته في الحال.

26 كانون الأول 1522

في اليوم الثاني من شهر صفر، ظهرت الرايات البيضاء من خلف المتاريس، وبذلك أعلن الفرسان وقف إطلاق النار من طرفٍ واحدٍ، فانطلقت سجدات الشكر، وتعانق الجنود فرحاً باستسلام العدو. وكان الإعياء والسأم في حالتهما القصوى عند الطرفين.

كانت هذه الحرب الوحشية في ظل البرودة، والطين الأحمر الذي لا ينظّف عن الأجساد بسهولة، والأبدان التي أسقطتها الأمراض منهكةً وتفقد معناها من يومٍ لآخر. وكنا نعلم على سبيل المثال أن وباء الزنطاريا

قد انتشر عند الطرفين. وبدأ وباء التيفوئيد المصحوب بالنزيف بالظهور، وكل محاولاتنا لمواجهة هذين الوباءين باءت بالفشل. وبعد ساعات قليلة، عند ظهر ذلك اليوم، خرج قرابة عشرين فارساً على صهوات خيولهم الهزيلة من خلف المتاريس مهرولين. كان خيلاؤهم ووقارهم الظاهريان يتلاشيان في خطوط وجوههم الخالية من الحياة، وفي نظرات أعينهم اليائسة. مروا تحت قنطرة الباب الذي لم يعد موجوداً؛ تلك القنطرة العالية المغطاة بآثار الدماء والبارود، ونظرات الازدراء مسلطة عليهم من الجنود العثمانيين الذين يشاهدونهم من الأسوار التي آلت إلى أيديهم، واتجهوا مباشرةً إلى معسكر الأتراك. سلّم الرسل شروط التسليم باحترامٍ للصدر الأعظم بيري محمد باشا، فقرئت في حضرة السلطان بصوت مرتفعٍ: «كفالة حرية ممارسة الطقوس الدينية للراغبين في البقاء في الجزيرة، وعدم أخذ الضرائب من الشّعب لمدة خمس سنواتٍ، ومغادرة الراغبين الجزيرة في غضون ثلاث سنواتٍ، ونقل الفرسان وتابعيهم بالسّفن العثمانية إلى قلعة قندية في جزيرة كريت وإلى جزيرة مالطة، والسماح بإخلاء الجزيرة خلال اثني عشر يوماً، وتسليمها!».

قبل السلطان سليمان خان بتلك الشروط وبدأت مسيرة الإخلاء بسرعةٍ وهدوءٍ. وفي يوم الثامن من شهر صفر، كان الفرسان قد أنهوا عمليات إخلاء الجزيرة إلى حدّ بعيدٍ. وفي ساعات ما بعد الظهيرة من ذاك اليوم، جاء فل دو ليسل آدم ومعه عددٌ من المحاربين القدماء إلى المعسكر. كانت الأمطار تهطل بغزارةٍ، والمياة التي تشبه السيول المحملة بالطين تجري من أعلى الجبل إلى النهر وكأنها تجرف معها حقبةً من التاريخ. كانت الضفتان قد أصبح لونهما كلون التراب، وكانت الطيور البحرية تبكي على أعشاشها التي فقدتها في المنحدرات، وتطير بالقرب من المعسكر حزينة؛ تماماً مثل فرسان العدو.

ترك السلطان سليمان خان الفرسان ينتظرون تحت وابل الأمطار

البـاردة كالثلج لمدة ثلاث سـاعاتٍ كاملةٍ قبـل أن يأذن لهـم بالدخول، ثمّ جلس على عرشه المرصّع المصنوع من خشب الأبانوس فوق السجادات الفارسـية المصنوعة من الحرير، وسـط سـرادقه الـذي يغلب عليـه اللون الأحمـر، وكان الترف والغنـى يبدوان واضحيـن على السـلطان الذي كان يرتـدي قفطانـه المزركش بالزمـرد الأخضر والمشـغول بالألمـاس. وكان سـيفه المزخرف خارج غمـده على مقربـةٍ من يـده بالرغم من أنه مسـنود على عرشـه، كما كان آبـاؤه يفعلـون عند مقابلة رسـل العدو. إلا أن شـيئاً ما كان في جلسـته ونظراته؛ وكان هذا هو السـر وراء سـحره في الأساس. كان حاكماً حقيقياً في كل أحواله؛ حاكماً حقيقياً على وجه الأرض. وكان مختلفاً بلا شـك في كل شـيء خاص به؛ بدءاً مـن الخطـوط العميقة التي ظهرت مؤخراً على وجهه الفتيّ، إلى تعابير عينيـه الثاقبتين اللتين تخترقان من يخاطبـه وتتخطيانه، ووصولاً إلـى كتفيه العريضتين، وصـدره المنتفخ قليـلاً، ووقفتـه السـاحرة، وسـاقيه الطويلتيـن. كان مختلفاً عـن كل ملوك أوروبا الذين كانوا فقراء وبدأوا يجمعون ثرواتهم حديثاً.

لم يكـن السـلطان سـليمان خان يسـعد بمجالسـة مـن لا يعرفهم ولا بالحديث معهـم. لكنه اليـوم مختلف بكل تأكيـد. وبعد أن تملق ليسـل آدم ومن معه السلطان سليمان خان نيابة عن جميع الفرسان، عبّروا عن شكرهم له من أجل كلّ التسـهيلات التـي أمر بها فـي عملية الإخلاء. تأثّر السـلطان بموقف الفرسـان المليء بالاحتـرام، وبارتعـاش أصواتهم الهادئـة في أثناء الكلام، وبنظرات أعينهم المتخاذلة، فقال لهم بلاتينيته السـليمة: «إن فقدان البلدان قدرٌ مكتوبٌ من نصيب الحكام، فلا تتألموا فقد أدّيتم واجبكم».

قدّم له الفرسـان باحترامٍ أربع زهريّاتٍ ذهبيةٍ عتيقةٍ مزدانةٍ باللؤلؤ من صنع الإغريق كانوا قد أحضروها معهم، وأعطوه موجزاً عن تاريخها.

فرح السـلطان سـليمان خان كثيراً بهديتهم. وفي المقابـل، قدّم لهم مجوهرات صاغها بيديه في ورشته، فكانت عبارةً عن قلاداتٍ رقيقةٍ مزدانةٍ

بالياقوت والذهب والألماس والأوبال، وخواتم رائعةٍ مرصعةٍ بالياقوت تحمل الختم السلطاني، وليس لها مثيل.

أبدى ليسل آدم فرحاً شديداً بهدايا السلطان، وظهرت ابتسامة عريضة على وجهه الحزين وهو يقول: «لن أجرؤ أبداً على الخروج في مواجهتك، حتى وإن كانت كل جيوش النصارى تحت إمرتي. فالدول النصرانية لم تساعدنا، لكنني أخاف أن يتجوّل سيفك الظافر على رؤوسهم في يومٍ من الأيام. فإن أذنت لنا، فإننا نريد أن نغادر الجزيرة هذا المساء».

فأجابه السلطان سليمان خان: «لكم الإذن بذلك أيها فرسان. يجب على المرء ألاّ يتألم حين يخسر، أو يتفاخر حين ينتصر. فالأيام دولٌ، وسيأتي سريعاً ذلك اليوم الذي يجد المرء فيه نفسه في باطن الأرض تحت الأقدام. فالغالب المنتصر منذ الأزل وإلى الأبد هو الله وحده. ادخل الإسلام، وسأعيّنك والياً على هذا المكان، وأصرّح لك بالبقاء فيه».

رفض ليسل العرض بأدب وقال: «أنت مشهورٌ بشهامتك أيها السلطان، لكنني أصبحت الآن عجوزاً، وأرجو ألاّ يذكر اسمي في سنواتي الأخيرة بين إخوتي على أنني جبانٌ ومرتدٌّ».

فقال السلطان سليمان خان بابتسامةٍ متفهمّةٍ: «أنت أدرى بأمرك، يمكنك الرحيل».

وما إن خرج الفرسان، حتى وصل خبر استسلام الشاهزادة مراد ابن السلطان جام وولديه وطلبهم العفو. فتحوّل السلطان ما إن سمع الخبر إلى بركانٍ ثائرٍ خلال لحظةٍ واحدةٍ، وانفجر غضبه المتراكم نتيجة سقوط ما يزيد على عشرين ألف شهيدٍ على مدار أربعة شهورٍ واثنين وعشرين يوماً من السلالة العثمانية نفسها؛ وكأنما يقول: «إن وجود النصارى، واستمرارهم على حياة الكفر، وتحريكهم سيوفهم في وجوه أهل الإيمان لم يحدث في سلالتنا نحن العثمانيين، ولا يمكن أن أتحمل تنفسهم

وبقاءهم على قيد الحياة أبداً».

وهكـذا، كان قـد تـم الاسـتيلاء علـى كل الجـزر الاثنتـي عشـرة الموجودة في أكثر الأماكن اسـتراتيجيةً في شـرقي البحر المتوسط، والتي تصـل مسـاحتها إلـى 2,682 كيلومتـراً مربعـاً فـي حملـةٍ واحـدةٍ، بعد أن اسـتمرت دولة فرسان سـانت جين مئتين وثلاثة عشـر عاماً، كانت خلالها تتبع كنيسـة رومـا الكاثوليكية. وكانت هـذه آخر دولـةٍ صليبيةٍ تـم القضاء عليها من قـبل المسلمين، وتلاشت معها آمال الغرب مرةً أخرى في وقف هذا التقدم العثماني القاسـي. انتشـرت أخبار الفتح فـي كل أوروبا تحمل معها موجة هائلة من الرعب. وكان سـقوط قلعتي بلغراد ورودوس واحدةً تلو الأخـرى بعـد أن حاصرهما العثمانيـون ثلاث مراتٍ من قبل سـيحوّل اسـم السـلطان سـليمان خان إلى كابوس يسـيطر على العقول فـي النهار، ويحتـلّ الأحلام فـي الليل... كلّ هـذا وأنا علـى يقين بأنه لم يكن سـعيداً على الإطلاق.

كنّا نجلس في سـرادقه ليلاً عندما اقتربت نهاية الحصار، وأمام رقعة الشطرنج التي كنا نتسـكع حولها بأعيننا المنهكة وذهنينا المتعبين قال لي: «كنت أريد أن أعرف كشاعرٍ كبيرٍ فقط يا إبراهيم. كنت أريد أن أتمكن من البقاء بعيداً عـن كلّ هذا الـدم والدموع والخـراب... لكن، لـم يكن ذلك لي أبداً. فهم لم يتركوني كمـا ترى يا إبراهيم. لم يكن هناك بد من إشـهار السيف من أجل سـلامة أمتي والمسـلمين. ربما نكون قد أخرجنا الخنجر المغروز في صدرنا بسـقوط رودوس، لكنْ من يعلم يـا إبراهيم أيّ عوائق ستظهر أمامنا مجدداً».

2 كانون الثاني 1523

بعد ارتفاع صـوت الأذان من الأبراج، أدّينا صلاة الجمعة في كنيسـة سـانت جين التي تحولت إلى جامعٍ بعـد وقتٍ قصيرٍ بلمسـات المعماري

سنان أفندي البارعة. وأثارت الخطبة التي ألقاها شيخ الإسلام الزنبيللي علي أفندي أحزاننا، فاغرورقت عيوننا جميعاً بالدموع. واجتمع الديوان بعد الصلاة في قاعة الاستقبال المدهشة التي تطل على البحر في قصر ليسل آدم. وهناك، أمر السلطان سليمان خان وزراءه بأن يشاركوا في إعمار رودوس وتحصينها تحت إشراف قاسم باشا؛ حاكم الأناضول وولايات كراسي وميديللي وأيدن وساروهان ومنتشة. وسيكون على رأس الأنشطة المعمارية المعماري سنان بن عبد المنّان، واتخذ القرار بأن يبقى في الجزيرة ثلاثة آلاف إنكشاري لحماية المدينة، وأن يُخصص مبلغ مئة ألفِ فينيسية ذهبية للمرحلة الأولى من إعمارها. وقبيل المساء، وفي اليوم الخامس عشر من شهر صفر، تمّ الخروج إلى مرمريس مجدداً على صدى القذائف التي أطلقتها مدفعية الأسطول فرحاً بالانتصار.

10 كانون الثاني 1523

كانت عدم المبالاة التي استقبل بها الشعب السلطان المظفر أمراً لا يصدّق. فقد كان الهدوء يسود الطرقات التي نمرّ فيها. وفي المساء، كانوا يطفئون الأضواء في محيط السرادق الذي أقمناه، ويسحبون الحيوانات من المرعى. ولم يكن هناك صوت يسمع غير صوت الأذان. اجتاز السلطان سليمان خان الأودية الممطرة والسهول التي تحولت إلى أراضٍ موحلةٍ تحت حراسة عشرة آلاف جندي من جنوده. وكان من العجيب حقاً ألا يخرج من القرى أو المدن أو المراكز أيّ شخص ليستقبله. حزنّا جميعاً بسبب هذا الموقف، لكن السلطان سليمان خان قال لي إنه لا يريد أن يشعر بالغضب بعد ذلك الانتصار المبين. ولكنه في النهاية فقد صبره قبل انقضاء الليلة الأولى، وقال لي غاضباً: «أريد منك أن تعرف سبب هذا الأمر يا إبراهيم».

في طريقي إلى مدينة خسرنلر الصغيرة المجاورة مع خمسين فارساً

إنكشـارياً، كنت أشـعر بسـعادةٍ غامضةٍ لم أتبين على وجه التحقيق سببها. كنت أشـعر في ضوء خبرتـي العالية التي لـم تخذلني قطّ أن هذه السـعادة الثائرة في داخلي ليست سـوى نواةٍ لشيءٍ في مصلحتي. اسـتقبلنا أشراف القرية بشـكلٍ حسـنٍ، ورحبوا بنا وكأنّ شـيئاً لم يكن. لكننـي أدركت أنهم يخفون عنّـا حقيقـةً واضحةً تـرى بالعين مثـل ليل الشـتاء الغائـم الماطر المسيطر في الخارج. فالأهالي مسـتاؤون بسبب قتل شخصور أوغلو قبيل الحرب، ولذلك قاطعوا السـلطان صراحةً اعتقاداً منهم ببراءته. وكان ذلك يتيح لـي فرصةً جيدةً لـم يكن لـي أن أنالها ولو سـعيت للحصـول عليها؛ فرصةً أكبح بها قوة فرحات باشـا حليفـي الحالي المؤقـت كما حدث في مسـألة أحمد باشـا، وأحطّ من كرامتـه، بل وربمـا أتمكّن من قطع رأسـه. لا بـد أنها البشـرى التـي كانت أشـعر بها فـي داخلـي. وما إن عـدت إلى المعسـكر حتى سـعيت إلى مقابلة السـلطان، وبدأت بإخبـاره عن الوضع وأنا أضخّـم الأمور كثيراً. فمـا كان منـه إلاّ أن التفت إليّ وقـد ظهر التردّد على محياه وهو يقول: «لا يمكنني يا إبراهيم أن أنكر أنني كنت أشـك من الوهلة الأولى باقترافي خطأً. لكننا كنا سنضيع تماماً إذا تعرضنا لأي خيانةٍ في أثناء حملة رودوس».

تابعت وأنا أتصنّع الحزن: «مع الأسـف يا مولاي، لم يكن شخصور أوغلو من أمـر بقتل الوفـد الذي أرسـلته للتحقيـق، بل كان فرحات باشـا نفسـه. وهذه حقيقةٌ أعرفها منذ زمـنٍ، لكنني كنت أخفيهـا ولم أتمكن من البوح بها أمامكم. أما الذين تآمروا على هذه المذبحة، فهم بعض سـباهيي التيمارات[1] ممن يظلمون الأهالي التركمان والطلاب والزعماء. لم أرغب

(1) هم فرسان يعطيهم السلطان أو من ينوب عنه من الولاة والحكام أرضا بمساحة تقدر بإنتاج سـنوي يبلغ (20,000-30,000) أقجة (نوع من النقـود الذهبية والفضية التي تـم سـكها في ذلك العصر بوزن معيـن)، لقاء خدمات يؤديهـا أولئك في الحروب، والعناية بالمسافرين وخيولهم وغير ذلك في حالة السلم...

في إحزانكم في أثنـاء الحملة ولذلك لم أخبركم. ليس الشـعب وحده هو الذي يتحدث عن ذلك فقط، بل بعض رجال الدولـة أيضاً. فمعظم النّاس مقتنعون ببراءة شخصور أوغلو. ولم يكتف فرحات باشا بذلك، بل تعاون مع أولئـك الخونـة، فظلمـوا أتباعكم التركمـان فـي المنطقة ظلمـاً كبيراً. والناس يتهامسـون بـأن العثمانيين ينتقمون مـن الأتراك ويسـتعيضون عن نقصان الضرائب التجارية التـي تقل بما يفرضونه عليهـم. فرجال فرحات باشـا يقطعـون الطريق علـى قوافل تجـارة الأقمشـة الحريرية مـن القمحة والتافتا والأطلس والمخمل القادمة من الهنـد[1]؛ قبل أن تصل إلى بورصة (وهي مركز التوزيع إلى أوروبا)، ويفرضون عليها الأتاوات. وما يفرضونه على تجـارة البهـارات القادمة من حلـب وقونيـة وكوتاهية إلى إسـطنبول أسوأ».

شعرت بأن شـرارات الغضب التي تنطلق من عيني السلطان سليمان خان سـتحرقني، فتراجعـت خطوة إلـى الوراء، واسـتطردت فـي حديثي: «وأعتقـد أنه فعل ما فعله بسـبب عـدم ارتياحه من إعـلان جوبان مصطفى باشا والياً على مصر، وتعيين أحمد باشا وزيراً ثانياً و«سرعسكر»[2] للجند. لذا، قضى على بطلٍ مثل شخصور أوغلو وأولاده لينال مكانةً عندكم».

سـادت فتـرةٌ طويلةٌ مـن الصمـت، لم يكـن يُسـمع فيهـا إلا صوت الحطب البلوطي الذي يحترق في الموقد متناغمـاً مع صفير الرياح الباردة التي كانت تهب في الخارج. وارتفع صوت السلطان سليمان خان مرتجفاً هذه المرة: «لقد تسـرعت فـي الغضب على شـخصور أوغلو يـا إبراهيم، وسيحاسـبني الله علـى ذلك. ولـم يكن سـقوط بيري باشـا العظيم مغشـياً عليه في مجلسنا يومذاك حين سمع بالخبر من فراغ».

حاولـت التخفيـف عنه وأنـا أقـول: «لم يكـن لديكـم خيـار آخر يا

(1) أنواع من الأقمشة الحريرية.

(2) السرعسكر قائد الجيش، وما يقابل وزير الحربية في يومنا هذا.

مولاي، فإما أن يستمر ظلم فرسان رودوس، أو أن تقولوا لهم كفى. ولم يكن في إمكانكم أن تظلوا مترددين بين الأمرين».

وضع السلطان رأسه بين كفيه قائلاً: «ما الذي فعلته يا إبراهيم؟! لقد كنت أشعر منذ فترةٍ أن فرحات باشا منهمك في السعي وراء السلطة، وكان يجب أن أتصرف بفراسةٍ أكبر».

تابعت متظاهراً بأنني لم أكن على علم بما جرى: «يجب أن تكون عاقبة من يستخدم قربه منكم وسيلةً للخيانة - أياً كان قربه منكم - الهلاك يا مولاي».

«لكنه أمر قد انقضى يا إبراهيم، وأخاف أن أرتكب مصيبة أخرى لا قدر الله. وإذا كان فرحات باشا قد ارتكب خطأً ما، فإنه سينال ما يستحقه بالتأكيد. لكنني أعلم أيضاً أنه استطاع أن يخفي خطيئته إن وجدت؛ حتى الآن. ومهما فعلنا فلن نستطيع أن نثبت عليه التهمة بعد مرور كل هذه المدة. كما أنني لا أريد أن أرتكب شيئاً سيبعد بيني وبين أمي وأختي. إنه فرماني السلطاني، أبعدوا فرحات باشا الإبليس إلى الحدود، كي لا ترى عيناي هذا الكلب مجدداً. فأنا أرجو أن يتوقف ظلمه إن تغير مكانه... سأكلف رجلاً ليحصي عليه خطواته، فأعلم ما يفعله خطوة خطوة».

سألته محاولاً أن أخفي نشوة السعادة العارمة التي كانت تجتاحني: «من الشخص الذي تفكرون في وضعه مكانه يا مولاي؟». ظهر الغضب والدهشة في عينيه وقال: «كيف لي أن أفكر بكل شيء بمفردي يا إبراهيم؟! أنت كبير مربي صقور السلطان[1]، ومن يقم بهذه الوظيفة فعليه أن يجد الحلول، فاقترح أنت».

«أعرف رجلاً ذا عقل راجح، ويتفانى في عمل الدولة يا مولاي، وينفذ الأوامر من دون أن يسأل أسئلةً كثيرة تضجركم؛ إذ ليس لأحد أن يرهق حاكم الدنيا بأسئلته». كنت أعني بذلك بيري باشا. فلوّح السلطان

(1) ربما كان المقصود جهاز الاستخبارات الخاص بالقصر.

سليمان خان بيده في ضيق وهو يقول: «قل من هو يا إبراهيم».

«أقترح إياس باشا أمير أمراء سوريا الذي عينتموه مكان جان بردي. فهو في منتهى الإخلاص والعدل والطاعة يا مولاي».

فقال السلطان بحدة: «أنا لا أحب زير النساء ولا أثق به. وها أنت تشير علي الآن أن أوليه منصباً رفيعاً داخل دولتنا».

«أن نعلم نقاط ضعف أحدهم خيرٌ من ألاّ نعلم يا مولاي. فأهم ما يميّز إياس باشا هو إخلاصه وقوته في أداء عمله. فهناك الكثير من الرجال الذين يتصفون بالمهارة، ولكنهم مترددون. وبعضهم يأخذون الأوامر وينفذونها بلا تردد، ولا تكون لديهم مشكلةٌ إلا في كيفية تنفيذها بأفضل وسيلة. وإياس باشا من هذا النوع».

أشاح السلطان بيده، وتحدث بصوت من لم يعد يطيق سماع المزيد حول هذا الأمر: «افعل ما تريده يا إبراهيم ما دمت ترى أنه الأفضل. أرسل علم الوزارة ذا الريشات الثلاث مع فرقة المراسم بمجرد وصوله إلى إسطنبول».

غادرت سرادق السلطان وأنا أشعر بنشوة ظفرٍ عظيمٍ؛ فكل شيءٍ يمضي كما أريد.

31 كانون الثاني 1523

انتهت أخيراً حملة رودوس التي استمرت سبعة شهورٍ واثني عشر يوماً، ووصلنا إلى إزميت؛ قلعة ديليس. وكنا نبحر على متن سفينة حربية متواضعة تعمل بالمجاذيف والأشرعة، متقدّمين بسرعةٍ بفضل الرياح الشمالية وجهود المجذّفين. أراد السلطان أن يدخل إسطنبول هذه المرة بهدوءٍ؛ تماماً مثل أبيه، وقد أقيمت الاحتفالات في المدينة لمدة عشرة أيامٍ. لكنني كنت أعلم جيداً أنه لم يكن هناك شيءٌ يشغل باله أكثر من شوقه للقاء حرّم. إذ كانت حالة الشوق المسيطرة عليه واضحة للغاية. فلم

يكن يسمع الأسئلة أحياناً، وإذا سمعها لم يكن يستطيع أن يجيب عنها كما ينبغي. جربت حظّي مرّةً أخرى:

- آن الأوان لانتقالي إلى المنزل الذي أمرت ببنائه من أجلي يا مولاي.

كان لا بد من أن أنتبه لكلامي، فقد أشاح بنظره عن ليل البحر الذي كان يراقبه من زجاج قمرته في السفينة والذي ينفتح على الأحلام، وقال في أناةٍ: «أنت تعرف النساء يا إبراهيم!».

فهمت من النظر إلى محياه ما كان يفكر فيه، فقلت من دون انتظار: «هذا ما يجب أن يحدث يا مولاي. لا نستطيع أن نعيش طيلة العمر تحت السقف نفسه». ابتسم ابتسامة من يشعر بالذنب وقال: «صدقني، لا يوجد فرقٌ بين المنزل الذي ستنتقل إليه والقصر. فلا يوجد منزل أشد روعةً من هذا المنزل في إسطنبول».

- المهم بالنسبة إليّ هو منزلي الداخلي في قلبكم يا مولاي. فملك الدنيا يأتي ويزول، أما بركة رضاكم فباقية. سأفتقد إلى تلك الليالي التي كنا نمضيها في غرفتين متجاورتين ونحن نتسامر حتى الصباح.

ظهر في عينيه بريق وهو يقول: «نحن صديقان إلى الأبد يا إبراهيم، إلى الأبد. لن تدخل بيننا حرّم ولا غيرها».

إلا أن الشك وقع في قلبي. هل يثق بما يقوله، أم إنه يريد أن يتأكد من ذلك؟ وأردت أن أستوثق منه فقلت له: «هل تقسم يا مولاي أن تظل مخلصاً لما تقوله إلى الأبد؟». عانقني بمحبة وقال: «أقسم على ذلك. وقسمي صحيح يا إبراهيم إن كنت ابن ياووز. أنت أخي، ولتزِل هذه النظرات عن وجهك، ولا تدخل في عقلك أيّ أفكار سلبية». فتبسمت بحب وتمتمت: «أنا أصدقك يا سليمان».

III

رست السـفينة في الخليج، وكان جنود الحماية الخاصون مصطفين بشـكلٍ مخيفٍ في تلـك الليلة من ليالي الشـتاء دامسـة الظلمـة رغم بريق المشـاعل. ترجّلنا من السـفينة، وتحركنـا فوراً إلـى القصر بصحبة سـعيد جلبي وكيل قاضي إسـطنبول، ومحافظ إسـطنبول عزت باشـا وكيل بيري باشـا مسـتقلّين عربة السـلطان. كانت حـرّم علـى رأس فريق التشـريفات خارج القصر. ومـا إن رأتني حتى قطبـت حاجبيها بعداءٍ. منـذ متى تحطّم ذلك التعاون الصامت بيننا؟! لم أعد أذكر، فبعد أن كنا نسـعى معاً لكشف مكائد القصر المحاكة ضدنا، أصبحنـا معاً في ظلامٍ، ونحن نجهل ما يدور حولنا... لم يكن أحدٌ يسـتطيع التدخل في سيطرة حرّم الخفية على القصر بعد الآن. من المؤكد أن ثقتها في وجود الشاهزادة محمد الذي يزيد عمره عن ضعـف عمرهـا ذات تأثير. وأنـا على يقين بأنها تسـتخدم هـذا الرجل الغامض ضـدّي كمـا تسـتخدم أورخون جلبـي، لكننـي أعلم أيضـاً أن ما يتحدث في ظل ألعاب السلطة هذه ليس الأدلة بل الحدس والفراسة. وأنا أعلم كيف أثق في حدسي جيداً.

15 آذار 1523

لم يكن أحمد باشـا شـديد الـذكاء، لكنه كان علـى درجـةٍ عاليةٍ من المكر والعنـاد. وكان يعيش سـحر الكلمـات القليلة التي همسـت بها في أذنيـه عن عـزم السـلطان علـى إحالة بيـري باشـا إلـى التقاعد بعـد حملة رودوس. وبعد أن خلا الجو من فرحات باشـا، بدأت أمنياته الخبيثة تنمو، وبدأت خططه الخبيثة المظلمة التي تدور في عقله الذي يعيش فيه أربعون ثعلباً تبدو على خطوط جبهته الضيقة؛ وكأنها دخان ذو روائح كريهة. كنت

سأكتفي بعد ذلك بالجلوس وباحتساء الشراب مشاهداً المسرحية التي حبكتها. كان هناك ما يشبه معاهدةً جديدةً صامتةً بيني وبين حرّم. وكنت أكتفي بتدعيم التحالف الذي كوّنته زوجات السلطان الأخريات فلانة وماهي دوران وغولفم من الخارج. ولم تكن حرّم تستطيع أن تثبت شيئاً حتى لو ارتابت في الأمر. وكنت أعلم أنها لا تذكرني كثيراً أمام السلطان، طالما أنها لم ترني أو تسمع باسمي... وما يجب عليّ فعله الآن هو الصبر حتى أنهال عليها بضربتي القاضية. لذا، بدأت أهتم بشؤون الدولة، وتشاغلت بها بعيداً عن نظرات أورخون جلبي الحادة.

كان الوزير الثاني والسرعسكر أحمد باشا يرى أنه ما من أحد غيره يطمح في منصب الصدر الأعظم، ويعيش في عالم خيالي بسبب تلك الكلمات التي قلتها له. حتى إن المسكين بدأ يقول أشياء تكاد تضحك الغربان الموجودة في حديقة القصر. قلت له بعد إحدى جلسات الديوان: «يا سيدي، لم نعد بحاجة إلى تلك العقول البالية. لذا، يجب أن يكون هناك فريق عمل في السلطة تحت قيادتك». فحكّ لحيته وهو يفكر، ثم قال بصوتٍ منخفضٍ: «إنك محقٌّ يا إبراهيم آغا. وسيكون لذكاءٍ لامعٍ مثل ذكائك مكانٌ في هذا الفريق حتماً. فلا تبخل علينا بدعمك». وذات مرةٍ، ولأنني لم أجد الجسارة لزيارته في منزله شخصياً، سعيت إلى لقائه صدفة في بهو القصر وقلت له: «لا يمكن أن أكون أنا فقط من يرى نظرات إعجاب سلطاننا بك». فقال بطريقة تنم عن خباياه: «أنا أيضاً على علم بذلك يا إبراهيم آغا». واستطرد بنظرة مفعمة بالرغبة والتفاؤل: «طالما أنك تدعمني؛ فالسلطة ستكون لنا».

حرص هذا المسكين وغضبه المتبقي ضد بيري باشا منذ حملة بلغراد قد أفقداه عقله، حتى إنني سمعته بأذني مرةً يقول في الديوان: «لن يتحمل بيري باشا العظيم هذا الأمر». وأشاع أن بيري باشا يعمل لحساب الشاه إسماعيل بدعم الباشاوات من الأصل التركي. وعندما لم يفلح في

مسعاه، أذاع أن بيري باشـا ومن حوله يتصرّفون في الدولة كما لو أنهم في مزرعة، وينشرون الرشى على طول حدود الإمبراطورية.

24 تموز 1523

لم يستطع أحدٌ حتى السلطان سليمان خان أن يعرف مصدر تلك الشائعات الغامضة التي تتحدث عن بيري باشا، ولم يتمكن أورخون جلبي من اكتشاف مصدرها أيضاً. لم يكن السلطان يصدّق ما يسمعه، لكن المشكلة تكمن في ما تتعرّض له هيبة رجال الدولة الذين يخدمون طويلاً في مناصب هامةٍ في أواخر أيامهم. وكان يمكن لهذا الموقف أن يتصاعد ويفتح الطريق أمام الشغب والاضطرابات. وكان السلطان في الآونة الأخيرة قد سئم من النزاعات بين زوجاته، فارتفعت عيناه وتركزتا على طول الحدود مجدداً. ولا يمكنني أن أغفل هنا عن شعوره بالضيق بسبب قلة الأموال التي بقيت في الخزائن التي ورثها عن أبيه، والتي شارفت بسرعة على النفاد.

بدا شارلكان كما لو أنه يريد أن ينفث غيظه من توسّع نفوذ الدولة العثمانية العلية من دون أن يتمكن أحد من الوقوف في وجهها بالانتقام من الفرنسيين. فالمساعدات التي قدمناها لفرانسوا الأول في سبيل الحفاظ على أراضيه موحدةً، والنجاة من الاحتلال الألماني لم تعد تخفى على أحدٍ. وقد لفت المبعوث الألماني نظرنا إلى ذلك عدة مراتٍ، لكننا لم نوله أي اهتمام. ولم يتردّد الألمان في تعذيب جنودنا الذين وقعوا أسرى لديهم حتى الموت. ومن المؤكد أننا سنقف وجها لوجه مع الألمان بسبب الفرنسيين.

وكان ملك المجر لاجوس الثاني وهو في قمة الخطر، قد أقدم على الزواج من ماريا فون هاسبورغ شقيقة شارلكان في العام الماضي، وخطب أخته آنّا لأخيه غير الشقيق فيردناند، لكي يشعر بالأمان. ومنذ ذلك الحين،

إن أي عملية تحصل ضد المجر تعتبر ضد شارلكان. وبهذه الثقة التي أولاه شارلكان إيّاها، كان لاجوس يتدخل في مسألة الأفلاق بشكلٍ دائمٍ، ويتحالف مع البوغضان ضد المصالح العثمانية؛ في إشارات تدل على المدى الذي يمكن أن يبلغه.

أما اللوثريون فكانوا تحت الضغط؛ بالرغم من كل الدّعم الهائل الذي قدّمناه لهم. وكلما ازداد تقدير السلطان للبروتستانت، ازداد معه ضغط شارلكان عليهم. ومن المؤلم أن الضغط الذي تمت ممارسته على بروتستانت المجر كان أشد بكثير من ذاك الذي تمت ممارسته على البروتستانت في أي دولة أخرى؛ استفزازاً للعثمانيين. وكانت محاكم التفتيش تحاكم كل من يظهر في المجتمع كزعيم للبروتستانت، ويحكم عليه بالحرق حتى الموت. لم يكن باستطاعتهم انتقاد لوثر علناً، لكنه تعرض لثلاث محاولات اغتيال في السنة الأخيرة. ولأنهم لم يكونوا ممّن يضعون صوراً في كنائسهم، ولا ممّن يسجدون للتماثيل، وكانوا ممّن يعتبرون سيدنا عيسى عبد الله ورسوله، ولأن ياووز وسليمان يظهران نوعاً من الاهتمام بهم؛ كانت ترتكب بحقّهم كل تلك الجنايات، وكان قد آن الأوان للوقوف في وجهها، والتصدي لها.

* * *

عندما استدعاني السلطان في ساعةٍ متأخرةٍ من الثاني عشر من شعبان صاحت جارياتي فزعاً. لم أفهم سبب ذلك في البداية، حتى بين لي بعض من لديهم خبرة ومن بينهم الكاخيا أن استدعاء أحد أشراف القوم إلى القصر في وقت متأخر من الليل لا يمكن تفسيره كعلامة خيرٍ. فكان أول ثمنٍ سأدفعه بعد بقائي منفصلاً عن القصر تحت الضغط الذي تمارسه حرّم، هو انعكاس الخوف الرهيب الذي يشعر به من يحيطون بي عليّ أيضاً.

ولم أكد أصل إلى السلطان حتى بادرني قائلاً: «إن قراري لا رجعة

عنه. يجب أن أحافظ على سلطة بيري باشا وأحميها يا إبراهيم. فلا يجب أن نسمح لهم بالتمادي ضده أكثر من ذلك». وكانت تلك فرصة سانحة لي لأقول: «إن أحمد باشا يطمع في منصبه يا مولاي». فقال السلطان سليمان خان: «أعلم ذلك». ثم نظر إلى الشمعدانات البلورية وعيناه تلمعان كالكريستال وقال: «يمكن أن يكون أحمد باشا مصدر الشائعات التي انتشرت عنه». فتظاهرت بأنني مندهشٌ وقلت:

- ماذا تقولون يا مولاي؟! هل من الممكن أن يفعل أحمد باشا شيئاً كهذا؟

- هل نسيت تصرفاته السابقة يا إبراهيم؟! إن أحمد باشا رجلٌ جشعٌ، ولا يروق لي.

- يا الله! أنا من اقترحت اسمه لتولي هذا المنصب يا مولاي. أستميحكم عذراً يا مولاي.

- لست مذنباً في ذلك يا إبراهيم. فالرجل أفصح عن حقيقته مع مرور الوقت، وذهبت ثقتنا به أدراج الرياح. سأجمع الديوان غداً صباحاً، وأشكر بيري باشا على ما بذله من جهود، ثم أعلن إحالته إلى التقاعد.

التقط السلطان نفساً عميقاً، ثم مسح جبينه الذي يتلألأ بلون العقيق والياقوت وقال: «هل كانت مكائد كهذه تحدث في عهد أبي يا إبراهيم؟ هل ترى ما هي نتيجة الرحمة؟ يجب أن يكون السلطان ذا قبضةٍ حديديةٍ في إدارة الدولة».

- لم يقولوا عبثاً: إن المرض ينتج عن الرحمة يا مولاي.

أنزل السلطان يده بخفة ووضعها على ركبته، وقال: «لا، يعلم الله حالي ونيتي».

فسعلت سعالاً خفيفاً، ثم طرحت السؤال الذي طالما جال بخاطري: «بمن تفكرون يا مولاي؟». فالتفت نحوي، ونظر إليّ نظرات مليئة بالحب والبشارة - لكنها لم تكن كافيةً للقضاء على شكّي وارتيابي

- وربّت على ظهري، وضحك: «ستعرف ذلك قريباً يا إبراهيم».

اجتمع الديوان قبيل ظهيرة يوم 26 حزيران. وفي ذلك الاجتماع، أحال السلطان سليمان خان بيري باشا إلى التقاعد بحنكته، فيما كان أحمد باشا يحاول إخفاء ابتسامته تحت شاربيه العريضين؛ فقد كان واثقاً من أنه سيكون الخلف المختار. لكن السلطان فاجأ الجميع، وتغير كل ما كان متوقعاً. إذ أعلن السلطان بشكل مفاجئ أنه سيرفعني من منصب كبير مربي صقور القصر، لأصبح والياً على ولاية روم التي ارتفع شأنها في الآونة الأخيرة. وتملكت حالة من الغضب والدهشة أحمد باشا، حتى إنه تجرأ على رفع صوته في مجلس السلطان قائلاً إنه لا ينبغي أن يكون جزاء السنوات الطويلة التي خدم الدولة بها هكذا. ولأنه لم يكن بإمكانه أن يتحمل هذا الخزي، فقد طالب بإبعاده وإرساله إلى مصر. وبتلك الكلمات الحمقاء التي تفوه بها، كان أحمد باشا يزف إليّ بشارةً أخرى تزيح هما آخر من طريق مستقبلي، فبادرت إلى القول والدهشة ما زالت تتملكه: «أعتقد أن ذلك مناسب يا مولاي. فمصطفى باشا هناك منذ فترة كافية، وأعلم أنه لا يحب الأماكن الحارة، فلنحضره إلى المركز، ولنرسل أحمد باشا وفقاً لرغبته إلى مصر ليكون والياً عليها».

أدرك أحمد باشا أنني كنت أستغله طوال ذلك الوقت، ونظر إلي بعينين يملأهما الحقد والضغينة، وأصبحت بشرته شديدة البياض حمراء أولاً، ثم ذات لون بنفسجي عجيب؛ وذلك بعد أن أدرك الخيانة التي تعرض لها. وكانت نظراته نظرات رجلٍ يقسم على الانتقام في يوم من الأيام. شعرت برعشة الخوف تسري في أعماقي رغم مركز القوة الكبير الذي بلغته. ما الذي يمكن لهذا الرجل أن يفعله بي؟ يمكنه أن يوقعني في مخاطر كثيرة في المستقبل، لكنني سآخذ حذري منه. قدّم السلطان الشكر إلى الباشا على خدمته المستمرة للدولة منذ أيام والده، في مدةٍ بلغت خمس سنوات وتسعة شهور وأربعة عشر يوماً، وودعه قائلاً إن راتبه

السنوي سيصبح مئتي ألف أقجة. وبذلك كان أحد عهود الدولة العثمانية يطوى، ويبدأ عهدٌ آخر جديد؛ عهد ترقّيت فيه من كوني إبراهيم آغا إلى الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وأنا لا أزال في الثامنة والعشرين من عمري.

30 تشرين الثاني 1523

بعد استلامي الفرمان المختوم في احتفالٍ رائعٍ، أمضيت أسابيعي وشهوري في توصية الوفود القادمة من الأناضول بالصبر والحلم، وفي محاولة إقناع البرتغاليين بتوقيع معاهدات تجارية، وفي البحث عن نقاط مشتركة بين البرتغاليين وأهالي البندقية. كانت رقعة الدولة تتسع، وأصبح السلطان يعرف بين الغربيين بعد فتوحاته الأخيرة باسم «المعظّم». كانت تلك الفتوحات عظيمةً، لكننا لم نستطع التكيف مع الخسارة الرهيبة التي منينا بها بسبب تراجع قيمة البهارات والحرير. كان كل شيء يُرى من الخارج على أنه مثالي، إلا أنه توجب علينا أن نفعل شيئاً حيال ذلك بسرعةٍ. وتوجّب عليّ أن أكون أكثر قسوة حيال الولاة الذين يغضّون الطرف عن قطاع الطرق واللصوص الذين ينهبون مزارع التركمان، ويستولون على بضائعهم ومنتجاتهم. من المؤسف حقًّا أن أعظم مصادر الدخل والتمويل بالنسبة إلى دولة كبيرة تحكم أراضي شاسعة هي الحرب. لكنني لم أكن أتجرأ قطّ على قول شيء كهذا للسلطان سليمان. فعندما تنحسر الفتوحات، ينخفض الدخل، ويخرج الإداريون المحليون عن السيطرة، ويكون المظلوم هو الشعب. وكانت النقطة الأخرى المهمة هنا هي إهمال رعاية الجياد مع مرور الأيام. فقد كنا نتوجه في استثماراتنا العسكرية نحو الأسلحة الناريّة الثقيلة، والمشاة المزودين بالأسلحة النارية لمواجهة جيوش أوروبا. وكان ذلك يفتح مجالاً لنفقاتٍ غير عادية، ويسبب الغضب المبرر لأصحاب التيمارات[1]. إذ كانت نفقات

(1) حيث تربى الخيول ويتم تجهيز الفرسان وتدريبهم.

تزويد الأسطول بأسلحةٍ ناريةٍ جديدةٍ تزداد يوماً بعد يومٍ، وكان ازدياد نفوذ شارلكان وقوته يوماً بعد يومٍ يعصفان بصادراتنا القطنية والحريرية التي كان مركزها بورصة التي كانت أيضاً المركز الرئيس لتوزيع واردات الصوف. حتى إن أهالي البندقية الذين يعملون بالتجارة منذ فجر التاريخ لم يكن يسعدهم ازدياد نفوذ شارلكان، ولم يكن لنا بد من الدخول في صراع معه، ومن الانتصار على هابسبيرغ عاجلاً أم آجلاً.

أما المحاصيل الزراعية التي كانت تمثل أهم مصادر دخلنا، فقد كانت في حالة ركود منذ تولي الشاه إسماعيل السلطة؛ وذلك بسبب سخط التركمان الذي لا ينتهي. ونحن مجتمعٌ زراعيٌّ، وهذا واقع لن يغيّره اتساع رقعة الدولة وضمّها أراضي شاسعة فقيرة. وقبائل التركمان التي كنا نحملها على الهجرة مع اتساع أراضينا، كانت تواصل تمرّدها واحتجاجها بسبب انتقالها إلى حياةٍ غير ملائمةٍ لطبيعتها. ولم يجد نفعاً دعمها بالبذور، وتخفيض الضرائب المفروضة عليها. لذا، كان على الدولة أن تجد وسيلةً للصلح مع أتباعها التركمان، والبحث في مطالبهم بشكل جدي؛ وإلاّ فسيتفاقم الوضع، وسيدخلنا في ما لا تحمد عقباه.

أرسل الشاه إسماعيل وفداً من خمسمئة شخص يرأسهم تاج الدين حسن خليفة أحد علماء الشيعة، فوصلوا إلى أسكودار في الأسبوع الثاني من شهر نوفمبر. اكتفى السلطان سليمان خان بعد أن سئم من سوء العلاقات مع التركمان باستقبال عشرين شخصاً من الوفد الذي تم إرساله إلى القصر. قرأت في حضوره الرسالة التي قدّم فيها الشاه إسماعيل العزاء له بوفاة أبيه السلطان سليم خان، وبارك له بفتح قلعتين مهمتين مثل بلغراد ورودوس. فشكر السلطان الوفد، وطلب منه الإقامة في ضيافته لفترة، وأمر بكتابة ردٍّ لطيفٍ، وودّعه به بعد عدة أيام.

ذات يوم، زارني بيري محمد باشا كما كان يفعل دائماً، فأخبرته عن بعض همومي باقتضاب، فأسهب لي في الحديث عن صعوبة الوجود في

السلطة، وأورد بعض الأمثلة التي تبيّن أن الكثير من الأمور الخداعة في مظهرها تخفي غير ما تبدي. كان محقاً في ما يقوله، لكنني كرهت أسلوبه التهكمي الذي بدا فيه وكأنه يقول لي: «هذه ليست مشكلتي الآن، بل إنها مشكلتك».

* * *

كنت أعد خطّة صغيرةً لمحاسبة حرّم على مواقفها ضدي، ولقلب مسار الأمور. بل كنت أريد ضرب عصفورين بحجرٍ واحدٍ؛ إذ كنت أسعى للتخلص من حرّم وحليفها وهيمي جلبي معاً. ولذلك كان يجب عليّ الحذر والصبر. كنت أخطط لحل الموضوع باستعمال نوعٍ من السّمّ الذي استولى عليه الغزاة التتار منذ سنواتٍ من تاجرٍ صينيٍّ، وباعوني جزءاً منه بثمنٍ فاحش الغلاء. كان في خزانة الأدوية السرية العديد من السموم. وكانت الخزانة مصنوعة من خشب الصندل، وموصدةً بسلسلتين حديديتين. وكان المسؤول عنها كبير الأطباء صنع الله أفندي. لكنني كنت الوحيد الذي يعلم خصائص هذا النوع من السموم وتأثيره. فذات ليلة، كنت في منزلي في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل مع أحد الغزاة التتار، وكانت رائحةٌ كريهةٌ كرائحة الجيفة تفوح منه. أخرج التتري من جيبه علبةً مخمليةً صغيرةً ملفوفةً بقماشٍ، ولوّح بها أمام عينيّ، وابتسم بفمه المعوجّ قائلاً: «هذه العلبة مسحورةٌ يا باشا». واستطرد في غموضٍ: «ولولا ذلك، لكانت بودرة الغوبي الموجودة داخلها قد اخترقتها». كانت عيناه تلمعان كاللهب وسط وجهه الذي تملأه خطوط عميقة. وكنت أستطيع أن أشم رائحة الشراب المنبعثة من فمه.

«لا تدع أي ذرة منه تلمس جلدك». ثم مد يده إلى خنجري، واستله بلا أدبٍ، لكنني لم أقل شيئاً لأنني كنت معتاداً على فظاظة هؤلاء القوم. ثم أمسك بذراعي، وسحبني إلى الشرفة قائلاً: «ما ستراه الآن يجب أن يكون في الخارج أيها الباشا». وفي تلك الليلة الباردة الخالية من النجوم،

أخذ التتري بضع حبات من العلبة تشبه حبات الياقوت، ووضعها على نصل خنجري الصلب الذي كان يلمع. في البداية لم يحدث شيء، ثم ما لبث ضوءٌ أحمر أن ظهر، وبدأ طرف النصل بالذوبان. وقال التتري: «لا أنصحك بتنشق الدخان الناتج. وما خرجنا إلى الشرفة إلا لأريك ما يجعلك ترى الكوابيس لشهورٍ». وبالفعل، بدأ الدخان يتصاعد من الثقوب التي أُحدثت في النصل فكتمنا أنفاسنا، وأدرنا رأسينا باتجاه السماء الحالكة والمطر. كانت تلك إحدى المرات القليلة التي خفت فيها كثيراً. حتى إنني لم أوبّخ الرجل على ما فعله بخنجري القيّم.

استطرد التتري قائلاً: «أعطه لمن تريد. لكن، حذار من خلطه بالماء لأن تأثيره سيتضاعف إلى الحد الذي تنهار فيه الضحية والكوب لا يزال في يدها؛ فيحدث عكس ما تريده وترمي إليه. اخلطه مع المشروبات، وحركه سريعاً وجيداً، وعندها لن يذيب الكأس. وبعد تحريك الشراب في الكأس عليك أن تضع الملعقة تحت مياهٍ جاريةٍ، ولا تضعها في منزلك أو محيطك. كما ينبغي أن تبذل كل ما في وسعك كي لا ينسكب، لأنه سيذيب كل ما يلمسه، وستنكشف حيلتك. هذه نصيحتي لك أيها الباشا».

قلت له: «لقد فهمت. إذا أعطيت بودرة الغوبي هذه بتلك الطريقة، فمتى سيظهر تأثيرها؟!». ابتسم مجدداً، وأظهر أسنانه السوداء وقال: «إذا نجحت في استعمالها وفق المقادير التي سأخبرك إيّاها، فسيظهر تأثيرها في مدةٍ تتراوح بين الأسبوع والعام، وستموت الضحية فجأةً بالسكتة القلبية».

«حسناً. هل يمكنني أن أحدّد بشكل أكثر دقة متى ستموت الضحية؟».

فغمز بعينه واقترب مني هامساً: «ستزداد قوة الضحية لتصبح كالثور قبل وفاتها بثلاثة أيام، وستشعر أنها بصحةٍ جيدةٍ لم تحظ بمثلها طيلة حياتها». فتعجبت منه كثيراً، حتى إنني سألته من دون أن أبعد وجهي عن

رائحة أنفاسه الكريهة: «وإذا كنت مخطئاً....».

«وهل تعتقد أنك الوحيد الذي يشتريه مني؟».

لم أرتـح لكلامـه، لكن عقلـي كان لا يزال يفكـر في خزانـة الطبيب صنـع الله أفنـدي. كان علـيّ أن أظهر السـم وكأنه قـد أُخرج مـن خزانته. وبترتيباتٍ بسـيطةٍ، سـينزل الخبر على النـاس كالصاعقة، وسـيبقى اللص مجهولاً كلغز يبحثون عن حله.

سـألني التتري سـؤالاً لم أكـن أتوقعـه: «لـمَ يريد باشـا مثلك سـمًّا كهذا؟! فأنت تسـتطيع أن تأمر بدقّ عنق من تريـد». عندها، غضبت وقلت له: «يـا رجـل، هذه دولـةٌ لا تـدار شـؤونها كمـا تديـرون شـؤون قبائلكم الوحشية في واحات الاسـتبس. هنا، لا يمكن لأحدٍ أن يدق عنق من يريد من دون أدلةٍ وبيناتٍ».

«حتى السلطان؟!».

«حتـى السـلطان. وكلّ رجـل نشـطٍ مثلي ويعمـل في منصـب مهمّ، يجـب أن يكون حريصـاً دائماً. أفهمت؟ هيـا خذ هذه العلبـة الآن واغرب عن وجهي. وإن أخبرت أحداً عن هذا الأمر فسـأجعل وجهك القبيح هذا طعاماً للكلاب».

خرج الرجل من بيتي وهو يبتسـم في ظل مراقبة آغا الإنكشارية. وما سـيحصل بعد ذلك كان متوقفـاً على ذكائـي ودهائي. وجـاءت التطورات الأخيـرة لصالحـي، ولتؤكـد كل ما كنت قـد توقعته فـي حق أحمد باشـا، وتثبت صحة ما كنت أقوم به وأخطط له. وكان ذلك يزيدني ثقة بنفسي.

وكان الليل في أعماقي!
(سليمان خان)

I

«سيصدق الناس أعذاركم، وصدقكم، وثقل الآلام في أعماقكم... ولكن، بعد موتكم».

ألبرت جيمس (السقوط)

لم نستغرب كثيراً أنا وإبراهيم عندما سمعنا خبر تمرد أحمد باشا في مصر في تلك الأيام الثلجية العاصفة الأولى من عام 1524م. ولكن، كان هناك شيء ما يتحطم داخلي. وكنت أشعر بطعنات الآلام في قلبي بسبب الخيانة. وحدّثت نفسي قائلاً: «ليتني كنت مثل أبي رجلاً لا يبالي بما مضى، ويمضي متشبثاً بمنطلقٍ جديدٍ. آه، وكيف أنسى سريعاً رحمته التي تتسرب بصعوبة من درعه الصلبة، وعدم مبالاته التي تسندها قوة جسمه. فعندما كان وجهه الأبيض يتلبد، ويحني رأسه، ويطبق شفتيه المختفيتين تحت شاربيه الغليظين المرتجفين في هدوء، كان يحبس عالماً من الزلازل في أعماقه. إنها أعباء السلطة؛ ذلك الحمل اللعين الذي كان يحمله على عاتقه».

لكن إبراهيم يصرّ على أن قاضي زاده محمد بك الذي اصطحبه ذلك الخائن إلى مصر وعيّنه في منصب الصدر الأعظم له لا يزال على وفائه لي، وهو يتحين الفرصة لمعاقبة أحمد باشا على ذلك الفعل الشائن، وينتظر ظهور كل زعماء التمرد من أتباع المماليك القدامى.

فهل ينبغي لـي أن أسـأل إبراهيم عـن كيفية توقعـه هـذه الخيانة من أحمد باشـا منـذ البدايـة؟ وهل كانـت مهمـة قاضـي زاده محمـد بك في الحقيقـة تعقّب أحمـد باشـا لمواجهة حركتـه تلـك؟ أم إنها كانـت حركة لاسـتدراج أحمد باشا لقطع رأسـه؟ إذا سـألت إبراهيم عن ذلك فأنا أعلم علم اليقيـن أنه سـيقوم بإقناعـي بوسـيلةٍ مـا. وإن بحثت فـي الأمر سـرّاً، فسيظهر غضب مؤيديه وكأن ما أقوم به تدبير مسموم يتم من وراء ظهره.

وأنا لا أسـتطيع أن أكلّـف أورخون جلبـي بالتحقيق فـي الأمر؛ لأنه ليس سوى رجل يحشـد الأدلة ضد إبراهيم. وجميع من حولي أطرافٌ في حربٍ مسـتمرةٍ صامتةٍ ودامية. فيما أبقـى وحيداً، وأنا أمـارس دور الأصمّ وسط الفوضى.

ولكن، لم يكـن هناك بـد من تكليـف أورخـون جلبي ليتحـرك قبل إياس باشا الذي انطلق مع جيشـه المكوّن من ثلاثة آلاف جندي من جنود النخبة. غيـر أن قاضي زاده محمد بـك ألقى القبض علـى الخائن في غارةٍ ليليةٍ مفاجئةٍ، وتـم إعدامه فيما الجيـش لا يزال في الطريـق. لقد بلغني أن أحمد باشا حارب بشجاعةٍ لا تتناسـب وفطرته الضعيفة، ولـم يلتمس أمانا ولا عطفـا ولا رحمة. ولما سـلّط سـيف قاضـي زاده على رقبتـه نظر إلى خصمه بثبـاتٍ، وكانت آخـر كلماتـه: «من عاش بالسـيف فسـوف يموت بالسيف».

وبعد التشـهير برأسـه المعلق علـى باب الزويلـة في القاهـرة؛ حيث علقت جثـة السـلطان طومـان بك فـي زمن والـدي لمـدة ثلاثة أيـام، قام وهيمي أورخون جلبي بوضعه في كيس جلدي مليء بالعسـل أحضره إلى إسطنبول. صمتّ وأنا أرى رأسه، وطال صمتي وأنا أنظر إلى تغضّن جلده الأبيض، وإلى لسـانه المتضخم الـذي خرج من فمه المفتـوح، وإلى عينيه الخاليتين من كل تعبيرٍ، والزائغتين في كلّ اتجـاهٍ، وجميع الحضور حولي يساورهم قلقٌ بالغٌ.

ورغم كلّ شيء، استمرت الحياة، وحدث في تلك الأيام تطورٌ أسعدني كثيراً. فبجرأة لا تخفي علامات الإحراج والخجل استأذن إبراهيم باشا في ذلك المساء طالباً يد أختي خديجة سلطان للزواج؛ معتمداً على صداقتنا القديمة والقوية. وكانا قد التقيا معاً عدة مراتٍ، وأحبا بعضهما، واتفقا على العيش معاً. وفي الواقع، كان ذلك الأمر يخطر ببالي منذ زمنٍ، ولكنّ الحياء كان يمنعني من الإفصاح عنه، ولكنني أعلم أيضاً أن السعادة كانت شديدة الوضوح في عيني وملامح وجهي. غير أنني لم أكن لأغفل أيضاً عن تلك الضربات الخفية والناعمة للفرشاة في اللوحة الحقيقية؛ والتي تكشف تحركاته الخفية والذكية ضد حرّم. ولم تغب عن بالي قطّ كلمات مركز أفندي: «من يعش بين الكاذبين، لا بد أنه سيجد نفسه كذبةً يصدقها». لست أشك في حب إبراهيم لي، فهو يؤدي دور الصديق الجيد لي منذ فترة طويلة من الزمن. والإنسان إن لم يستطع أن يكون كما هو؛ فهو يتلوّن بلون الشخص الذي يتقمص دوره. وقد أحسست منذ زمن بعيدٍ أن إبراهيم يستمد قوته من غضبه على عبوديته. لكنه الآن وهو في ذروة قوته ليس عبداً، بل إنه سيدٌ حقيقيٌّ. وهذا الزواج سيخفف من غضبه من ماضيه، وسيلبسه شخصيةً مختلفةً تماماً عما هو عليه.

وفي عشية ليلة العرس، وبالتحديد في الثاني والعشرين من شهر مايو، وصلنا خبر وفاة الشاه إسماعيل خصمنا اللدود في الشرق عن عمر يناهز السابعة والثلاثين. لقد كانت الصفعة التي تلقاها من والدي قويةً إلى الحد الذي لم يتمكن بعده من استعادة بلاده، ولا من التقاط أنفاسه، فكانت وفاته نتيجة هذا الحزن والكمد. وخلفه ابنه طهماسب ذو السنوات العشر، وبذلك بلغ وجهاء التركمان السلطة... كتبت خطاب التعزية، وأرسلته في مظروفٍ ذهبيٍّ كان قد أرسله لي منذ فترةٍ.

استمر عرس إبراهيم باشا والسلطانة خديجة حتى الخامس من شهر

حزيران، وأسعد المواطنين في الأستانة ومحيطها. كنت أتجول بعربتي في أنحاء السلطنة سعيداً، فيما الأفراح تغمر الميدان نهاراً. وفي الليل، كانت الألعاب الضوئية والنارية تزداد، وتستمر الاحتفالات التي تعبر عن قدرة الدولة وثرائها. وعندما كان إبراهيم باشا يلقي بعض القصائد الجميلة لمن أفضّلهم من الشعراء أمثال خيالي وذاتي وفيغاني، كنت أبلغ قمة نشوتي وسعادتي وكرمي. كما كنت أستمتع بقصائد الشعراء الشعبيين أمثال كبير سلطان أبدال وكيغوسوز أبدال وسيد نسيمي. وفي تلك الأثناء، فيما الاحتفالات بالعرس على قدم وساق، رزقت بأميرٍ جديدٍ في الخامس والعشرين من شهر رجب، لتزداد بذلك فرحتي. لقد نجحت في تلك الأيام بالتخلّص من الهموم، وتمتعت بالطمأنينة وراحة البال وهدوء التفكير؛ ولو إلى حين... نعم نجحت. ومرةً أخرى كان السبب في ذلك إبراهيم، لذا شعرت تجاهه بالامتنان مجدداً. ومهما يكن الأمر، فلا يوجد حولي من يفكر بسعادتي سواه.

سميت ابني سليماً، وأذّن له يحيى أفندي، وطلبت منه أن يدعو له بأن يكون قائداً مهمًّا كأبي، وأن يبلغ بالدولة العلية قمماً جديدة عليا.

بعد العرس، قام إبراهيم الذي لقبته بمقبول داماد باشا بالإبحار بالأسطول إلى مصر لوضع قانون نامة مصر موضع التنفيذ، وليجري فيها بعض الإصلاحات. وكنت قد وضعت في لوائح قانون نامة بعض القوانين الصارمة مثل: «إذا تمرد عرب البدو وظهرت بسببهم العداوة والفتنة في السلطنة، يجب قطع رأس المتسبب بذلك»، والتوفيق من الله.

عند انتهاء فصل الصيف، توجهت نحو أدرنة لقضاء فصل الشتاء فيها. وكنت قد خططت للقاء مارتن لوثر، ومبعوثي شارلكان لتحذيرهم مجدداً ليكفوا عن اضطهاد بروتستانت المجر. من جهة أخرى، كانت أحداث فرنسا توترني، وكنت أريد من شارلكان أن يدرك أن جهود فرانسوا لن تبقى بلا نتيجةٍ. كما كنت أريد أن أقوم برحلة صيدٍ كتلك التي

كان والدي يقوم بها في السـهول الخضراء والغابات الموحشة؛ فيما أتلقى في تلك الأثناء أخبار إبراهيم بانتظامٍ.

واجهت الأسـطول في أثناء انتقاله إلـى مصر عاصفةٌ كبيـرةٌ، غير أن السـفن وصلت إلى ميناء الإسـكندرية مـن دون أن تمسّ بسـوءٍ، ثم دخل إبراهيم القاهرة وكأنه السلطان. وأستطيع أن أجزم بأنه نجح في نقش مجد السلطنة العثمانية في نفوس الشعب على أكمل وجهٍ، وأطمئن إلى ذلك... فقد نشـر القطع الذهبيـة على الناس مـن الصناديـق المزينـة بالمجوهرات، وأهدى الشـيوخ والأطفال المعاطف المرصّعة بأزرار زمرد لا تقدر بثمنٍ، كما أهدى لجـام حصانه المرصع بالألماس إلى أحد سائسـي الخيول عند مدخل القصر، فأدهـش الجميع. وهكذا، تمكن من تغييـر نظرة الناس إلى العثمانيين؛ فهم أغنياء كثيراً، علاوةً على كونهم إخوةً لنا في الدين. انتشـر خبر السـائس واللجام، حتى إنّ سـكان القاهرة احتشـدوا في منزل الخادم وكأنه مزارٌ، وتصارعوا لكي يتمكنوا من رؤية تلك الهدية القيمة. استمرت ضيافة إبراهيم باشـا أيّاماً؛ كان خلالها يسـتمع إلى الشكاوى، فتهب أجواء العدالة فـي الآفاق، وتبـث روح التفاؤل فـي نفوس الناس الذيـن تعرضوا للظّلـم والاضطهـاد. ولن يمضـي العـام إلاّ وسـيصبح الشـعب المصري الأكثر وفاءً لنا. نعم، لن يكون مـن الممكن أبداً نسـيان خدماته هذه. ربما سيؤذيني جشـعه في بعض الأحيان، ولكنْ ليس من السهل على أي حاكم أو رجـل دولـةٍ وسياسـةٍ أن يجد رجـلا مثله. وأنـا في حاجة إلى شـخص مطواعٍ كإبراهيم، يتفانى في تنفيذ أوامري، وليس إلى من يعارضني في كل خطواتي مثل بيري باشا.

وفي رسـالة أرسـلها إليّ إبراهيم ونقل فيهـا الحديث الـذي دار بينه وبين بحارنا المشهور الرئيس[1] بيري باشـا وجدت متعة حقيقية. فأنا أعلم أن ذاك العجـوز ذئب البحر قـد وضع الخرائـط لأبعد المناطق فـي العالم

(1) الريس في لغة اليوم.

وأكثرها خفاءً. وقد ازدادت سعادتي عندما علمت أن إبراهيم استطاع إقناعه بتأليف كتابه الكبير الذي يحمل اسم كتاب البحرية عام 1521 وتضمينه آخر ما توصل إليه من معلوماتٍ.

كما قام إبراهيم بتعيين المخصيّ سليمان باشا والياً على مصر، وأرى أنه كان موفقاً في ذلك. إذ إنّ عبداً سابقاً مثله يستطيع تمييز العبيد الضعفاء والخاضعين عن أولئك ذوي الشخصيات العظيمة والقوية المتمسكة بالجذور؛ وثقتي بإبراهيم تامة.

وهنا أتوقف عند طهماسب، وعند إهماله خطاب تعزيتي له بوفاة والده، فقررت إرسال خطابٍ آخر:

«لو كان في نفسك المظلمة بسبب الاختلاف المذهبي بعض الاحترام لكنت قد متّ من الخجل كوالدك. ولكنك تعيش لتكون هدفاً لشفقتنا التي تتصاغر أمامها، ولتكون دائماً تحت تهديد سيفنا. لِمَ لم ترسل رسولك إلى قصرنا الذي يمكن اعتباره مركزاً للكون؟ ولِمَ لم تأت إلينا وترتمي عند قدمينا وتعلن ولاءك لنا كبقية الدول؟ اعلم أن سلوكك المغرور هذا سيدفعنا إلى الزحف نحو الشرق بإذن الله. إننا نريد أن نقيم فسطاطنا في بلاد فارس وطوران وسمرقند وخراسان. وقد أخرتنا الحملات التي وجهناها إلى أفخم وأعظم قلعتين في بلغراد ورودوس، والتي توّجت بالنجاح عن السير إلى بلاد فارس. وها قد أصبحت الآن الأماكن التي كانت أصنام الغرب تنتصب فيها جوامع للمؤمنين. راجع نفسك جيداً، فقد حولنا أنظارنا إليك، ونحن نعلن لك هذا التحذير على عادة الأبطال في إعلانهم الحرب على أعدائهم. فالبس ثياب أسلافك الدراويش، واخلع تاجك عن رأسك، وانتظم في صفوف الدراويش، وانسحب إلى عزلتك. وإن أتيت إلى بابنا واستجديت منا لقمة في سبيل الله منحناك إياها. وإلا، فاعلم أنك إن تحولت إلى نملة تغيب في باطن الأرض، أو إلى طير يغيب في السماء فسنبحث عنك في كل مكان،

وسنجدك. أصغِ إلى فرماننا هذا جيداً، واتخذ عبرةً من الماضي»[1].

* * *

وتمكنت خلال هذا العام من لقاء رسل هنري الثامن ملك إنجلترا كل على انفراد، واستطعت إقناعهم بتناسي العداوات التاريخية وحروب الأعوام المئة مع الفرنسيين، وحصلت منهم على وعودٍ أكيدةٍ للعمل معاً ضد شارلكان. وفي المقابل، فرحت كثيراً لتجاوب المبعوث الفرنسي الكونت أموري أفينال، حيث بدا أكثر ليناً من السلوك المتعجرف الذي لقيته من الإنجليز.

دخل الكونت معتمراً قبعة كبيرة مصنوعة من جلد الجمال، ومرتدياً بنطالاً ضيقاً يظهر ساقيه النحيلتين، وانحنى أمامي في مشهد مضحك وهو يقول باللغة التركية: «عاشت دولتكم». إنه سلوك يعجبني، ويعكس الرغبة الفرنسية في الحصول على صداقتنا.

التقيت البابا صاحب العقل المتفتح مارتين لوثر في قريةٍ صغيرةٍ في إقليم أدرنه. وفيما كنا نحتسي شراب الرمان من كأسين كريستاليتين، عرضت عليه القدوم إلى إسطنبول عند الضرورة، وحثثته على المقاومة، وقلت له إنني سأوفر له التسهيلات اللازمة كافة. ولكنني كنت أدرك أيضاً أنه لن يترك أتباعه وحدهم في الميدان. كانت عيناه الخضراوان تمتلئان بالدموع، فيصبح لونهما نفطيًّا بفعل أشعة الشمس التي تميل نحو الغروب. وفيما كان يتململ على أريكته المطلة على الأفق من النافذة البلورية الملونة، شكرني بلطف وخاض في حديثٍ مختلف.

أخبرني لوثر أن معارضة فويفودا أردال[2] (ترانسلفانيا) جانوس

(1) لاحظ توجيه الخطاب بصيغة المفرد؛ وفي هذا نوع من الاحتقار. وقد جرت العادة في الخطاب العثماني أن يكون بصيغة المجهول، أو بصيغة المخاطب الجمع.

(2) فويفودا Voyvoda: لقب أطلقه العثمانيون على أمراء مقاطعتي الأفلاق والبوغدان.

زابويـا لنفـوذ هابسـبيرغ والنظـام الملكي فيهـا تزداد حـدة كرد فعـلٍ على مركزيـة حكـم لاجـوس الثانـي ملـك المجـر. كمـا حدثنـي عـن اعتنـاق الفلاحين المجر الذين شـردهم لاجـوس بجوره عليهـم وفرضه الضرائب العالية البروتسـتانتية. وقـال لي إنّ الكثيـر من الجنود المجريين سـيتركون أسـلحتهم عنـد مواجهتهـم العثمانييـن فـي أي صـدام... ولعل مثـل هذه التفاصيل الصغيرة كانت تزيدني شـجاعةً. وإذا اتفقت مع زابوليا، فأنا أرى أنه من المناسب أن أتركه في المناطق التي أستولي عليها كتابع مخلص لي أعتمد عليه كما كان أبي يفعل.

عند الـوداع، شـكرني لوثر على كـرم ضيافتـي مفصحاً عـن مطالبه، فوعدتـه بتلبيتها؛ من دون أن أغفل عـن تذكيره بضرورة تذكـره موقفنا معه عندما يحين وقت الحاجـة إليه، وبألاّ ينسـى تابعيته لنا. وربمـا كان لقاؤنا هذا سـبباً لانتشـار مذهبه في الدول الأوروبية بسـرعة مذهلةٍ، علاوة على وقوف هنري الرابع ملك إنجلترا إلى جانبه. غير أنه لم يكن يسـتطيع حتى الآن الدخول في مواجهةٍ علنيةٍ مع الفاتيكان... وفيمـا كان لوثر يبتعد ماراً بين صفـوف الإنكشـارية، كان يخيّل إليّ بـكل فخرٍ أن الشـخصين اللذين سـيغيران التاريخ كانا مجتمعين قبل قليلٍ. لكن فرائصي كانت ترتعد خوفاً كلما تذكرت حجـم المسـؤولية التي أتحملها بسـبب الأزمـات التي تحلّ بأتباعنا.

وعندمـا كان العـام 1524 الميلادي يوشـك علـى نهايتـه، وبينما كنا على وشـك إنجاز التحالف بين الإنجليز والفرنسـيين، نشـب صدام قصير وشـرس بين الجيشـين الألماني والفرنسـي في سـهول بافيا غرب إيطاليا، انهزم على إثره فرانسـوا، وسـقطت قلعـة ماربيلا في يد شـارلكان؛ بعد أن تمكنت مدافع الهبي مـن صدّ هجماته لمدة أربع سـاعات. حينها، لملمت أوراقي في أدرنه، وعدت إلى إسطنبول، وأنا لـم أتعاف بعد من صدمة خبر تمرد الإنكشارية الذين سئموا القعود، وقلّت العطايا التي تمنح لهم.

ففـي الأول من جمـادى الآخرة، قـام المتمـردون بنهـب العديد من أماكن إقامة رجال دولتي، وعلى رأسـهم إبراهيم باشـا وإياس محمد باشا والدفتردار عبد السلام شلبي والخصي سنان باشا، واستولوا على البضائع الموجـودة بالمخازن، وسـكبوا قسـماً منها فـي البحر من دون أي سـبب، وهـدّد اثنان مـن قادتهـم قائلين: إمـا العطايـا أو البضائـع... وهنـا، تلقت التجارة الخارجية مرةً أخرى ضربةً موجعةً على أيدي الإنكشـاريين؛ وهي في الأصل كانت تسوء يوماً بعد يوم.

تمـت السـيطرة علـى العصيـان، ولكـن الحادثـة كانـت القشـة التي قصمت ظهـر البعير في ظل الضغـوط الألمانية والإسـبانية علـى التجارة، وفي ظل المضايقات التـي لا تنقطع من طرف الأقليـات الأخرى، فقامت العديد من الشركات الإيطالية المتضررة بإغلاق مكاتبها مغادرةً إسطنبول. وتعرضـت مخـازن الأرمن والـروم واليهـود إلى خسـائر فادحـةٍ، وطالبوا بالتعويض عن خسـائرهم تلك. كانوا محقيـن في مطلبهم من دون شـكّ، ولكـن المبلغ المطلـوب كان كبيـراً جـداً لدرجة أننـا تعهدنـا بمنحهم إياه على دفعـاتٍ. ولعل إعـدام زعيمي العصيان الإنكشـاري؛ آغا الإنكشـارية مصطفى آغـا، ورئيـس الكتاب حيـدر أفندي لـم يكـن كافياً لإعـادة مناخ الأمن والاسـتقرار مجـدداً. علاوةً علـى أن الإنكشـارية لم يقبلـوا بالعودة إلى معسـكراتهم من دون تلقـي العطايا الكبيـرة، فضلا عـن البضائع التي سلبوها؛ إذ لم يكن هناك من يجرؤ على رفع صوته لمطالبتهم بها.

ورغم أن هـذه الفئة الفوضويـة التي لا تخجل من إشـهار أسـلحتها على بني جلدتها والمكلفة بحمايـة الدولة لم تعد تمتثـل لأوامري، ورغم إمكانيـة تبنيها موقفـاً تتجاهلنـي فيه إذا لـزم الأمـر، ورغم ارتعـادي خوفاً حينما يخطر على بالي أن هذه الفئة لـن تتوانى عن احتلال دولتنا والتعاون مـع أعدائنـا إذا ضعفـت السـلطة فـي عهـد أبنائـي، إلا أنني كنـت أتنفس الصعداء رويداً رويداً وأنا أستعد لمواجهة شـارلكان. فعما قريـبٍ، سيكون

أمامي هدفٌ أستطيع عند تحقيقه توجيه الفئة الضالة.

كما حصل حادث آخر لم يفارق ذاكرتي قطّ. إذ قدمت امرأةٌ عجوزٌ من أحد الأطراف النائية تريد مقابلتي، فردها الحراس. إلا أن العجوز أصرّت على مقابلتي بشكلٍ غريبٍ، وبدأت تصرخ بشدةٍ لتلبية طلبها، فضاق الحراس ذرعاً بطلبها ذاك، وأبلغوا آغا الخاصة (رئيس الحراس) ليبلغ بدوره رئيس الجوخدار، وبلغني الطلب عند أذان الظهيرة فسمحت بدخولها. حضرت السيدة العجوز التي غطت التجاعيد وجهها وكأنّ مآسي السنين قد حفرتها عليه، وادعت سرقة الإنكشارية لمنزلها في أثناء العصيان، وزعمت أنني المسؤول عن ذلك الحدث. فسألتها وأنا أنظر إلى آثار السنين على العباءة المرقعة البالية التي ترتديها، والتي كانت رغم ذلك نظيفة جداً: «أماه، أنت لا تستطيعين أن ترفعي رأسك في عمرك هذا من ثقل النوم، ثم تحاسبيننا على سلب بيتك! لم تنامين بمثل هذا العمق؟».

فأجابتني بلا تردد أو انتظار وقد تغضن وجهها وتغير لونه:

«لا تؤاخذوني يا مولاي، كنت أظنّكم صاحين ولهذا نمت بطمأنينة في بيتي». فنزل الجواب على رأسي كالمطرقة. وبعد فترة قصيرة من الصمت قلت لها: «أنت محقة...». وزاغ بصري وأنا أقول: «أنا مسؤول عن رعيتي... أنت محقة... سأتكفّل بما تعرضت له من خسائر من مالي الخاص يا أمي».

II

لن أتمكن مـن القضاء علـى خطر شـارلكان قبـل تفتيـت دولته إلى دويـلات صغيـرة مجـدداً. وكان هـذا الموضـوع يسـتولي علـى تفكيري، فالموارد الطبيعية والأراضي التي اكتسـبها شـارلكان بفضل مستعمراته في أمريكا كبيـرة جداً، عـلاوة على تحالفاته الواسـعة مع أوروبـا؛ الأمر الذي أزعجني كثيـراً وأقلقني. وكان السـبيل الوحيـد لمواجهة خطـره يتمثل في القيام بحملاتٍ تنهـي هذا الانتظار الممـل الذي أثار أعصاب الإنكشـارية أنفسـهم. ومن يسـتطيع أن يحـل هذه المشـكلة فـي غرب البحـر الأبيض المتوسـط هـو خيـر الديـن بربـاروس، وسـأتولى الأمر فـي البر بنفسـي، وسـأظهر للعالم من هو الأقـوى. والآن يا فرانسـوا، أيها القابع أسـيراً في زنزانتك الرطبة في مدريد في قصر الجزار، اصبر قليلاً.

فـي تلـك الفتـرة، كنـت أتصـارع مـع الإحسـاس بالفـراغ والوحدة اللذين شـعرت بهما بسـبب عدم عودة إبراهيـم حتى الآن فـي خضمّ هذه التطـورات. لا أعـرف لمـاذا. ربمـا لأن إبراهيـم هو أكثـر من يـدرك عدم الارتياح الذي أشـعر به دائماً أمام مـن يختلفون عني في لغتهـم وثقافتهم. ولأكـن صريحاً أكثـر، لقد اشـتقت إلـى عالمه الكبيـر المحاط بشـيء من المكر. ولا يغير أي شيء هذا الأمر؛ حتى لو كنت أنا من يتعرض لمكره.

عاد إبراهيـم أخيراً في العشـرين من ذي القعدة من مصـر التي قضى فيها فترةً طويلةً مـن الزمن. وكنت أنتظـره بفارغ الصبر، فهنـاك الكثير مما ينبغـي أن نتحدث بـه، ولكننا قبـل أن ننهي حديثنـا الطويل الـذي كان في معظمه يدور عـن مصر، ظهرت مشـكلة حرّم مجدداً. فهي لـم تكن تضيق صبراً بوجوده فحسـب، بـل تكيل له الاتهامـات الكثيرة التي لـو بدأت في

الحديث عنها فلن تنتهي أبداً. وكانت تتهمني إن أعرضت عنها بأنني لا أصغي إليها. نعم، إنها محقةٌ بذلك. فأنا أتفادى الاستماع إليها وإلى شكاويها لأنها ستقول ما لا أريد أن أسمعه.

في أواخر عام 1525، وصل إلى إسطنبول الوفد الذي أرسلته والدة فرانسوا الوصية على عرش فرنسا باسم ابن لويس دو سافوا، برئاسة الكونت جين فرانجيباني. ونقل إليّ الوفد أنّ فرنسوا يطلب مساعدتي بصورةٍ عاجلةٍ، ويعترف بأنه لن يلجأ إلى البابا؛ لأن قوة البابا السياسية والعسكرية لا تكفي لإخضاع شارلكان. ويعترف أنني في نظر الغرب إمبراطور روما الشرقية. ولكنه يخطئ في ذلك؛ فأنا إمبراطور روما كلها، وشارلكان ليس سوى رجلٍ محظوظٍ جداً، فليس هناك من لا يعرف أنه اعتلى عرش البلدان التي يحكمها بالروابط والعلاقات العائلية وليس بقوته. ألم يرث حكم إسبانيا من والده، وإمبراطورية ألمانيا من جده؟ وتحالفه مع الصفويين ألا يزال قائماً رغم كل تحذيراتنا؟ وها هي فرنسا تصبح اليوم حليفة لنا، والعلاقات الدافئة تنمو بيننا.

وفي تلك الفترة، توفي العالم الجليل والشيخ علي أفندي الزنبيللي بعد توليه منصب شيخ الإسلام في عهد ثلاثة سلاطين، وعينت مكانه شيخ الإسلام العالم الجليل كمال باشا زاده أحمد شمس الدين أفندي الملقب بابن كمال أفندي، وهو أيضاً ممن كان والدي يثق بهم ويجلّهم، حتى إنه أمر أن يوضع معه في قبره قفطانه الذي تلطخ بالطين المتطاير من حوافر حصان العالم الجليل.

أرسلت إنذاراً شديد اللهجة إلى شارلكان بوساطة المبعوثين. وربما زادت آلام فراق الشيخ الجليل من حدته. كما أرسلت رسالة إلى فرنسوا:

«من سلطان السلاطين وحاكم الحكام، وظل الله الذي يمنح التاج للحكام على الأرض، سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والروميللي والأناضول وآذربيجان، سلطان الشام وحلب ومصر ومكة والمدينة

والقدس وكل الديار العربية واليمن والعديد من الممالك، السلطان سليمان خان بن سليم خان بن بايزيد خان إلى فرنسوا ملك فرنسا، لقد أرسلت إلى بابنا الذي يلجأ إليه الحكام خطاباً مع مبعوثيك، تخبرنا فيه أن بلادك قد استولى عليها الأعداء، وأنك الآن قابع في حبسك، وتطلب منا المساعدة كي ننقذك. وقد تم عرض كل ما قلته على أعتاب عرشنا الذي يدار منه العالم، وعلمنا كل شيء. ليس من العجب التعرض للهزيمة والحبس، فكن منشرح الصدر ولا تحزن. ففي مثل هذه الظروف لم يكن أجدادنا يتوانون عن القيام بالحملات لدحر الأعداء وفتح البلدان. ونحن أيضاً على درب أجدادنا سائرون، وسنفتح البلدان والقلاع العصية على الفاتحين. خيولنا متأهبة ليل نهار، وسيوفنا مسلولةٌ، فليوفقنا الله لما فيه خير، فما أراده الله تعالى فسوف يكون. ولتحصل على الأخبار الأخرى من الرجل الذي أرسلته».

في الرابع والعشرين من أكتوبر 1526م أطلق شارلكان سراح فرانسوا بعد توقيعه اتفاقية مدريد بشروطها المجحفة. ومن الواضح جداً أن شارلكان يشعر بأنه لن يستطيع الصمود أكثر من ذلك أمام ضغطنا عليه. وإذا كان فرانسوا قد اضطر إلى التوقيع على اتفاقية تلزمه بالانضمام إلى حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ وكبيرةٍ ضدنا حتى يطلق سراحه، فإنه يتصرف تصرفاً يتفق مع نبله، ويخبرنا بذلك.

في تلك الأيام، أقدم لاجوس على عملٍ شنيعٍ، وأعتقد أنه قد آن الأوان لوضع حدٍّ لتصرفاته. كان الأمر يتعلق بالكونت ليندفاي بروس أحد كبار رجال دولة المجر الذي اعتنق المذهب البروتستانتي وعائلته. فقد عرف لاجوس بعد وشايةٍ خبيثةٍ أنه غيّر مذهبه. ولما كانت عائلة الكونت غنيةً وقويةً وأصيلةً ترجع إلى مؤسسي الإمبراطورية، فقد استطاع أن يستمر في وظيفته كجنرال في وحدة فرسان الإمبراطورية لفترة. ولكنْ، تمّ الزج بعائلته في أزمةٍ اقتصاديةٍ لا تستطيع تخطيها بسهولة إثر مؤامرةٍ

نفـذت بإتقـانٍ. فقد تضخمـت الضرائـب المؤجلة علـى أرباد بـروس ابن الكونت البالغ من العمر خمسةً وعشـرين عاماً ويمتلك مناجم لاستخراج المعادن. كما كانت نسـبة فائدة التأخير كبيرةً وخارجةً عـن المألوف، وتم حجز كل ثروته نظراً إلى عدم تمكنه من السـداد. فإما أن يقوم بسداد ديونه في فترةٍ قصيرةٍ لا تتجاوز الشهر، وإما سيخسر كل ما يملكه.

وحتى يتمكـن الكونت من تخطـي هذه الأزمـة لجأ إلـى تزويج ابنه أرباد من إحدى بنات العائلات الكبرى الغنية ببشـته؛ وبذلك تكون إحدى العائلات الغنيـة التي تملـك المال وتبحث عـن الأصالة والنبـل قد بلغت غايتها، وتكـون إحدى العائـلات النبيلة التي تحتاج إلـى المال قد وجدت المال الذي تريـده. إلا أن الكونت لم يتمكن من إنقاذ كامـل ثروته. ووفقاً للادعاءات، تعـاون الكونت بـروس قبل حوالى شـهرٍ مع الأتـراك، واتهم ببيـع معلوماتٍ مهمـةٍ للجواسـيس الأتـراك مقابل المـال، وقـدّم إثر ذلك للمحاكمـة العسـكرية، وعزل مـن وظيفته. لم يكـن الكونـت بـروس يقوم بتسليم المعلومات وبيعها بنفســه، بل كان يقوم بذلك عن طريق ابنه أرباد، ولـم يكن الشـخص الذي تصل إليه المعلومات سـوى جاسوسـنا الشـهير وهيمي أورخون جلبي؛ إلا أنه هو نفسه لم يكن يعلم شيئاً عن هذا الأمر.

في النهاية، حكم على الكونت وابنه بالإعدام بعد محاكمةٍ من جلسةٍ واحدةٍ وشهادة زورٍ من قبل بعض الشهود. أعرف ما قاله الكونت في أثناء خروجه من قاعة المحكمة وكأنني سمعته بنفسي، حيث توقف لحظةً وهو بين أذرع الحراس، وصاح قائلاً: «يوماً ما سـيظهر أحدهم ويحاسبك على هذا الغدر يا لاجوس». نعم، يوماً ما سيحاسـبك أحدهـم بسبب ما تعرض له رسـولي الوفي بهـرام جاويـش، والكونت بـروس وعائلته، والعشـرات ممـن قتلتهـم مـن البروتسـتانت، وقضيتـي بوغـدان وأفـلاق، واحتمائك بشارلكان.

لم يمر وقت طويل حتى اتخذت قراري بشـنّ الحرب. وفي بدايات

شهر جمادى الأولى، استدعيت إبراهيم في وقت السحر وأبلغته قراري: «ابدأ بالاستعدادات يا إبراهيم. سنزحف على أونجروس. لا تنس أبداً أن هذه الحرب لا تشبه الحروب الأخرى، بل إنها حربٌ شاملةٌ، وأنت سرعسكر الجيش».

23 نيسان 1526

تفيض الحماسة في نفوس المحتشدين على طول طريق الديوان، وتنتشي بالموسيقى العسكرية التي تعزفها فرقة المهتران، وتنطلق أصوات فرقعات الألعاب النارية احتفالاً بالأسطول الجديد، يطلقها السلانيكي صاحب الحيل مصطفى أفندي، ناشرةً أضواءها الفوسفورية اللامعة مدةً طويلةً في السماء، فيما كان جيشي يتقدم بتثاقل العظمة وكأنه محيط يتموج بهدوءٍ. كان مؤلفاً من مئة ألف شخصٍ، منتظمين في وحداتهم، وسيوفهم مشحوذة ولامعة. وكان حراسي يسيرون بجواري مختالين بزيهم الأخضر الزمرديّ المطرز بالخيوط الذهبية وبدروعهم الحديدية، فشعرت بأنني محاطٌ بالنسور المخلصة لي، وخلفي ثلاثمئة مدفع من مدافع الحصار الشاهيّة التي يجرّ كلّ عشرين منها ستون ثوراً، والتي جذبت انتباه الشعب بأحجامها الضخمة ولونها الأسود القاتم. واختلطت رائحة البارود مع رائحة اللحم المشوي الذي وزّعه بائعو اللحم المتجوّلون مجاناً مع الخبز وعصير العنب. ميّزت بين الجموع بائعاً مسناً يبيع حلوى المعجون، ويلفّ الحلوى الملونة الموجودة في وعائه الذي يشبه لوحة رسامٍ إفرنجي على العصيّ الرفيعة؛ فتذكرت طفولتي، واستيقظت داخلي بعض الأحاسيس عندما رأيت لاعبي الخفة المهرة، وممثلي المسرح الجوالين من الروم الذين أضفوا على الجو المزيد من البهجة والفرح. وفي الزاوية، كان هناك مدّاح شاب يقوم بتسلية مجموعة من الأطفال... تعلق بصري بمجموعةٍ كبيرةٍ من الطائرات الورقية الملونة

التي تطير فوق التلال العالية التي تداعب قممها الرياح... إنها فرحة كبيرة؛ فرحةٌ غامرةٌ تفيض بها نفسـي، وكأننا قد استيقظنا فجأةً وتذكرنا أن اليوم عيد. الشعب كله يشترك في مرح طفولي لا ينسى، وأفواه الجميع ممتلئة باللحوم الطازجة التي أمرت بذبحها وشيّها وتوزيعها عليهم. فهل يمكن أن يغيب عنّي الحب الذي يكنونه لي والذي يبدو في نظرات عيونهم؟! أنا أيضاً أحبهم، وأحب كل الناس اليوم، وكثيراً ما أحدث نفسي قائلاً: «يا الله، إنني على رأس هذا الجيش الضخم الذي يسير بعنايتك، أعوذ بك من أن أظلم مثقال ذرَةٍ... سيأتي يومٌ لن يصدّق الناس فيه أن سلطان العالم لديه هذه المخاوف الحساسة، فهل يمكنني أن ألومهم على هذا؟! امتلاك العالم لا يعني أبداً امتلاك قلوب الناس، ولكنني مضطر إلى خوض الحرب من أجل سلامة شعبي. فلتعف عني يا الله».

أنا سعيدٌ رغم الدموع التي ذرفتها حرّم خلفي... سعيدٌ على الرغم من أن ماهي دوران، وكول فام، وفلانة بعيدات عني.... وكأن الرغبة والشوق من فرط السعادة قد تحولا إلى مطرٍ خياليٍّ غزير ينهمر من السماء الزرقاء ويبللني تماماً؛ ربما لأنني هذه المرة أسعى خلف نصرٍ قريبٍ، ونصرٍ عظيمٍ سيفوق كل الانتصارات التي حققتها من قبل. ترى، هل يمكن أن تكون لدى الإنسان رغبةٌ في البكاء ورغبةٌ في الضحك معاً؟! نعم، إنني الآن هكذا، فإما أن تحتضنني الشهادة، أو غرور الانتصار... نعم، إنهما على بعد خطوةٍ واحدةٍ، وأنا أشعر بهما معاً.

سروج خيول وزرائي وأحزمتها مطرزة بخيوط الذهب والفضة، ومرصعة بالياقوت والزخارف المخضرة، وجلودها المعطرة بمسك الغزلان تلمع لمعاناً شديداً. فيما أجسام وزرائي المختفية خلف دروعهم البرونزية والفولاذية نموذجٌ للقوة والثبات. وبدت الشمس وكأنها تغيب من شدة لمعان الدروع التي ارتداها الجنود فوق ملابسهم القطنية. لكنّ حصاني الأبيض بياض اللبن، الذي رصّع سرجه بالجواهر والأحجار

الكريمة بدا كالشامة بين الخيول.

أما العمامات المخملية الحمراء على رؤوس السلاحدارات الذين كانوا يسيرون عن شمالي اليوم فبدت وكأنها شعلات حمراء أشعلتها شمس الربيع، فيما تدلت خصلات شعرهم من الجانبين وهي تشتعل وتنطفئ كخيوط حريرية تتدلى بهدوء تحت النيران. لم يكن بإمكان الناس تحويل أنظارهم عن اللون الموحد للقمصان المصنوعة من الحرير، وعن الدروع الصغيرة المستديرة التي غطّت ظهور فرسان القصر من أصحاب الأعطيات[1] الذين كانوا يسيرون أمامي مباشرةً مرتدين معاطف حمراء من فرو الدّببة. أمّا دروع الفقراء فبدت عجيبة وكأنها منحوتة من الشمس، وتدلّت سيوف قدامى الإنكشارية من الباش جاويش الفولاذية والمعقوفة من أكتافهم وعلى ظهورهم. بدا المنظر وكأن عالماً من الخيال قد تسلل إلى الواقع، فسرحت وسط ألوانه وكأنني أعيش طفولتي. تقدمت إلى الأمام ملقياً التحية على شعبي، فيما موكب الحرّاس يحيط بي من يميني ويساري، يتقدّمه الجنود المكلفون بتجهيز الطرق ونصب الخيام بثيابهم الزمردية وقلنسواتهم المخروطية.

خلفت ورائي كوزلجه قاسم باشا والينا على مصر وبيلر بيي الأناضول سابقاً في إسطنبول، فأمر الوحدات التي يقودها بإطلاق النار من أربعين مدفعاً تحيةً لي، ورافقني حتى الأسوار.

* * *

بعد يومين من المسير الشاق، أمرت بنصب خيمتي في الضفة الأخرى لنهر ماريتش ذي المياه الزرقاء الهادئة، واستقبلت الوفود القادمة من الجوار، وصرفت لهم العطايا... كان الطقس في هذا الموسم هادئاً في منطقةٍ تخضع لنظامٍ غيرِ مستقرٍ... وحين أوشكنا على بلوغ صوفيا بعد مسير

(1) وهؤلاء هم عبيد القصر الذين يدربون على الفروسية ويمنحون أعطيات وأجوراً كل ثلاثة شهور.

شـهرٍ ونصف، هطلـت الأمطار الغزيـرة التي تتعـب الجيش وكأنها سـيل لا يريد أن ينتهي، فأمرت باستراحة الجيش مدة ثلاثة أيامٍ أمام المدينة، أرسلت خلالها ابن عمتي الغازي خسـرو بك قائد فرسان البوسنة على رأس قوةٍ من خمسة آلاف شخصٍ للاستطلاع، كما أرسـلت بالي يحيى زاده بك[1] والي سمنديرة على رأس قوةٍ من خمسة آلاف شخصٍ لحماية مؤخر الجيش.

في الرابع عشـر من رمضـان، كان البـرد شـديداً؛ رغم أننا في شـهر حزيران وفقاً للتقويم الميلادي. وكانت السـماء تموج فوقنا ببطءٍ مثل بحرٍ متجمدٍ، وبدأ الزكام ينتشـر بين الجنـود... فمنحتهم ثلاثة أيـام من الراحة من أجل العـلاج، ووضعت جميـع الأطباء فـي خدمتهم... وعلـى الرغم من كل تلك المشـاق والصعاب، كان معظم الضباط والجنود الأناضوليين يصرّون على الصيام ولا يأخذون برخصة السـفر، ولم تتمكن فتوى شـيخ الإسـلام كمال أفندي وجهود أئمة الكتائب من إقناعهـم برخصة الإفطار. وفي المقابل، كان الإنكشـارية يأكلون في خيام إعداد الطعـام حتى تمتلئ بطونهم. وإذا كان الخلاف بين الطرفين قديماً ودفيناً، فإنه هذه المرة يأخذ بعداً جديداً في جدلٍ عقيمٍ لا ينتهي حول النيات والتصرفات السليمة.

أمرت ذات يـومٍ بنصب المائدة وسـط مقـر الجيش لأتنـاول الطعام مع كل وزرائـي وقادة الوحدات؛ حتى أسـتطيع أن أضع حـداً لهذا الجدل الذي لا ينتهـي. وحين أصر جنـود الأناضول علـى الصيام، منعـت قادتي من التدخل لأنني أدركت أن هذه المسـألة لو احتدمت أكثر فستتحول إلى صراعٍ مذهبيٍّ بين الإنكشارية البكتاشيين وجنود الأناضول السـنيين. علاوةً على ذلك، أنـا أعلم جيـداً أن قـوة معنويات الجنـدي أهم بكثيـر من قوته البدنية، وأنه عنـد الحاجة تكون قوة الروح هي التي تحمل الجسـد الهزيل على متابعة المسير.

عندمـا اقتربنـا مـن بلغـراد، أرسـلت الصـدر الأعظـم إبراهيم باشـا

(1) بالي بن يحيى، وزاده يعني الابن.

والقوات التي يرأسها أيضاً بصفته بيلر بيي روم إيلي إلى قلعة بيترفارادين لأن فتح هذه القلعة مهم جداً لأمن جيشنا من الجهة الخلفية... وذهب برفقة إبراهيم باشا كلٌّ من بيلر بيي الأناضول بهرام باشا، والوزير الثاني إياس باشا، والوزير الثالث مصطفى باشا، ووزيري الثاني السابق، ووالي مصر... وحاصر أسطول السفن الخفيفة بقيادة سليمان رئيس القلعة على طول نهر تونا بثمانمئة سفينة؛ قسم منها مزودٌ بقربينات ذات نظامٍ جديدٍ لإطلاق النيران... كان قائد القلعة توموري بايا من أشهر قادة المجر، وكان معه ما يقارب من ستمئة من نخبة المحاربين. أما قائد الأسطول المجري الموجود أمام القلعة فهو القائد الشهير نودور باثوري، وكنت قد رأيته ذات مرة ضمن وفدٍ مهيبٍ جاء إلى أدرنة للقاء والدي. كان اللقاء عقب رحلة صيدٍ غير موفقة، وأتذكر أن والدي لم يكرمهم كثيراً؛ لأنه كان ينفر من مظهرهم وتبخترهم الشديد.

في اليوم السابع للحصار بلغت موقع إيون، وبدأت أتابع كل التطورات لحظة بلحظة بالاعتماد على ستة مراسلين كانوا ينقلون لي الأخبار. وفي الثالث عشر من أغسطس/ آب، في وقت السحر، وقبل بزوغ ضوء النهار، باغت كمال رئيس الأسطول المجري بهجمةٍ مفاجئةٍ، وقام بتشتيت العدو بنيران القربينات المدهشة. وبلغني أن درع باثوري اشتعلت فيها النيران، ولم ينج إلا بصعوبةٍ بعد أن ألقى بنفسه في الماء في اللحظة الأخيرة؛ ففرحت بذلك كثيراً.

استمرّ الحصار في ظل تبادل إطلاق نيران المدافع بين الطرفين، وحروب الأنفاق المحفورة. وشنّت ثلاث حملاتٍ مختلفةٍ على الأسوار. وفي الحملة الثانية، وُضعت داخل مدافع الهاون كراتٌ نحاسيةٌ ملفوفة بقطع من القماش الثقيل الذي كان يشتعل بالنيران الإغريقية التي لا تنطفئ بواسطة الماء، فأحدثت حرائق كبيرة داخل القلعة. لكن المحاربين العازمين على الدفاع عن القلعة لم يتراخوا في الدفاع عنها، وسيطروا

على النيـران. فـي الحقيقـة، أنـا أعلـم أن الحمـلات الثلاث لـم تكن في إطار الهجوم الشـامل، بـل كانت تهدف إلى اسـتنزاف قوة العـدو وإحباط معنوياته... أرسـلت وهيمي أورخـون جلبي في مهمةٍ جديـدةٍ مرةً أخرى. وكانت مهمتـه هذه المرة شـراء فـارس مشـهورٍ من فرسـان تومـوري بايا حريصٍ على المال؛ وهو فيكونت نيميث.

وإذا كان أورخـون جلبي لم يعد يسـتطيع اسـتخدام ذراعه اليسـرى، فإن عقله أصبـح يفكر أكثر من أي وقـتٍ مضى. لذا، شـق طريقه في الليل متسـللاً إلى أعماق الأحـراش المحيطة بالقلعـة، والتي تفـوح منها روائح الطمـي والطحالب، والتقـى نيميث، واتفق معـه على إيقاف حفـر الأنفاق المضادة لثلاثـة أيامٍ لقاء عشـرة آلاف دوقة ذهبية؛ دفع لـه منها ثلاثة آلافٍ مقدماً. وبعد ثلاثـة أيامٍ التقـاه أورخون بحجّـة إعطائه المبلـغ المتبقي من الذهب، فقبض عليه، وأرسله إلي في مقر الجيش.

إنه فارس فـي متوسـط العمر، لـم تـزده لحيتـه الصغيرة ولا شـاربه الطويـل المفتـول وسـامةً. كان ينظـر إلي متوسـلاً وهـو يرطـن باللاتينية: «الرحمة يا مولاي، لقد خدعت، وتعرضت للخيانة».

فأجبته: «وماذا عـن أولئك الذين خدعتهم أنت؟ فبسـببك، وبسـبب إيقافك أعمال حفر الأنفاق، بلغت أنفاقنا أعماق جدرانكم».

انهمرت الدموع من عينيـه وهو يقول: «إن تركتموني حياً فلن أنسـى معروفكم هذا طوال عمري، وسـأعمل كل ما في وسـعي لخدمة جيشـكم المبجل في كل موطن يذهب إليه».

لم أسـتطع أن أكبح الاشـمئزاز الذي اسـتيقظ في داخلـي، وصحت به: «لا حاجة لـي إلى أمثالك من الخونـة، ولا أقيم لهم وزنـاً أيها الحقير. حذار أن تتوسل إليّ من أجل الحفاظ على حياتك. لقد قطعت مسافةً تربو على ستة وسـتين يوماً، أتعرف ما الذي فعلته بالخونة الذين عصوا أوامري وعاثوا فسـاداً فـي الحقـول المزروعـة، وأتلفوهـا، واسـتولوا علـى أغنام

المزارعيـن وأموالهم رغم نهيي إياهم عن ذلك؟! سـأقول لـك ماذا فعلت بهم، لقد أصبحت أجسـادهم النجسـة طعاماً للغربان. أيجعلني هذا إنساناً ظالماً أيها الفارس؟ لماذا تصمت؟ فلأجب أنا إذاً. ربما في نظرةٍ سـطحيةٍ إلـى الموضوع سـأبدو ظالماً. ولكـن، لا بد مـن قطع بعض الـرؤوس من أجل سلامة الباقين وراحتهم». شـعرت وأنا أقول هذه الكلمات وكأن أبي يقوم من رقاده ويبعث مجدّداً متجسداً فيّ أنا، أو أنني أموت وأصبح هو.

– إنني ألتمس عدالتكم.

– إن محو السّـفلة أمثالك من الوجود خير للشـعب المجري. وهذه هي عدالتي. وأشرت إلى رئيس البسـتانيين الأخرس: «هيا أسرعوا، خذوه بعيداً عن وجهي».

في مثل هـذه الأوقات، كنـت أختبئ وراء درعـي الحديديـة الثقيلة، وأوجه للرحمة المسـتقرة في أعماقـي ضربةً أصيب بها منهـا مقتلا... كان لا بد لي من أن أفعل ذلك. ولو ترددت قليلاً، وتراجعت خطوة إلى الوراء في أمر كهذا، لما كان الضرر سـينال مني وحدي، بـل ممن هم في رعايتي أيضاً. والدنيا كلها في مسؤوليتي ورعايتي.

وعلى الرغم من كل شـيء، كان الفارس نيميث يستحق الشكر لقيامه بمهمته بشـكلٍ جيدٍ. ففي اليوم الرابع عشـر من بدء الحصار، في 27 تموز، كان إبراهيم باشـا يفجر البـارود الذي ملأ الحفر المنتشـرة علـى مد النظر. وكانت الأبراج تتهـاوى مثيرة الغبار والدخان المتصاعـد، فيما الانفجارات المدوّية تنشـر أشـلاء الجثث في الأرجـاء. وكان المجريون ينسـحبون إلى القلعة الداخلية متحصّنين بها عند نشوب القتال، لكن إبراهيم باشا لـم يكن يترك حجراً على حجرٍ، ولا رأساً على كتفٍ. وعندها، كان المتحصنون في القلعة الداخلية يستسـلمون؛ الفريق تلو الآخر، ويدلّون على نقاط الضعف في القلعة لقاء إبقائهم على قيد الحياة. وهـذه المرة، تجاوزت الانفجارات التي أحدثتها الألغام قدرة المحاصرين على تطويقها، لا سـيما وأن إبراهيم

كان يشـن حملةً جديدةً تترافق مع كل موجة من الانفجـارات، وتنهار معها المقاومة. لكن إبراهيم باشـا - ربما لأنه لم يكن يسـتطيع أن يمحو ذكرياته عن العبوديـة - كان ينغمس في حرب إبـادةٍ جماعيةٍ ولا يبالي بشـيءٍ أبداً، حتـى بدمـوع المستسـلمين، وكأن هـذه فرصتـه للتخلـص مـن الرغبة في الانتقام التي تعتمل في أعماقـه؛ لذا كان يقضي علـى الجميع، حتى أولئك المسـاكين الذين ألقوا أسلحتهم مستسـلمين. وكان يقوم بتلك الأعمال من دون الخوف من أحدٍ؛ حتى منّي، ويعلق رؤوس الفرسـان الخمسـمئة ممن ضربت أعناقهم على الرمـاح، وينصبها على امتداد الطريق، وينظم مراسـم السير بينها. وعندما كان يأمر جنوده برفع أصواتهم قائلين: «عاشت دولتكم يا باشـا»، كان وهيمي أورخون جلبي يـذرف الدموع؛ حزنـاً على ما حظي به إبراهيم مـن مكانة حسـبما أعتقـد. ولأنني كنـت أعلم بما يكنّـه وهيمي أورخـون لإبراهيم من مشـاعر كنـت لا أكتفـي بما أتلقـاه منه، بل اسـتوثق من المعلومات التي يمدني بها بشـهادات بهرام باشـا وإياس باشـا... نعم، لم تكن حالة اللامبالاة والثقة المتطرفة بالنفس عنـد إبراهيم تعجبني، لكن الموقـف حينهـا لم يكـن يسـمح بالجـدال والاحتـكاك. تركت فـي القلعة ما يكفي لإعـادة إعمارهـا والدفاع عنهـا، وثلاثمئـة إنكشـاري، ومئتين من البنائين. وسـقطت قلعتا إيلـوك وOsijek بسـهولةٍ ومن غير حاجـةٍ لحصارٍ طويـلٍ؛ بهجـومٍ قامت بـه القـوات بقيادتـي فـي الثامن والتاسـع مـن آب، وأصبحتا تحت سـلطة سـنجق سـيرم. وفي اليوم نفسه، أرسـلت من ينادي في صفوف الجيش معلناً أن هدفي الآن بودين، وأرسـلت وهيمي أورخون من دون تأخرٍ إلى فويفودا أردل حامي البروتسـتانت للقـاء حلفينا الطبيعي يانوس زابوليـا. وبينما كنـت أودع وهيمي أورخون الذي تنكـر بزيّ راهبٍ كاثوليكـيٍّ؛ كنـت أقـول لنفسـي إنـه إن نجـح زابوليا فـي حسـم موقفه في الحرب القادمـة، وفي الوقـوف على الحيـاد، وفي هزم لاجـوس فإن ذلك يعني أن ملك مجرستان قد أصبح موجودا.

III

استغرق بناء الجسر على نهر درافا مع نهر طونا في مدينة أوسيجك الخضراء الجميلة في منطقة سلافونية الجميلة بمهارةٍ عاليةٍ من قبل عمال البناء عشرة أيام. وعبرت مع إبراهيم باشا الجسر الذي تم بناؤه في 22 آب، 14 ذي القعدة من التاريخ الهجري. وفي تلك الليلة، وبينما كانت الأمطار تهطل بنعومةٍ في الخارج، كانت النشوة تستقر في أعماقي كحالي قبل كل معركةٍ، فرفعت يدي متوسلا إلى الله: «اللهم لا تجعل وفاتي على السرير في قصري، بل في غزوةٍ كبيرةٍ كهذه، وأنا أتضرع إليك في خيمتي وفي معسكري حتى الصباح من أجل سلامة جنودي وأمتي، أو وأنا مرتدٍ درعي وشاهرٌ سيفي أجاهد به أعداءك». وفي وقت السحر، قبيل استيقاظ طيف الشفق في الأفق، أمرت بأن تطلق المدافع نيرانها، وتدمر الجسر، ليعلم الجميع أن لا عودة بعد الآن، وليس أمامنا إلا النصر أو الشهادة. كانت نفسي في أثناء إصداري الأوامر مفعمةً بمشاعر مماثلة للمشاعر التي أحسّ بها فاتحو الأندلس حين توجهوا إليها للمرة الأولى، وفي مخيلتي صورة لطارق بن زياد عام 711 على رأس قوة تبلغ سبعة آلاف تحملها السفن إلى البر الإسباني. فها هو يشير بسيفه وهو مغطى بمعطفه المرقع وجعبته الممزقة نحو السفن المحترقة، ويخاطب جنوده فيما السفن تنفث اللهيب وتندلع من وسطها ألسنة النيران: «أيها الناس، أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، فليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أشدّ ضياعاً من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورةٌ، وأنتم لا وزر [لا سند] لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي

أعدائكم...». إن النار ملتهبة في فؤادي؛ تلك النار التي بها استطاعت فئةٌ قليلةٌ أن تغلب فئةً كثيرةً. ليس أمامنا غير الثقة بالله والتذلل له والتواضع واللجوء إليه، وإلا فمصيرنا كمصير حاكم بني الأحمر المترف الذي ضاعت على يديه الأندلس بسقوطها الأخير عام 1492. وما علينا في هذا الموضع إن أردنا النصر إلا التحلي بالتواضع والرحمة والطمأنينة والثبات، والسير إلى الأمام، فإما الشهادة وإمّا النصر والفتح المبين.

في شمال غرب بلغراد، على بعد 32 فرسخا تقع صحراء موهاج، وإلى جنوبها بودين على بعد ثلاثين فرسخاً. دخلنا سهول المجر الكبرى في 28 آب. تقع صحراء موهاج على الضفة اليمنى لنهر طونا، وفي السهل الشرقي تكثر تفرّعات نهر طونا، وتكثر فيها المستنقعات. وفي غربه تنتشر التلال التي لا تتجاوز قممها خمسين متراً، وتقوم في أعلاها كنيسةٌ يسميها الجنود في ما بينهم الكنيسة الفخ، والطريق المتجه نحو بيالي يمر بهذه النقطة. وفي هذا الجزء من الطريق تنهض تلةٌ لا تتجاوز خمسة أمتار، قامت فرقة المهتران بنقل خيمتي إليها، وأصبحت تعرف بتلة هونكار [أي الحاكم].

لم يكن يظهر أي أثرٍ للمجر. وفي ذلك اليوم الماطر، جمعت بعد العصر ديوان الحرب. كان الهواء لطيفاً يميل إلى البرودة، والموقد تشتعل فيه النيران، وكان الحطب الرطب المبلل يصدر عند احتراقه طقطقات مترافقة مع شرارات خفيفة متطايرة. وربما كان ذلك ما يثير في أعماقي ذكريات الحروب الماضية، ويحييها مجدداً. نقلت نظري بين المعاطف الثقيلة، والعمائم الخراسانية، واللحى الطويلة، والعيون المفكرة والأرواح المختفية وراءها وتأملتها بهدوء. كانت الحبال الأفغانية مزدوجة النسيج تثبت خيمتي إلى الأرض، وكانت جدرانها الأرجوانية من نسيج القمحا. وعندما تشتد الرياح، كانت تثير دوياً عميقاً يحرك أغوار النفوس... فيما القناديل الكريستالية تعكس ضوءها العقيقي على وجوه الجميع... أعلم

أنني ربما لن أرى غداً بعض الجالسين على الأرائك المذهبة (بالديبا) في أدب واحترام من دون أن يسندوا ظهورهم؛ وهذا الاحتمال يثير في دماغي المتعب ألماً واضحاً لا ينقضي... وربما أنا أيضاً لن أكون حينها في هذه الدنيا الفانية؛ فمن يدري؟!

استأذن حاكم سمنديرة وابن عمتي بالي بك في الكلام وقد احمر وجهه الأبيض:

- بوصول أربعين ألفاً من فرسان شارلكان بدروعهم الثقيلة، سيبلغ عدد قواتهم وفقاً لجواسيسنا ستين ألفاً. عندها، سيكون عديد قواتهم ضعف عديد قواتنا. ومدافعهم قصيرة المدى يبلغ عددها مئتي مدفعية، لكن عدد البنادق لديهم يتجاوز عدد بنادقنا... ومن المفيد هنا أن أذكر أن الفرسان البالغ عددهم ستين ألفاً مقيدون إلى بعضهم بالسلاسل، ويمكنهم عند الهجوم أن يزيلوا كل ما يعترض سبيلهم. ولهذا، أقترح يا مولاي أن ننظم قواتنا على التشكيلة العثمانية الكلاسيكية، وألاّ ننظمها في خطوط مستقيمة... وأن نستقبل هجوم الفرسان بطريقة ذراعي التطويق مع ثبات المركز والتفاف الطرفين؛ حتى نطوق الفرسان على طريقة الهلال.

بعد سعال خفيف نظفت به حلقي سألت:

- ما قولكم أيها الأغوات؟

أجاب الجميع: «إنه محق يا مولانا السلطان».

فتابعت: «يمكنك الانسحاب يا بالي بك. ولكن، ألا ترى الصحراء الممتدة، ونحن في فصل الصيف؟».

- لكن الطقس هنا متقلبٌ، ونحن هنا منذ شهر لم تنقطع خلاله الأمطار مطلقاً حتى أصبحت الأراضي موحلةً. علاوةً على أن قسماً من الأراضي قد أصبح مستنقعاً موحلاً بالماء الأسود، وفيضانات المياه نتيجة الأمطار الكثيرة الهاطلة تزيد من ارتفاع مستوى الأوحال والمياه في تلك المنطقة. فإذا استطعنا دفع قوات العدو إلى المستنقع، فسنتركهم يغرقون

في رماله وأوحاله. ولذلك يا مولاي، علينا أن نسحب جيشنا إلى التلال المنخفضة قرب موهاج، فإن فشلنا معاذ الله في الهجوم من المناطق المحيطة بالمستنقعات، فإن الكفار سيبلغون في حملةٍ واحدةٍ باب خيمتكم.

- ينبغي أن نترك لفرساننا مجالاً أكبر للتحرك والمناورة.

وأيد الصدر الأعظم إبراهيم باشا وجهة نظر بالي بك قائلاً: «بالي بك محقّ يا مولاي. فإن لم نتمكن من صد الهجوم الكبير الأول لفرسان العدو، فعندها يمكن أن يقع ما لا يمكن أن نتخيله، وما لا تحمد عقباه».

- يجب انتظار مبادرة الهجوم الأول من العدو. ولذلك، ينبغي أن نترك جنود العزب (الروم إيلي) يواجهون الزحف الأول. وما دمتم تخشون القوة الجبارة لفرسان العدو، فلن نترك المدافع في صفٍّ واحدٍ كما كان والدي يفعل، بل سننصبها على ثلاثة أنساقٍ متباينة العمق، أليس كذلك أيها الأغوات؟

- بلى يا سعادة السلطان.

- خذ نصف طوابير المدفعية يا إبراهيم، وضع المدافع الشاهية في المكان الأكثر عمقاً، واصطحب أثقال الجيش الأخرى نحو السفوح، وليطلق عشرون مدفعاً من المدافع الشاهية النيران من الخطوط الخلفية. وسيشكل بهرام باشا والي الأناضول الخط الثاني خلف جنود الروم إيلي، وسينصب المجموعة الثانية من المدافع. بيلر بيي سمنديرة الغازي خسرو بك، العدو لم يظهر حتى الآن، لذا قم مع فرسان البوسنة باستكشاف الطرف الآخر من السهل من دون أن تلقي بنفسك وبجنودك إلى التهلكة... سنقاتلهم حيث نريد لا حيث يريدون، فافعل أي شيء حتى تجذبهم إلى الميدان بأقصى سرعةٍ؛ لأن الانتظار مبرد يبري من جسم الجيش الفاتح... بالي بك، أنت المسؤول عن أمن أثقال الجيش ومدافعه، وسأكون مع إياس باشا ومصطفى باشا في المركز. الإنكشاريون سيقاتلون كفرقةٍ مستقلةٍ، وسيسارعون لنجدتنا في المواقف الحرجة، وسيوجّهون

أيضا الضربة النهائية. نظام الحرب يقوم على توصيات بالي بك. الصفوف الأمامية ستقاتل بكثافة منخفضة، وستعمل على جرّ فرسان العدوّ نحوها. وسنعمل على تحريض آمال العدو بإظهار الاضطراب السريع في صفوفنا، وإن فشلنا في بث حماسة النصر السريع في صفوف العدو، فإن مهمتنا ستكون صعبة. وإن تأخروا في دفع فرسانهم إلى مراحل متقدمةٍ، فإن احتمال انتصارهم سيكون وارداً. بهذه الطريقة ستكون تحركاتنا. أحب أن أتشاور مع وجهاء المنطقة بعد صلاة المغرب، إذ يمكن أن تختلف وجهات نظرهم عن وجهات نظرنا.

صادق أعضاء ديوان الحرب على الخطة بحني رؤوسهم، واضعين أيديهم على قلوبهم، وخرجوا من الخيمة... تمت تأدية صلاة المغرب جماعةً في السهل الممتد؛ في ظل حماية الجنود. وبينما كان شيخ الإسلام كمال أفندي يدعو ويتضرّع إلى الله، لم أتمالك نفسي، وانهمرت دموعي. وبعد صلاة المغرب، لم يأت من المغاوير قوجة ألاي بك، وقرة عثمان، وبالابان رئيس الإنكشارية، ومحمد صوباشي، وعادل تاويجا الذين دعوتهم لاستطلاع الموقف والتشاور معهم سوى الأخير. وقف عادل تاويجا أمامي فقلت له في حيرةٍ وبشيءٍ من الغضب: لماذا أتيت وحدك؟ فأدار وجهه نحو الريح التي طيّرت لحيته، فيما كان مرتدياً درعه الحديدية، وداساً يده تحت معطفه الكبير، وتكلم بلا مبالاة: «أرسلني قوجة ألاي بك. لقد شوهدت ألوية العدو، واشتبك جنوده مع طلائع جيشنا، ولم يبق مكانٌ للاستشارة، ولا للحديث. فلتفصلوا ألويتكم عن أثقال الجيش، ولتدخلوا تحت سنجقنا». واستدار مبتعداً من دون أن ينتظر ردّي. لفني صمتٌ عميقٌ، لكن توصيات أبي بهؤلاء المغاوير الأحرار كانت لا زالت تطن في أذني، ولذلك أشرت بيدي لأهدئ غضب إبراهيم وقلت: «الآن وقت الدعاء، وليس وقت الغضب يا إبراهيم. أصدر الأمر، ولتشعل الشموع، ولتنزل النجوم إلى الأرض هذه الليلة». وقبل انسحابي

إلى خيمتـي وصـل وهيمي أورخـون جلبـي حاملاً معـه أخبارا سـارة من يانـوس زابوليـا؛ إنها الضربـة الكبيـرة للاجوس الثانـي... مـددت له يدي هذه المـرة عاليا ليقبلهـا مـن دون أن ينحني لتقبيـل طرف ردائـي. فنفرت الدموع من عينيه كالأطفال من شدة سـعادته، مددت يدي، ومسحت على شـعره الكثيف قائـلاً: «لا يمكننا مهمـا فعلنـا أن نؤديك حقـك». وتابعت بعد صمت قصير: «مهمتك الآن التسـلل إلى صفوف معسـكر المجريين، وجمع كل ما يمكن التوصل إليه من خطط الحرب قبل وفي أثناء القتال». كان عندمـا يريـد أن يتكلم يُصدر مـن شـفتيه همهمات يحرك معها رأسـه بسـرعةٍ وكأنه يريد أن يسـد عجزه عـن التوضيح، فابتسـمت قائـلاً: «هيا، أرني همتك يا أورخون. وأرني من نفسـك خيراً». وكان ذلـك كافياً للحد من احتـكاك إبراهيم بأورخون من أجل سـلامتنا جميعاً، ثم انسـحبت إلى خيمتي لأتفرغ طويلاً لقراءة رسالة حرم:

«بعد تمرغ وجهـي القبيح بالتراب الذي تدوسـه قدماكـم المبجلتان يا قطعة من روحـي ومولاي وعزيز روحي ودولتي وسـعادتي وسـلطاني، أشكر الله على وصول رسالتكم الشـريفة المبجلة التي منحت عيني نوراً، وملأت نفسـي سـعادةً وحبـوراً... أسـأل اللـه ألا يبعدكم عني حتـى قيام الساعة، وأن يمكنني من أن أمسـح قدميكم المبجلتين بخدي... إن سألتم عن أحوال جاريتكم العاجزة الضعيفة، فوالله يا روحي، ليس ليلي ليلاً، أو نهاري نهاراً. ففي أي حال يمكن أن أكون وأنا بعيدة عنكم؟! ووالله وتالله إنني أحترق ليل نهار شـوقاً إليكم، ولا يعلم حالي إلا الله. فأنتم سلطاني، وقطعة من روحي، ونور عيني. أنتم أملي في الدنيا والآخرة، وليس لي في الدنيا مراد سـواكم، وحالتي يعجز عن التعبيـر عنها البيان والريشـة. ليكن سيفكم منتصراً، وعدوكم مقهوراً، والسلام....

أمتكم العاجزة حرم

* * *

فـي سـحر الأربعـاء 20 ذي القعـدة 932هـ، 29 آب 1526م، صلينا الفجر فيمـا كان المطـر يهطل خفيفـاً. وبعد تضـرع طويل مع جيشـي إلى الله، رفعت يدي مبتهلاً: «يا الله، يا ذا القدرة والقـوة المتين، إلهي، النصر نصـرك، والعناية عنايتـك، والحفظ حفظـك. بين يديك عصبـةٌ عاجزةٌ من أمة محمدٍ فلا تهزمها، ولا تشـمت بنـا أعداءك الكفار». تـردد الدعاء على ألسـنة الجنود، وانطلقت من حناجرهم كلمة «آمين... آميـن». ثم امتطيت صهـوة حصانـي الأغبـر، وتجولـت بيـن ألويـة جيشـي، وأنا أخطـب في جندي: «أيها المسلمون، يا من تجمعتم تحت السـنجق الشريف المبارك، أيهـا الإنكشـاريون، والعزب، والسـباهيون، وطلائـع جيشـي، والمغاوير، وعسـاكري وجنـودي... إن كل العالـم يـدرك أن المسـلمين يخرجون في سـبيل الله طمعاً بنيل رضوانه. ونحن الآن هنا لقتال أصحـاب الفتن ممن يصدون عن سـبيل اللـه. إن متنا فنحن شـهداء، وإن عشـنا فنحـن غزاة... فليرني كلّ واحدٍ منكم من نفسـه خيراً». عند بزوغ أشـعة الشمس الأولى، ظهرت تحت الضباب في السـهل الممتـد أعلام الجيـش المجري. كانت جميعهـا أعلامـاً حمـراء وسـوداء. وكان الجيـش مدرعـاً بـدروع حديدية مخيفـة. لكـن تلـك الأوزان التـي يحملونهـا سـرعان مـا سـتقطع أنفاس حامليها، وتعيـق حركتهم... كانت وحـدات الجيش تبـدو كقطعةٍ صخريةٍ صلبةٍ عنـد مرورها في مراسـم التحية كمـا هو معتـاد. وخطر ببالـي العبد العجوز لإمبراطور روما ماريوس أوراليـوس المكلف بأن يهمس في أذني الإمبراطور في مثل هذا الموقف قائلا: «أنت إنسان، أنت إنسان»، فكررت ما تـردده الجمـوع: «لا تكن مغروراً يـا مـولاي، فالله أكبر منـك!». اتخذ جيشـي مواقعه، وكنا جاهزين الآن لنخوض أشـرف حربٍ... كانت نفسي ملأى بالرحمـة والغضب، والنشـوة والإنكسـار، والرجاء والخـوف. وأنا على يقيـنٍ بأن الغثيـان الخفيف الذي كنت أشـعر به وألـم الـرأس الذي لا يعرف نهاية سيتلاشـيان عند احتدام المعركة. غير أنني لا أشعر بأنني على

استعداد يرقى لما عليه جسدي المدرّع. وبينما توجّهت برفقة حرّاسي نحو التلة حيث خيمتي، رأيت كل ألويتي وطوابير جيشي مترقبة العدو في ظل صفير الرياح... كانت خطة الجيش المجري وفق المعلومات التي تلقيتها من جواسيسي كما يلي: سيتقدّم الجيش بين قريتي Nazinyart و Kulkut اللتين تشكلان مع ميدان الحرب زاوية تبلغ 30 درجة، وسيحاول استدراجنا بعيداً عن المستنقعات الموحلة، وبذلك ستكون ميسرتهم من جهة نهر طونا، أمّا ميمنتهم التي يعتمدون عليها حسب ما سمعت فستكون قادرةً على التحرك بارتياح. وسينتظم الفرسان بدروعهم المخيفة خلف المشاة، فيما سيفترض النبالة والمدفعيون إلى الجانبين مشكلين مظلةً يتحرك في ظلها المشاة. ووجود الميدان في المنخفض سيجبرهم على تقديم حملة الفرسان الكبيرة... ابتسمت لنفسي وأنا أقول: «هيا، هيا يا لاجوس. قم بحملتك هذه، قم بها وتمتع بيومك».

موهاج
(وهيمي أورخون جلبي)

I

«ما لم يكن هناك صبرٌ بلا حدود أو فداءٌ خاصٌّ، فلن أتمكن من الهروب من إحدى هاتين النتيجتين: إما خداع نفسي، وإما تجرع الآلام».

لويس ألتبوسر (يوميات الأسر)

كان المطر الذي يشتد، والرياح التي تهب عاصفة خلافاً لما هو متوقع يثيران استغراب المجريين من ناحية، وطمأنينتهم من ناحية أخرى. فالجيش العثماني لن يشن حملته في مثل هذه الأجواء، والمرجح أنه سينتظر سكون الأمطار والعواصف. ولعل القرار الذي سيتم اتخاذه وفق المعلومات الواردة، ووفق اللقاء الأول الساخن بين بال توموري والملك لاجوس كان يتجه بقوةٍ نحو منح الجنود الراحة. فقد كان هناك خمولٌ كبيرٌ يسيطر على القوات المشتركة من إسبان وطليان وألمان وبولنديين وتشيك... وكان الجنود منهكين نظراً للسير الحثيث الذي أجبرهم عليه الملك لاجوس الثاني، والذي استمر أربعين يوماً من دون راحة؛ نظراً لمعرفته في وقت متأخر بخروج الجيش العثماني. لقد قطعوا ما يزيد عن 79 ميلاً، ونالهم من الإرهاق ما نالهم. وكان التوتر الذي كان الإسبان والطليان يفتعلونه داخل الجيش منذ فترةٍ طويلةٍ يزيد الوضع تعقيداً أمام بال توموري ولاجوس. وكانت محاولة تقرب العثمانيين من الجنويين

حلفائهم القدامى، وكذلك رغبتهم في زيادة نفوذهم أمام الفاتيكان من خلال الاتفاق السري بين إنجلترا وفرنسا ضد شارلكان في الآونة الأخيرة يزيدان من توترهما.

وهكذا، كنت أتجول بينهم كرحالةٍ كاثوليكيٍّ يتجول في الديار؛ واحدةً تلو الأخرى مع اثنين من مريديه، محاولاً إنقاذ الأرواح التائهة بخطبي ومواعظي. أما الآن، فوظيفتي الفخرية محاولة إخماد التوتر السائد بين الإسبان والطليان. نعم، كنت راهبًا مسكيناً لا يهتم بالافتراءات على المجر، ولا بالظلم الواقع عليها من البروتستانت، ولا بتأييد الطليان لها الآن، ويناهض الفكر البروتستانتي بكل وسيلةٍ، ولا يكف عن عداوة بني وطنه. وفي الوقت نفسه، كنت قد نجحت في التسلل إلى كنف أقارب لاجوس لأتمكن من رؤية ساحة الحرب، ومراقبة كل خطوات لاجوس.

بدأ المجر بالاستعداد للحرب بشكل يتناسب مع الخطة الموضوعة. كانت الرياح تهب محملة برائحة الطحالب النتنة القادمة من المستنقعات، وملأ الجو دخان وضباب، وكانت وحدة المشاة المكونة من عشرة آلاف جندي تأخذ مواقعها في الصف الأول على طول الوادي بشكل رائع يثير الدهشة؛ نصفها يحمل البنادق، ونصفها الآخر حراس ضخام البنية يحملون على ظهورهم سيوفاً عملاقة يتجاوز طولها المترين. وكان الغطاء الناري لحاملي البنادق يدل على بداية الهجوم. كان هؤلاء الجنود أعظم من جنودنا الإنكشاريين، وكانت الدروع السوداء التي يلبسونها تشبه الكوابيس، ولعل السفاحين والمجانين عندنا يصعب عليهم مواجهة هؤلاء.

خلف الخط الأول تمركزت المدافع المعززة بالستائر الترابية. وكانت المدافع منصوبة بشكل منخفضٍ. لعلهم كانوا على يقين بأن حملة الجيش العثماني ستكون بالشكل التقليدي. وعلى الجناحين انتشرت وحدتان من الخيالة؛ قوام كل منها ألفا جنديٍّ. وتولى قيادة خيالة الميمنة

القائد العام لفرقة الخيالة الفارس سيمون بوليتيت، فكان مثار دهشة الجنود ببنيته القوية ونظراته الثابتة ولحيته السوداء ودرعه المذهبة. وقد حفرت صورة هذا الفارس في مخيلتي في إحدى الزوايا. كان يمطر الدنيا بصوته الجهوري، ويصدر الأوامر يميناً ويساراً، ولم يكن يعبأ بأي شيء!

وكانت خيالة الميسرة بقيادة بيير بيريني، وكان رجلاً طويلاً يبدو كمنارة متنقلة، فيما مغفره أسطواني الشكل يغطي كامل وجهه، وتنتشر على دروعه نتوءات مسننة، وتغطي أسياخ يبلغ طولها نحو عشر أصابع كتفيه وكوعيه وركبتيه. ولعل هذا كله ما يزيده وحشة وهيبةً. فبالتأكيد لا يجدي معه سيفٌ ولا سهمٌ وهو مدرّع هكذا. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو التالي: ترى، ما المدة التي يستطيع فيها محارب مثله أن يصمد وهو يرتدي مثل هذه الدرع الثقيلة؟ فجنودنا من المشاة والخيالة يرتدون دروعاً خفيفةً، ولكنهم يحاربون بسرعةٍ وقوةٍ مدهشة... ولعل في هذا ما يشير إلى مدى خوف الغرب والأوروبيين من الموت. فعقيدتنا تعلمنا مواجهة الموت بثبات، وتساعد المقاتل على السيطرة على خوفه منه. أما الأوروبيون، فإنهم يخافون من مجرد ذكر الموت، فكيف ستكون حالهم في أثناء خوضهم غمار الحروب؟

أما قلب الجيش المجري فيقوده الملك لايوش بوحدات الفرسان الألمان المدرعين بدروعهم الثقيلة. وفي النسق الثاني للجيش، تتمركز وحدات المشاة الأخرى على شكل مجموعاتٍ؛ كل منها تتكون من ثلاثة آلاف جندي يحملون البنادق والسهام، وقد سنحت لهم الفرصة لحفر خندق صغير أمامهم. الجيش المجري بتفوقه العددي وتنظيمه الشديد، ربما يشكل مشروعاً أقرب لتحقيق النصر في هذه المعركة.

في النسق الثالث، تمركزت فرق المشاة ورماة السهام بقيادة جوزيف كارتاكوفي الذي انضم إلى الجيش في اللحظات الأخيرة بثلاثة آلاف من الفرسان، وتمركزت خلفه وحدات بقيادة أنطون ترابة يبلغ عددها ثلاثة

آلاف فارس؛ بينهم وحدةٌ فدائية مخيفة في أوروبا تدعى فرسـان شامرنبرغ أسسـها بيتر ماركزالـي تعمل في الحـروب كفرقـةٍ انتحاريـةٍ. وكان ماغيار دراجيفي مسـاعد أنطون تراتبة ينتظر في مكانه في مؤخـر الجيش مع فرقة عسـكرية تتكون من ألف فـارسٍ وألفين من المشـاة، فأرسـلت على الفور أحد أعواني إلى مقر الجيش العثماني لينقل لهم هذه المعلومات...

بعد انتظام الوحدات في أماكنهـا، أخذ كل من الملك لايوش الثاني، وصديقه فالديسـلف بلاتـه، والقائـد العام بـال توموري في إلقـاء الخطب الحماسية بين الجنود:

«يا أسـود المجر، يا أبطال العقيـدة النصرانية الفدائييـن، ها نحن هنا في هذا الجو الماطر والعاصف قد تجمعنـا لمواجهة عدو قاسٍ وعنيدٍ إلى أقصى درجةٍ، لا يريد أن يغتصب أرضنا وأموالنا ونساءنا فحسب، بل يريد أيضاً أن يمـس ديننا. ونحن أناس شـرفاء ومحبـون لوطننا وديننـا. وها قد جاء اليوم المناسب لكي نتصدى بسيوفنا لهؤلاء المضللين الذين يدعمون المذاهب الهرطقية!».

* * *

كانت أصوات الطبول التي يقرعها الأتـراك تهز القلوب، وهي ترتفع حينـاً وتنخفض حيناً آخـر مع حركـة الرياح. ولـم تظهر في المعسـكر أي حركة، وكنت أعـرف أن بال تومـوري قد أصدر أمـراً بالانتظـار، وفهمت من الشـائعات التي بدأت تنتشـر بين أفراد الجيش أنه سـتكون هناك راحة اليوم، وسـيتم نصب الخيام؛ فقد كانت أعصاب الجنـود المرهقين متوترة إلى حد كبيـر بسـبب العواصف والمطـر. ولعل الأسـوأ مـن كل ذلك هو طول الانتظار. كانت العاصفة تشـتد إلى حدٍّ يسـمع معه اصطـدام الجنود بعضهم بسـبب صعوبة الحفـاظ على توازنهـم وهم يرتدون هـذه الدروع الضخمة. وكانت تسـمع أيضـاً أصـوات رنين القطـع المعدنية التـي كانوا يخرجونهـا من تحـت دروعهم. وربما شـكلت سـحب البـارود المحترق

الكثيفة خطوطاً حمراء وصفراء تبعث في الإنسان آلاف الذكريات والآمال الكبيرة لصباح يومٍ قادمٍ جديدٍ. نعم، إنها أمنية البقاء ليوم آخر، والرغبة في رؤية فجر يومٍ جديدٍ. كانت أقواس الأضواء تتلألأ في بعض البقع الطينية بلون الدم الأحمر الجاف؛ وكأنها تشير إلى ميدان الحرب. لكن نظرات الجميع - ولسببٍ ما - كانت لا تحيد عن المستنقع الممتلئ بالمياه السوداء. ولعل الأبخرة الخضراء والروائح الكريهة التي كانت تنبعث من سطح ذلك المستنقع كانت توحي بالنهاية التي تنتظر المجر، أو ربما كانت هناك بعض الأسرار التي يعرفونها عنه ولا نعرفها. خلال الانتظار، سمعت من راهبٍ كاثوليكي عن عبد الحضرة الذي يقال إنه طاف قبل عدة قرون صحراء العرب الشاسعة بمفرده، وصادف فيها من المخاوف ما أفقده عقله. وكتابه التشاؤمي العجيب نيكرونوميكون الذي يعتبر طرف البداية لأسرار كل الغامضين على مر العصور كان يدور بين أيادي المتشائمين. لقد كان هذان الاسمان يترددان بين الظلال الحالكة لذلك اليوم الأسود... تنهد الراهب، واستمر في حديثه: «في ذلك الماضي الذي ليس ببعيدٍ، كانت هناك فئة ضالة تمارس بعض الشعوذات السوداء في ظلال هذه المستنقعات. وقد أدى عبد الحضرة الطقوس التي وصفت في ذلك الكتاب الخبيث. وحسب الأسطورة، إن لعنة المستنقع مستمرة حتى يومنا هذا. والرائحة الكريهة المنبعثة منه؛ هي النتيجة الحتمية لدماء الأبرياء التي لا تحصى... ولقد صدق تلك الحكاية الخرافية الكثير من الناس؛ إلى الحد الذي جعل منها حقيقةً واقعيةً تقريباً». لم أكن أدري كم من الوقت قد مضى علي وأنا مستغرق في التفكير في أمر هذا الكتاب العجيب وكاتبه، وغافل عن المطر الذي يغمرني، والعاصفة التي لا تهدأ. أدرك أحد الرهبان مدى اهتمامي بالأمر فقال: «لعلك لم تسمع الاسم اللاتيني لهذا الكتاب الملعون، ولكن على الأقل، لا بدّ أنك سمعت باسمه العربي المشهور». نظرت إلى وجهه المظلم المبتل الذي يشبه التجويف

الصخري، وقلت:

- وما اسمه؟

- العازف.

- نعم نعم، سمعت بهذا الاسم من قبل. ولكن، أين؟! نعم، كان فرهاد باشا الذي أخمد العصيان في مصر قبل عدة سنوات قد قال إنه رأى هذا الكتاب الملعون في يد بدويٍّ دله على مكان جان بردي غزالي. عجباً لهذا الأمر، كيف جرى؟ وكيف كان؟

II

استمر الانتظار الصامت والغامض حتى مالت الشمس نحو الغروب. كانت الأمطار لا تزال تهطل، وكانت أصواتٌ عاليةٌ تسمع أحياناً مصحوبةً بصفير الرياح. وفجأةً، اجتاحت نوبةٌ من الهلع الصفوف التي كانت تتعرض للهجوم... فهمت حين رأيت الأعلام الخضراء والبيضاء أن والي سمنديرة الغازي بالي بك قد كسر حاجز الصمت بهجومه المباغت متوجهاً مع فرسانه إلى خطوط العدو بشكل مفاجئ؛ تاركين خلفهم الطين المتناثر من حوافر خيولهم... بادر الجيش المجري الذي سئم الانتظار بالرد على الهجوم، وتحرك سيمون بوليتيت بفرقته من الفرسان في الجناح الأيمن إلى الوادي كعاصفةٍ سوداء، وتصدّوا للهجوم. وما إن رأى الفرسان الترك هذا السيل العارم حتى نفخوا في الأبواق إشارة الانسحاب... كنت واهماً عندما ظننت أن سيمون على قدر من الخبرة، ولن تنطلي عليه هذه الحيلة... نعم، كنت واهماً، ومخطئاً في ذلك.

لقد أتقن السلطان سليمان خان حساباته، وأدرك حالة الإنهاك التي يرزح العدو تحتها، وعجزه الكئيب من طول الانتظار... وكان هذا الدهاء امتيازاً إضافياً ورثه عن آبائه. فعظماء العثمانيين لطالما كانوا يتمتعون بالقدرة العالية على تقدير خطوات العدو مسبقاً. كان لاجوس شاباً يافعاً، وكان يريد أن يثبت قدرته أمام شارلكان، ويتوق للثأر لهزيمة بلغراد. أما قادة أركان حربه، فكانوا يخافون أن ينصب عليهم غضب شارلكان، فأسرعوا إلى الميدانِ تاركين توقعاتهم في مقراتهم الأنيقة. ظن لاجوس أنه استعد لهذه المعركة جيداً، وإن حصل ذلك في وقت متأخر. وخدعه تراجع الفرسان الأتراك بعد شنهم هجومهم الأول بهذه السهولة والسرعة.

فمن الذي يستطيع الصمود أمام فرسان شارلكان المرعبين؟!

لم تلق اعتراضات بال توموري آذاناً صاغيةً من لاجوس. ولم تكن لدى هذا الملك الشاب الذي لم يكد يبلغ العشرين من عمره نيةٌ بالاستماع إلى قائد قواته... ويبدو أن الزحف الذي بدأ جيش الروم إيلي يشنّه قد أجهز على ما تبقى من الحكمة عند لاجوس، ودفعه إلى الجنون من فرط الانفعال والغضب. نعم، بدأ جيش الروم إيلي في طليعة الصفوف الأمامية للقوات العثمانية بالزحف؛ متّخذاً وضعية الحرب. وكان واضحاً أن الجيش العثماني في المقدمة يلتحق بوحدات الفرسان الموجودة في الجناح الأيمن. كان توموري البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً، والذي احمرت بشرته السمراء كما لو أنه في يوم حار، وظهر في عمق عينيه الزرقاوين بريق شخص قويٍّ يعرف ما يريده يحاول السيطرة على ردود الأفعال، ويحاول ثني الملك عن التقدم قائلاً: «انتظروا حتى يدخلوا مدى مدافعكم. أيها الملك، إن صبرنا قليلاً فسنتمكن من إيقاف الصفوف الأولى للأتراك بأسلحتنا طويلة المدى، ثم سنهبط عليهم بالمشاة المدرعين والمسلحين بأسلحة ثقيلة، وسنمزّق صفوفهم في المركز». فصاح الملك:

- ما الذي تقوله يا توموري؟! ألا ترى؟ لقد حوصر بوليتيت، وها هو بيريني يسرع لنجدته. وإن تأخرنا في التحرك فسنكون قد عرضناهم جميعاً للخطر. ولكننا إن لم نفتح ثغراتٍ في وحداتنا، فالنصر سيكون حليفنا بالتأكيد.

- جلالة الملك، إن الأوامر التي تلقاها بوليتيت كانت شديدة الوضوح، لكنه ارتكب خطأ وهو يحاول الالتفاف خلف العدو ليثبت بطولته... ونحن يجب علينا الآن ألا نكرر الخطأ ذاته... إنّ التكتيك الذي يتبعونه تركي كلاسيكي قديم... وأخشى أنهم يريدون تطويق قواتنا ومحاصرتنا.

صاح لاجوس وتعابير الدهشة تملأ وجهه الأبيض الشاحب، بعد أن خلع خوذته وهو يقول:

- ما الـذي تريد منـا فعله يا تومـوري؟! هل نتـرك إخواننـا وحدهم ونسـلمهم للموت؟! إن لم تفترق صفوفنا فلن يسـتطيع أحد محاصرتنا... نعم، سنمزق صفوفهم ونخرج من الجهة الأخرى.

- مولاي، يجب على بوليتيت أن يتحمـل نتيجة الخطأ الذي ارتكبه، فليـس المهم هو الأشـخاص، بـل المجر نفسـها. جلالتكـم تتحدثون عن خرق الحصار، ونحن لم نخض مع الترك حرباً ميدانية منذ سـنوات. لكننا سـمعنا عن الدور الذي لعبتـه مدفعيتهم المتنقلة في فتوحات الشـرق. فإن حاولنا اختـراق الحصار، فسـيقابلوننا في الطـرف الآخر بنيـران مدافعهم، وسننهزم في مدةٍ قصيرةٍ.

نخس لاجوس فرسـه، وتقدم من قائد قواته، وأمسكه من كتفه قائلاً: «لقد جننـت يا تومـوري. أتعتقـد أن الجيـش سـيطيعنا مجـدداً إن ضحينا بشـخص مثل بوليتيت الذي يحترمه الجنـود؟! أعط جميـع الوحدات بما فيها الوحدات الاحتياطية أمـراً فورياً بالهجوم. وإن تبعت وحدة الفرسـان الثقيلة التي سارت في المقدمة فالنصر سيكون حليفنا بالتأكيد».

وفـي تلـك اللحظـة، التفـت الملـك إلـى الفـارس أندريـه أباتوري صاحب العينيـن الزرقاويـن الذي يبـدو إلى جـواره كخيال تحت السـماء البترولية المائلة إلى الحمرة، والذي تدخّل في الحديث بلهجة قوية قائلاً:

- جلالتكـم على حق يـا مولاي. أعطوا أمركم بشـن هجوم شـامل؛ فالتـرك ما زالـوا في حالة هلـع بسـبب الهزيمة الأولـى التي تعرضـوا لها. والعائـق الأكبر الذي يواجههـم هو أنهم غريبـون عن المنطقة، لـذا يمكننا أن نشـتتهم في اتجاهين، ونقضي عليهـم؛ إن تمكنا من ضرب الوسـط... والمحاربـون مـن أمثـال بوليتيـت وبيرينـي هـم مصـدر الـروح المعنويـة للجيش.

فصاح لاجوس وقد التصق شعره المبتل بوجهه: «هل ترى يا توموري؟».

كان من السهل إدراك أن لاجوس لم يتعرض لقلق كهذا طيلة حياته... وعندما رأى بال توموري أن كل الأغصان التي يتشبث بها قد انكسرت الواحد تلو الآخر، أدرك أنه لا داعي للإصرار أكثر من ذلك، وأحنى عنقه وقال: «أمرك يا ملكي». ثم استل سيفه قائلاً: «ابقوا أنتم في الخلف. سأحاول الوصول إلى طليعة جيشنا قبل أن يحاصرها الترك. وما أريده منكم هو أن تحاولوا سحب المدافع إلى ميدان القتال قدر الإمكان».

فلوّح لاجوس بيده قائلاً بنفاد صبرٍ: «أنت تعلم أنني لن أستطيع فعل ذلك، فمدافعنا ليست متحركة كمدافع الترك، لذا يجب فكها من القلعة وتثبيتها على عربات، ونحن لا نملك الوقت الكافي لذلك، ولم تبق سوى ساعتين فقط حتى غروب الشمس. اذهب أيها القائد ولا تضع المزيد من الوقت». وعلى الرغم من كل ذلك، كرر توموري تحذيره بوجهٍ قلقٍ: «اتركوا لي الأمر منذ هذه اللحظة يا مولاي، ولا تدخلوا ميدان المعركة. وإن حدث أي موقف فلا تلقوا بأنفسكم في الخطر، واتركوا المنطقة فوراً. وقد يلحق بنا أردال فويفوداسي جوناس زابوليا ويشكل دماءً جديدةً لجيشنا». فقال لاجوس بقهقهةٍ عجيبةٍ: «يمكنك أن تنساه». فوجئ توموري وقال بشيء من الحدة والغضب:

- لماذا أيها الملك؟ لماذا تقول ذلك؟ زابوليا صديق مخلص يمكن الاعتماد عليه.

صاح لاجوس هذه المرة محدقاً إلى عينيه: «أنت أعمى أيها القائد. هل كنت تعتقد أنني لم أعرف منذ البداية أن زابوليا لن يأتي؟ لو لم يكن قد باعنا لكان قد أصبح بيننا الآن بالتأكيد».

- من المؤكد أنه اصطدم مع طليعة الجيش العثماني...

ضحك الملك الشاب مجدداً، وتابع بشيء من الرضى والاعتزاز

هذه المرة: «لقد بلغني من جواسيسي أنه مرابط مع جيشه الآن بالقرب من سيجيدين. إن هذا الخائن ينتظر انتهاء الحرب، ويتقرّب من العثمانيين للإطاحة بعرش المجر بعد هزيمتنا... لكن، أقسم بالله إنني سأفسد ألاعيبه وألاعيب سليمان... فلنتخط هذه المحنة الآن، وبعد ذلك سأحاسب كل واحد على حدة».

* * *

كان الجيش التركي يواصل تقدمه بتثاقل منظم من دون أن يفقد النظام بين وحداته، فيما وقع خطواته فوق الأراضي المغطاة بالوحول يتردد في أنحاء الوادي. وظهر بال توموري على صهوة حصان أبيض يشوبه السواد، مترئساً القوات المجرية ثقيلة الدروع، وهو يصدر أوامره برفع رايات الهجوم الحمراء والصفراء التي رسم عليها رمز الأسد، وبإطلاق أبواق الهجوم. وبدأ الجيش المجري هجومه مدعوماً بالفرسان الألمان.

كنت أستطيع أن أرى من موقعي إبراهيم باشا على رأس طليعة الجيش العثماني من جنود الروم إيلي. كانت درعه اللامعة كالألماس تغطي جسمه الموفور بالصحة والشباب، وكان حذاؤه مصنوعاً من جلد الماعز. أمّا خوذة الفرس فبدت كبدر صغير نزل من السماء الملبدة بغيوم لا تمطر. وكان آغا من الإنكشاريين يقود فرسه بعناية وزهو بين الصفوف، محاولاً تشجيع الجنود وإثارة الحماسة في نفوسهم. وفجأة، أمر بالهجوم على العدو، ثم عمل على إبطاء سرعة الفرسان؛ حتى أصبحت نقطة الالتحام على بعد خمسين ذراعاً. وبعد ذلك، أمر برفع راية الانسحاب الحمراء، فانسحب الجيش من الوسط فجأة، فيما ظلّ الجناحان الأيمن والأيسر ثابتين في مكانيهما، وسرعان ما شكلا دوامةً مميتةً؛ وكأنّ نهراً هائلاً قد انشطر إلى قسمين.

لقد ثبت جناحا الجيش في موقعيهما، وتقدم المجريون بسرعةٍ

لا رجعة فيها نحو وسط الجيش المتقهقر؛ وكأنهم سيل يتجمع في قمع ضخم... أدرك تومـوري أن الجيش المجري وقع في الفخ الذي كان يخشى منه، وأنه مطوق لا محالة إن لم يتدارك الأمر بسرعة، فتصرف كمحارب محنك، وأمر بنفخ بوق التجمع. وإذا كانت الصفوف الأولى لقواته قد توقفت، فإن جناحي الجيش العثماني قد سارعا إلى تشكيل جدار من الجياد المدرعة التي لا يمكن تخطيها، والتي غدت كشبكة من طوقٍ حديديٍّ. ولم يكتشف المجريون حتى تلك اللحظة أن خيول الترك مربوطةً بالسلاسل.

عندما رأى توموري أن الملك لاجوس في الخلف على بعد عشرين فرسخاً يستعد بنفسه للهجوم، وأنه بذلك سيدخل دائرة الحصار، حار في أمره. وكنت أستطيع تمييز حجم تلك الحيرة... وحدث ما كنت أتوقعه، فقد أمر توموري بنفخ بوق الانسحاب... كان لا يزال يأمل أن تكون دائرة الحصار ضعيفة عند نقطة الدخول، فيعمد إلى كسرها في تلك النقطة، وكانت هذه ستصبح حملةً حقيقيةً... ولم أكن واثقاً من أن المؤرخين سيلتقطون نقطة الإنكسار الرئيسة في هذه الحرب، ويسجلونها بأمانةٍ... لكن الملك كان في ميدان المعركة يصدر أوامره بشن الهجوم من جديد، فعلت أبواق الهجوم مجدداً بين الجنود، وجعلتهم يترددون؛ فقد كانت أبواق الهجوم وأبواق الانسحاب تنفخ في آنٍ واحدٍ. أسرع توموري نحو الملك، وحذره من المدفعية التركية التي تنتظرهم غالباً في الناحية الأخرى من دائرة الحصار. ولعلي كنت سأعرف هذا لاحقاً من بلات نائب لاجوس في أسره... اقترب توموري من الملك الشاب وصاح قائلاً:

- لماذا؟ ما الذي تفعله هنا؟! لقد طلبت منكم البقاء هناك.

فصاح لاجوس بغضبٍ، وعيناه تبدوان كحفرتين سوداوين في وجهه المليء بالخجل: «لا أستطيع أن أترك جنودي وحدهم. أنت تدمر كل شيء يا توموري! يجب أن نتقدم... انظر إلى حالة الجنود المعنوية،

سيستنزف جبنك الجيش بأكمله...».

عندما رأى جنود الأناضول الموجودون في الصف الثاني في الجيش العثماني تحرك الجيش المجري إلى الأمام مرةً أخرى، تقهقروا بالمهارة نفسها، وبادر رماة الأسهم وحملة البنادق إلى تأمين الغطاء مبتعدين إلى الجانبين، وهم يعملون على تعزيز طوق الحصار. وعندما كانت الصدامات الصغيرة تنشب بين ضباط المجر على امتداد الجناحين والأتراك، كانت نيران وحدات البندقية التركية تجبرهم على التراجع بسهولةٍ... كنت أدرك حيرة لاجوس وتوموري، ولو تقدموا بسرعة لأمكنهم أن يبلغوا الطرف الثاني من دائرة الحصار، لكن وحدات مدفعية عسكر الأناضول كانت قد بدأت بقصف الوادي من المنحدرات التي توازي الصف الثاني. وفي الوقت نفسه، كانت وحدات مدفعية جنود الروم إيلي قد بدأت القصف من الناحية الأخرى، وهكذا أصبح العدو تحت قصف متقاطع من الطرفين... وفي النهاية، حدث ما كان توموري يخشاه. ولم تكن نيران المدفعية هذه المرة صادرة من صفوف المقدمة، بل كانت قذائفها تمطر على المجريين من الجهتين بأسلوب لم يستخدمه الجيش العثماني في هجماته من قبل.

هذا الموقف دليل واضح على أن السلطان سليمان خان قائد عسكري محنك... وأستطيع الآن أن أتذكر أن توموري اقترب وسط تلك الفوضى من لاجوس، وحاول أن يقول له شيئاً.. لكن صدى الانفجارات المتوالية ملأ المكان، وتداخلت الأصوات في المعركة، وتلاشت تحت دوي الانفجارات. وبدأت مقذوفات المدافع بالسقوط على الأرض اللينة، وأصبحت في ظل صهيل الجياد المختلط بصليل السيوف والرماح والأمطار والوحل وكأنها حبات برد منحدرة من السماء. وكانت كتل الصخور الصماء المختلطة بالماء والطين التي يبلغ وزن كل منها حوالى 800 كيلو غرام تتناثر وترتفع في الجو حتى مئة قدم.

بدأت أجـواء هزيمـة المجريـن تلـوح فـي الأفـق، وأدرك توموري أنه لن يتمكـن من إجبـار جنوده علـى طاعته حتـى يكون الملـك موجوداً معه... فرأيته يتجه إلى قائد ذي رتبة عاليـةٍ، ويقف بجواره ويقول له بعض الأشياء. فانطلق القائد بسرعة نحو فرسـان Schmerenburg، وهـم أربعون فارسـاً تحت قيادة بيتر ماركزالي. وسـرعان ما رأيتهم يتجمعون ويسحبون الراية بشكلٍ منضبطٍ رغم حدة المعركة... لم أكن أشك في أنهم سيفعلون ما أتوقعه. فقـد انطلقوا بشـكلٍ مرعـبٍ باتجاه السـلطان. كانـوا يهاجمون بسـرعةٍ وضراوةٍ؛ حيـث إنه لم يواجههـم شـيء إلاّ وقطعوه إربـاً... ورفع القائد الأعلى توموري لواءه محاولاً تجميـع وحداته التي تتعرض للهزيمة مجدداً؛ إذ لم يكن لديهم مكانٌ ليهربوا إليه، ونشر ببراعةٍ كل الجنود الذين جمعهم أمـام قـوات الصدر الأعظـم إبراهيـم باشـا المتمركز فـي الطرف الأيمن من دائـرة الحصار... وفي هـذه النقطة، كان نهر تونـا ينعطف على شـكل الحرف S. كانـوا يضغطون علـى قوات إبراهيم باشـا مـن الخلف، وأظن أن توموري أراد أن يدفع بقوات سـردار إبراهيم باشـا إلى مياه النهر العميق، ويُحـدث توتراً فـي الجيـش التركـي. وبالتأكيـد، إن نجحت هذه المهمة التي كلف بها فرسـان بيتر ماركزالي، فإن الجيش التركي سيتشتت. وبالطبع، لا يمكن تحديد متى وكيف سيسـتولي مرض الهزيمة على نفسية الإنسـان. فالجندي الذي تـراه الآن عملاقاً يجسـر على اختـراق فرقة من الأعداء، يمكن أن ينقلب خلال لحظة إلى جبـان يفر من جنديٍّ لا يتجاوز حجمه نصف حجمـه من جنود العـدو... إنه الـدور الذي تلعبـه الظروف والوقت والمشاعر.

بدأت الوحدات التركية للمرة الأولى في تلك المنطقة بالتفكك أمام هجوم تومـوري المتـزن، لكن قوات السـيد خسـرو التي أحاطـت بقوات توموري من الخلـف جعلت تلك القـوات بين نارين... الأمـر الذي جعل رجال توموري يسـاقون إلى نهر تونـا، وهكذا وقع تومـوري في الفخ وهو

ذاهبٌ إلى الصيـد... كانت الأرض الموحلة تهبط باسـتمرار، فيما الخيول المجرية تتثاقل وترغب في طرح أحمالها عن ظهورها ثم بدأت تهتاج.

كان الخيار الوحيد المتبقي للمجريين أن يسـتلوا سـيوفهم ويواجهوا مصيرهـم. وكان تومـوري ورجالـه الذيـن ترجلوا عـن صهـوات خيولهم سـيدركون قريبـاً عجزهم عـن القتال في هـذا الوحـل العميق. فـإن كانت دروعهم خفيفةً، فإن سـيوفهم اللامعة طويلة جداً وثقيلة جداً، ولن تنفعهم في تلك الأوحال... اشـتبكوا قليلاً مع القوات التركيـة التي تتعقبهم، وهم يتراجعون نحو مياه نهر تونا الموحلة... كنـت متأكداً من أن توموري يفكر الآن بما وصل إليه بيتر ماركزالي ورجاله.

III

كان بيتر ماركزالي يمسك بلطته الحربية الضخمة ثنائية الحد التي يشبه مقبضها جذور الشجر القديم بإحكام. كان يلوّح بترسه البرونزي الكبير بيده اليسرى ببساطةٍ. لم يكن وزنه الذي يبلغ ثلاثةً وعشرين أوقيةً على الأقل يثقل عليه. وكانت سترته الواقية ودرعه التي غرز فيها عدد لا يحصى من السهام تغطيهما الدماء، ورجاله لا يختلفون عنه كثيراً... كانت ستراتهم الواقية خفيفةً، تمنحهم ميزة التفوق والسرعة في القتال، وكانت تلك السرية تتقدم، وتطوي ميدان المعركة بسرعةٍ مرعبةٍ، أوقعت الرعب للوهلة الأولى في قلوب الجنود العثمانيين.

كانت ملابس هؤلاء الجنود مختلفةً أيضاً عمن سواهم. إذ كانوا يرتدون البناطيل الصوفية الضيقة، وينتعلون الأحذية المصنوعة من جلد الثعلب الأحمر والممتدة حتى الركب... كانت ستراتهم ذات الحلقات النحاسية والزنكية منسوجة على شكل حراشف الأسماك، ومعاطفهم التي طرزت أطرافها بخيوط الذهب قصيرة الأكمام وتمتد حتى الركب، أمّا أذرعهم فكانت مغطاة بالحديد الصلب، وخوذاتهم من الحديد المطاوع على شكل الكمثرى. وكانت وجوههم المكشوفة تماماً تساعدهم على أداء مهامهم القتالية. أما رماحهم المصنوعة من خشب الدردار فطويلة وأنصالها الحديدية تغطيها المسامير الحديدة الضخمة الصدئة، وكان هذا السلاح يبدو فتاكاً أكثر من أسلحتهم الأخرى... أما الذين فقدوا رماحهم، فكانوا يحملون سيوفاً ضخمة مرعبة، يبلغ طول أنصالها ثلاثين بوصة، ومقابضها مستديرة... لم يعد ميدان المعركة مغطىً بالطين فقط، بل يعج أيضاً بمياه الأمطار والدماء والسوائل ذات الروائح الكريهة الصادرة عن

إفرازات الأجسام والجثث....

إن الذين لم يخوضوا سابقاً معركة حقيقية، وعلى الأخص الشباب؛ سيجدون حكايات البطولة والحماسة تلك جذابة جداً. لكن الإنسان عندما يرى حياته على المحك، ويرى وجه الموت البارد، يدرك جيداً تكشيرة الحرب الحقيقية ومعاناتها بعيداً عن متعة الحكايات؛ لأن «المعرفة» مع الأسف علم سطحي بلا تبحر في معظم الأوقات، وهي ليست إلا شعوراً يصل إلى الإنسان بطرائق متعددة، وتختلف عن «الإدراك»؛ حيث يشعر الإنسان بمشاعر مختلفة داخله تذكر بصحوة الألوان اللامعة في رسومات الفرنسيين العتيقة. كان ألم الإدراك يجوب عروقي وأنا أتابع بيتر ماركزالي وجنوده الذين كانوا يحصدون جنودنا؛ كفلاح سعيد يتجول في حقله بسلاسةٍ. وبين حين وآخر، كان رجلٌ أو اثنان منهم يغرقون في ظلمة الموت... هكذا هي الحرب؛ اضطرار إلى التخلي عن أهدافٍ يرمي إليها الطرفان في المعركة، ونزول الرعب بكل أشكاله على الطرفين. والحرب هي مشاهدة القاتل والمقتول من دون أن تعلم من المحق منهما ومن المخطئ. والحرب شعورٌ بالعدم المخيف الذي يحل بعده الخراب، ويتساوى في إدراكه الغباء والذكاء... هذه هي الحرب.

كان الوقت قد حان لأتوجه نحو السلطان. كان تابعي قد جهّز لي حصاني مع شيء من العتاد والذخيرة والبارود في منطقة محاطة بالشجيرات على حافة المنحدر؛ في المكان الذي تعسكر فيه الكتيبة. هرعت مع رجالي إلى تلك النقطة، وامتطيت الحصان، وقلت للحراس الذين نظروا إليّ بدهشة «Dio vi benedica» أي يحفظكم الرب، وتوجهت بأقصى سرعةٍ نحو ميدان المعركة، ورميت في الطريق لباس الراهب الأسود والحزام، وبقيت بقميصي الأبيض وبنطالي القطني الضيق رغم برودة الجو والأمطار... كان جنودنا حين يرون الخاتم السلطاني

يتدلى من عنقي يدركون أنني قائد خاص، ويفسحون لي الطريق.

وقبل أن يمضي وقت طويل، بلغت تلة السلطان بعد الالتفاف حول المحيط الخارجي لدائرة الحصار. كنت أتوق إلى خوض المعركة إلى جانب السلطان سليمان خان، وبعد أن تسلمت قيادة القوات الخاصة من الإنكشاري ذي الرتبة الأعلى علمدار حسين آغا، وأصبح كل جنودي متجمعين، ارتديت السترة الواقية، وحملت الأسلحة الاحتياطية، وبدأت أبث الحماسة في نفوس جنود نسق الحماية الأخير قائلاً: «إن السلطان سليمان خان أحب إلينا من أنفسنا وعائلاتنا أيها الأبطال... هيا، رصوا الصفوف ولا تخافوا، فسنرى ما هو مقدر لنا، عاقبتنا هنا. ولا يمكن أن نرى بشارةً خيراً من أن نسقط شهداء تحت رجلي خليفتنا... اليوم يوم الشرف أيها الأسود! هيا يا أبطال، واستعينوا بالله». كنت أشم رائحة الخوف المقيتة التي يضفيها الموت على الأبدان. كنت أشعر بخوفهم من أصوات السيوف والصولجانات والبلطات عند اصطدامها بالدروع البالية، وكنت أشعر أنّ خوفهم ذاك يقضي على الإيمان بوجود مستقبلٍ أو حياةٍ... كنت أرى أعين جنود العدو الذين حطموا خطوطاً كنت أظنّها لا تعبر تتسع حدقاتها في يأس، من دون أن ينبسوا ببنت شفة، وهم يتقطعون إرباً مستميتين في الدفاع عن أنفسهم؛ إلا أن السواد الذي يقترب من الإنسان يوقظ فيه قوة إدراكٍ لمعنى حب الحياة التي أضاعها هباء.

كنت كأنني أستحم تحت مياه المطر الباردة المختلطة بالدماء الساخنة. أخذت بلطة حربٍ كانت على حصان اقترب مني والدم يسيل منه من جروح تسببت بها إحدى وأربعون طعنة رمحٍ، لا بد أنه كان حصان فارس مجري؛ يتضح ذلك من سرجه وكثرة تجهيزاته. أخذت البلطة في يدي اليمنى وألقيت بدرعي. كنت أحمل سيفي أيضاً في يدي اليسرى.

في هذه اللحظة، تذكرت النصيحة المعتادة المكتوبة على السيوف العثمانية: «أيها البطل المحارب، لا تثق بنفسك». كررت النصيحة التي

يجب أن يسجلها الإنسان في عقله كدستور كامل لحياته، وهمست: «الآن، لا مجد إلا مجدك يا الله، وحدك أنت وإرادتك. فأنا بعد الآن عدمٌ، بل كنت عدماً أيضاً...». كنت كأنني في مكان وزمان آخرين، أسير نحو عاقبتي من دون أن أشعر بآلام الحياة أو الضعف أو أي شيء. وانخرطت في ميدان المعركة بصيحة حرب مخيفة، لكنني لاحظت شيئاً لم يكن مهماً، ولكن كان له تأثيره الذي لا ينكر عليّ. وإذا كان قد أثر عليّ فلا بد أن يكون قد أثر على جنودي أيضاً... لم يكن جنود شميرينبرج يصيحون أو ينظرون يمنة ولا يسرة نظرات تهديدية، ولم يومئوا أي إيماءةٍ، بل كانوا كصيادين منفردين يتقدمون بلطفٍ باردٍ ومهلكٍ مستخدمين أسلحتهم... كانوا لا يهتمون بأصدقائهم الذين يسقطون صرعى إلى جانبهم، وكانوا يكافحون فقط حتى يصلوا إلى الهدف الذي يركزون عليه. ولم تكن الأمطار كافية لكي تغسل الدماء الموجودة على وجوههم وأبدانهم، وكان المشهد الأخير من هذا الجنون قد بدأ في تلك اللحظة.

رأيت محارباً لا تزال سترته تلمع يقترب مني ويقول: «لقد وصلتنا أخبار هؤلاء الفدائيين، أثابك الله يا أورخون». وعرفته عندما نظر إلي بعينيه المائلتين إلى الخضرة من تحت خوذته المشغولة بالألماس ذات الريشات الثلاث، إنه السلطان سليمان خان، فصحت قائلاً: «يا مولاي، كيف تسللتم من خيمتكم ومن بين عساكركم الخاصين الذين لا يبرحون مكانهم؟ من فضلكم تراجعوا، ولا تبتعدوا عن جنود الحماية. انظروا، إن رئيسهم يبحث عن سموكم!». شعرت بأنني أحترق من الصاعقة التي خرجت من عينيه في تلك اللحظة. وعندما تحدث مجدداً، أحزنتني نبرة الحزن الواضحة في صوته، فقد ربّت على كتفي وقال:

- أورخون جلبي، انظر هل تعتقد أن الأبطال لا ينتظرون أحداً؟! فأنا من أحضرهم إلى هنا أساساً، وأنا مسؤول عنكم أجمعين؛ وهي مسؤولية كبيرةٌ لا تستوجب الفرار، بل تستوجب الصمود، وتستوجب الهجوم على

العدو. وإذا كان هؤلاء الفدائيون المجريون سيقتلونني، فليقتلوا رجلاً شجاعاً لا رجلاً جباناً.

- لا سمح الله يا مولاي، وعليّ أن أشكر الله ما دام قد أنعم علي بنعمة القتال معك كتفاً إلى كتف. أعاننا الله.

تباطأت سرعة الفدائيين المرعبة، إلا أن قائدهم بيتر ماركزالي ومعه خمسة من الجنود الخاصين الذين يرتفعون وكأنهم جدران أثرية؛ نجحوا في القضاء على آخر خط، ووصلوا إلينا. وقد أصبت بسهمٍ من سهامهم في ساقي اليمنى، ودخل سهمٌ آخر تحت الجانب الأيسر من معدتي بالرغم من أنه اصطدم بسترتي الواقية. لكنني لم أشعر به وقتها؛ لأن الجرح لم يكن شديد العمق، فقد قامت السترة بواجبها، إلا أن مسافة الرمي كانت قريبة جداً. شعرت وكأن الخوف في هذه اللحظة قد ملأ الدم الذي في عروقي بقطع من الثلج؛ لأنني كنت أخاف أن أستدير لأنظر إلى السلطان سليمان خان؛ فإن كان قد أصيب، فأنا لم أصن أمانتي العظيمة، فكيف لي أن أسامح نفسي؟ لكن صوت دنيئا لا يعرف معنى إجلال اللحظة التي أعيشها همس قائلاً: «هل كان والده يتوقع وهو يقتل والدك أن حياة ابنه ستكون بين يديك في يوم من الأيام يا ترى؟!». لكنني استدرت ونظرت إلى السلطان الذي قال وقد أدرك نظرة القلق في عيني: «أنا بخير، أصابتني ثلاثة أسهم، لكنها لم تخترق سترتي». لم يستخدم العدو الأسهم حتى قضى على الخط الأخير. وهم يستخدمونها الآن بمهارةٍ فائقةٍ بهدف توجيه ضربتهم القاضية. كان كلّ واحدٍ من الفرسان مصاباً، أو لم يكن حصانه في وضع يسمح له بالتقدم أكثر. لقد كسر هؤلاء الفرسان الخمسة أقواسهم بعد أن شتتوا جنود الحماية الخاصة بنا، والذين سقط معظمهم شهداء، وأطلقوا جيادهم نحونا مشهرين سيوفهم... كنت بجانب السلطان، لكنني تقدمت أمامه في هول اللحظة، والتقطت حربة من الأرض، ونجحت في رشقها في رقبة أول حصان بالرغم من أنه كان

مدرعاً. وكنت محظوظاً لأنها كانت حربة يستخدمها فرسان الأناضول؛ وهي رفيعة وسهلة الاستخدام.

لم يتوقف الحصان لتوه، وتقدم بجسمه الكبير المحمل بالعتاد، لكن قوائمه بدأت تتعثر، وانحرف اتجاهه بعيداً عنا. عرفت أنه ماركزالي، وكان الحصان الذي يسقط صريعاً يقدم لي كنزاً ثميناً لا يقدر بثمن. إلا أن أحد الفدائيين الآخرين أدرك ما أرمي إليه فحاول قطع طريقي، وحاول ضربي على رأسي بالصولجان، لكنْ لم أكن أنا أو هو أو الحصان على أرضية متزنةٍ، فرفعت بلطتي ونزلت بها على ساق الرجل فوق فخذه، وكنت موفقاً بإصابته. وقد اتضح من الدماء التي سالت منه، وصرخات الألم التي صدرت عنه أنه وإن عاش فلن يجدي نفعاً. لكن طرف صولجانه جرح رأسي بالرغم من انحنائي في الوقت المناسب. وكان البرق قد أنار أمام عيني في تلك اللحظة، ورأيت آخر قد ترجل عن حصانه، وجرى نحو السلطان، فرميته بالبلطة التي كانت في يدي بكل قوتي، لكن طرفها غير الحاد كسر كتف الجندي، وكان ذلك أفضل من لا شيء، وتعثر الرجل بسبب كثرة الجثث على الأرض، وسقط على الوحل، فهرعت إليه، وأجهزت عليه قبل أن يستجمع قوته وينهض، وأنا غير عابئ بالبرق الذي أثارته الضربة في رأسي.

نظرت إلى السلطان سليمان خان، وفزعت عندما لم أجده بجواري، لكنني رأيته قبل أن يجتمع جنود الحراسة الخاصة. كان في المكان الذي وقع فيه حصان ماركزالي، يقف عند رأسه، ويطعنه في صدره عدة طعنات. تعرض السلطان لهجوم بائس جديد، لكنه اتقاه بحركةٍ سريعةٍ ماهرةٍ، ثم دار على أطراف أصابعه، ونزل بسيفه بفضل الدروس التي تعلمها من أفضل مدربي العالم على قفا الرجل بضربة على شكل قوس.

أما الآخر، فقد أجهز عليه جنود الحماية الخاصة قبل أن أراه... كانت الكلمات عاجزةً عن التعبير عن السعادة والفخر اللذين شعرت

بهما في هذه اللحظة؛ فالسلطان يستخدم السيف برشاقة، وكأنه قد جاء من مكان خارج كل هذا الخراب والدماء المحيطين بنا. وبالرغم من أنه لم يدخل معركة مباشرة من قبل، إلا أن القوة التي منحه إياها إحساسه بالمسؤولية تجاه رجاله قد مكنته من تحقيق النجاح، واكتسب لقب «المعظم» في أعين جنوده بجدارة.

* * *

عندما نجوت أنا والسلطان من تلك الفوضى، لاحظت أن الطرف الوحيد المفتوح في دائرة حصار الجيش التركي هو الطرف الممتد على طول الماء. وكان الجيش المجري بكامل وحداته قد تجمع حول الملك، متقدماً نحونا مهاجماً... إلا أن الرعب الذي بدا على وجوه الرجال، والإرادة والقوة اللتين تفوقان الطاقة البشرية واللتين أظهروهما خلال الحرب كانت دليلاً بالنسبة لي على أن بعض الغموض الموجود في تلك المنطقة يحبط من معنوياتهم.

إلا أن عدداً كبيراً من جنود المجر كانوا يحاولون جاهدين أن يتخذوا موقعاً متقدماً يحول بينهم وبين الوقوع في الماء... غير أن هجوم الوحدات التي كانت تحت إمرة والي إسطنبول بهرام باشا الشديد أجبر الصف الأول من جنود المجر على ترك الأسلحة وطلب الأمان... كانت الأجواء تظلم تدريجياً في تلك اللحظة، والخوف المتسلط على الجنود المساكين الموجودين في الصف الأول وحول الملك لاجوس يبدو وكأنه فم نهمٌ فاغرٌ يلتهمهم بشهية.

في ذلك الحين، كان إبراهيم باشا على رأس جنود روم إيلي، يقوم بعملية إبادةٍ من دون أن يرف له جفنٌ. توقعت أن يتدخل السلطان سليمان خان للحؤول دون ذلك، لكنه وقف طويلاً من دون أن ينبس ببنت شفةٍ، واضطر الجيش المجري الذي كان يحاول التوازن الانسحاب من ذاك المكان.

لقد توجب على كل واحد أن يستخدم أكثر من سيفٍ، وسقط في الأسر ما يقارب عشرين ألفاً، وتقدم الملك لاجوس ووحدة الحماية الخاصة بجواره إلى المياه الضحلة أولاً، ورأيناه يحاول التخلص من سترته وكل عتاده الثقيل، لكن حصانه كان ثقيلا جداً رغم ذلك، غير أنه فعل كل ما يستطيع فعله حتى نجح في الوصول مع حاميته القليلة إلى الطرف الثاني من المياه الضحلة... كنت أعرف أن السلطان سليمان خان يدرك أن الملك المهزوم إذا استطاع أن يصل إلى الضفة المقابلة فسيذهب إلى بودين ويستعين بقواته هناك، غير أنه حال دون تعقبه خوفه من أن يلقي بجنوده إلى التهلكة، فاكتفى بمتابعة الوضع برهةً.

انتظر لاجوس ومن في صحبته في المياه الضحلة لمدة قصيرة، ورأيت أن بال توموري لا يزال سالماً ويقف بجوار الملك، فأمر السلطان بإطلاق نداء يدعو فيه الملك للاستسلام، لكنه لم يلق من لاجوس الذي انكسرت كبرياؤه أذناً صاغيةً، فما كان منه إلا أن انتزع سترته، وخاض في الماء مع جنوده... كنا ندرك أنه ضرب من الجنون، وغالباً كان لاجوس نفسه يدرك ذلك.

كانت الأمطار التي تهطل بغزارة، والطين ذو الرائحة الكريهة سيمنعان عبورهم اليائس. وتحت أنظارنا، نجح لاجوس بشكل ما في السباحة إلى الضفة الأخرى متمسكاً بشعر جواده. لكن الضفة المائلة الموحلة لم تكن تعطي الفرصة لتقدم الجواد الخائر. كان الجواد يحاول، لكنه لم ينجح لنفاد قوته، وكان من الصعب أن يجد الملك مكانا يتشبث به وسط هذا الوحل المحيط به، فكان كل ما بإمكانه فعله هو التمسك بشعر الحصان... لكن الحصان المنهك انحدر تحت الملك، ووقعا معاً في الماء في صراع مع الموت... لقد رأينا لاجوس وهو ينظر خلفه بعينين يائستين، ويتابع اختفاء رجاله جميعاً في الماء بلا مبالاة. وكان توموري الذي يسير خلفه، يشير إلى ملكه أن يواصل التقدم؛ وذلك قبل أن يغرق.

لكن جسد لاجوس النحيف كان قد غرز في الطين بكامله، ووصلت المياه إلى عنقه، وبدت على الضفة الأخرى قوة عسكرية لمواجهة الهاربين، فأشار إليهم السلطان سليمان خان لإنقاذ الملك... ولاحظت أن حاكم العالم يحاول أن يخفي ارتجاف صوته ويديه.

كان من الواضح أن غرق بطلٍ شابٍّ كهذا يؤثر فيه... حاول جنود القوة العسكرية على الضفة الأخرى التقدم لمحاولة إنقاذ الملك، لكن قوائم جيادهم انغرزت بعد بضع خطوات حتى الركب في الطين. حاولوا أن يرموا له حبلاً من بعيد، لكن الوقت كان قد تأخر. وقبل أن يغرق الملك الشاب، أدار رأسه نحو الخلف، ونظر إلى السماء السوداء مباشرة في صمتٍ، ورأيت عيني السلطان سليمان خان لا تفارقان موضع الغرق لمدة طويلة محاولاً أن يخفي دموعه.

IV

ستصبح حرب موهاج الميدانية من أكبر حروب الإبادة في التاريخ. تمّ التحقق من النتيجة في الساعة الأولى، ووصلت الرسالة المرجوة إلى شارلكان بعد أن قتل معظم جيش المجر بالسيف أو غرقاً في الوحل. وبعد هذه المعركة، عرف أن المؤشر في علاقات العثمانيين مع هابسبيرغ سيكون دائماً لصالح العثمانيين، وانهارت دولة المجر القديمة التي ناهز عمرها 657 عاماً، وأصبحت الدولة العثمانية رسمياً من دول أوروبا الوسطى. وبدأ عهد الكوابيس لشارلكان وأخيه أرشيدوق فيرديناند بعد أن امتدت حدود الدولة العثمانية لتصل إلى الحدود الألمانية...

جمع السلطان سليمان خان قادته عقب الحرب مباشرة، وأمرهم بالزحف من دون توقف إلى عمق النمسا، وصدرت الأوامر للجيش بغزو كل ما يقابلهم في الطريق، على أن يحافظوا على سلامة الفقراء الموجودين في القرى والمراكز. ولم يكن أمام شارلكان إلا الاعتراف بنفوذنا أو التعرض له... وأسعد هذا الوضع الجيش كثيراً، وأنسى الجنود تعبهم وما فقدوه... ولكن، قبل كل شيء؛ كانت الجنازات ستقام عند الطرفين.

كان هناك بضعة آلاف من الجرحى في الجيش العثماني؛ معظمهم من الحرس الخاص، وخمسمئة شهيد في أرض المعركة، ولم يهلك أحد منا في ذلك الوحل المشؤوم. وأمر السلطان سليمان خان وحداته بعدم ترك أماكنهم حتى منتصف الليل، وخرج في جولة قصيرة في الجوار. كنت أعرف أنه لا يسعد بموت البشر، وتحل عليه غمامة الحزن التي تفسد عليه بهجة النصر؛ وغالباً هو في تلك الحالة الآن.

عاد السلطان إلى سرادقه في المعسكر قبل منتصف الليل بوقت قليل، وجلس صامتاً تحت أنوار القناديل ذات القوائم البرونزية التي تنار بزيت العنبر الذي تفوح رائحته الزكية في المكان. وكان هو أيضاً يطبق التعليمات التي أصدرها لجنوده، فلم يخلع سترته الواقية، واكتفى بالاغتسال وصلى. استأذنت بالدخول، ورأيت رجل العالم يجلس صامتاً بالرغم من وجود باقي الباشاوات والسادة حوله.

هنأوني جميعاً لأنني تفانيت في حماية السلطان. وكان السلطان قد أخبرهم بذلك على الأرجح، وتقبلت منهم التهاني بلطف، وذهبت إلى أحد الأركان وبدأت الانتظار وأنا نصف نائم ونصف مستيقظ. وبعد فترة قصيرة، سمعت صوت أبواق التجمع، وتم نصب الخيم بعد أن أمر الجنود بالاستراحة. وبدأ صنع الطعام في أوان ضخمة. وكان رعاة الخيم يعزفون المارشات، ويشاركون الجنود المنتصرين سعادتهم.

تناول السلطان طعامه وسط الجنود في ساعات متأخرة من الليل، وتشاور لفترة مع القادة بخصوص الحرب. وقبل أذان الفجر بساعتين، ذهب كل القادة إلى خيمهم لكي يستريحوا ويستعدوا للصلاة. واستدعيت وإبراهيم باشا إلى سرادق السلطان قبل الصلاة بنصف ساعة. كان السلطان قد اغتسل ولبس قفطاناً أرجوانياً بلون جدران سرادقه، وكان يشرب مشروباً ساخناً مصنوعاً من نباتات شافية في كوب واسع مصنوع من الزجاج البلوري الفينيسي، وقدم لنا خدمه الذين كانوا يتجولون في المكان كالظل المشروب نفسه باحترام، وبدأ صوت المطر ينزل خفيفاً على نوافذ السرادق، والرياح تعزف أنغاماً محملة بالذكريات.

قال السلطان وهو ينهض ببطء: «مررت بإحدى القرى الواقعة خارج مركز موهاج». ونظر إلى وجهينا واستطرد: «فقابلني الأهالي بالورود عند مدخل القرية، إلا أن مزارعاً عجوزاً خرج من وسط الزحام، ورمى الورود من يده ووطئها بقدميه. هل دهشت؟! هل حزنت؟!». وحرّك رأسه إلى

الجانبين نافياً بهدوء وتابع: «لا، لكن الجنود كانوا قد أمسكوا بالعجوز، فسألته: لم فعلت ذلك؟ فقال المزارع برجولة: نحن قرويون فقراء، وقد مر بعض الجنود في حقولنا التي زرعناها حديثاً وقضوا عليها. فإما أن تدفع المقابل أو أشكوك.

عجبت من أسلوب الرجل الشجاع وسألته ضاحكاً: إلى من ستشكوني؟ فأجابني قائلا: هناك من يطلقون عليه اسم سليمان العظيم هنا، ويطلقون عليه في بلده اسم قانوني... يجب عليك أن تلتزم بالقوانين هنا وكأنك في بلدك أو سأشكوك إليه. كان الرجل محقاً، ووعدته بتعويضه عن كل الأضرار التي لحقت به». فالتفت أنا وإبراهيم باشا وابتسمنا ابتسامات دافئة لأول مرة وكأن صداقة حقيقية تجمعنا. ثم تنهد السلطان سليمان خان وقال: «نعم أيها الملك لاجوس»، واستطرد بجرحٍ أعلم أنه ينزف داخله: «لم ينجك الملك، ولا ثقتك الكبيرة بنفسك؛ وهذه حال الدنيا، إذ يهلك كل من لا يعرف حدوده أو يقنع بما لديه». ثم استطرد بذكر أبيات من شعر يونس امره، يتحدث فيها عن قلبه التواق إلى شيء ما في هذه الدنيا، وكأنه يحصد حصاد السماء للأبطال الذين ماتوا... ثم تلا علينا إحدى قصائده التي نظمها حديثاً...

* * *

عقب دفن شهداء الجيش، وإتمام المراسم في 23 ذي القعدة 932هـ، ودعهم السلطان سليمان خان العظيم، وأعطى إذناً للجنود بالاستراحة لمدة يومين كاملين، وقدم الهدايا، وأمر بعلاج الجرحى، ومدت موائد الطعام الضخمة. وصحا الجو، وسيطر على صحراء موهاج جو خريفي جميل. وأرسلت رسائل النصر إلى أدرنة وإسطنبول وبورصة ودياربكر والشام وحلب ومصر وأفلاق وبوغدان. وكتب السلطان سليمان خان بنفسه خطاباً يبشر فيه والدته حفصة بالنصر.

وبدأ الجيش السلطاني تحركه يوم 3 أيلول على الضفة الغربية لنهر

تونا متجهاً نحو الشمال عقب صلاة الفجر. كانت الوجهة هذه المرة بودين. كان الجو صاحياً طوال الطريق. وفي يوم 11 أيلول، قابل السلطان وجيشه مجموعة من رجال الدين اليهود على رأسهم حاخام عجوز بالقرب من مدينة فولوورد. ووفقاً لما ذكروه، كانت ماريا فون هابسبيرغ أخت شارلكان قد تركت هي وعلية القوم والعائلات الكبيرة مدينة بودين.

وبذلك، أصبح السلطان سليمان خان حاكم المدينة، وصار سكانها تحت كنف عدالته المشهورة، وتم تقديم مفاتيح مدينة بشته التي تقع على الطرف المقابل من نهر تونا إلى السلطان في الصباح التالي في مراسم جميلة. لكن المدينة لم تسلم من النهب. وفي اليوم السادس عشر، جاء أردل فويفوداسي مع جيشه وأقسموا على الولاء للسلطان، وأعلن ملكاً على المجر كما أراد. ثم بدأنا رحلة العودة في 24 أيلول.

في الطريق، كان يجب الاستيلاء على بعض القلاع لتأمين بودين، فتم إسقاط قلعتي ساجادين وباتش على التوالي بعد هجوم قوي على كل منهما. كما تم الاستيلاء على قلعة باتشنه بعد مقاومة عنيدة استمرت أربعة أيام وفقد فيها الكثير من الجنود... كنت أعلم أن السلطان سليمان خان قد سئم من الفتوحات الأخيرة التي فقد فيها الكثيرين. وجاء في الخامس والعشرين من تشرين الأول الخبر الذي أضجره أكثر. فقد اتحد تأثير الدعاية الصفوية مع ظلم الضرائب المفروضة، فبدأ رجل تركماني اسمه بابا ذو النون تمرداً كبيراً، وهاجم منزل مصطفى بك حاكم بوزوك-يوزجات. وتعاظم خطر هذا التركماني ذي الشعر الأحمر بعد أن دق عنق مصلح الدين أفندي قاضي بوزوك.

غضب السلطان سليمان خان جداً من هذا الوضع، وأرسل بهرام باشا والي الأناضول في الحال إلى هناك ليخمد هذا التمرد. وقبل أن يدخل بهرام باشا الأناضول، زحفت القوات المؤلفة من فرقه الاستطلاعية وحكام قارامان وقيصري وإيجل إلى بابا ذو النون. لكن بابا ذو النون

والتابعين له تقهقروا إلى كورشـونلو بوغـاز القريبة من قيصـري، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالوحدات الاسـتطلاعية، فانتشـر التمرد في مسـاحات كبيرة بين إيجل وتوقاط.

كان السـلطان سـليمان خان يفكر دائماً في هذه التمردات الداخلية، وكان يبدو أنه سـيفكر فيها لمدة أكثر طولاً. فقد كان ميل سكان الأناضول للصفويين وليس للإدارة العثمانية أمراً مزعجاً. وحـاول أن يقوم بتغييرات كثيرة في أولى سـنوات توليه السـلطة، لكنـه كان يشـعر دائماً بـأن إداريي تلـك المناطـق يفجـرون الأوضاع الحساسـة عن عمـد. فكان من السـهل إلقاء اللوم على الشيعة، وبالتالي على الصفويين، واتهام الأهالي التركمان بالجحود. لكـن، كان من الصعب تحليل المسـألة بعمق والتسـاؤل بجدية عن حالة السـخط التي لا تهدأ. وكان السـلطان سـليمان خان يقول دائماً: «تنجز العدالة ما لا ينجزه السـيف». وكنت واثقاً أنـه في كل خطواته الآتية لن يترك هذا المبدأ السامي، وأنه سيتغلب على كل المشكلات.

V

كانون الأول 1526، إسطنبول

عاد السلطان سليمان خان إلى إسطنبول بعد فتوحاته التي استمرت ستة أشهر وعشرين يوماً وهو يحمل لقب فاتح المجر. وكان يتلكأ في الطريق بانتظار خبر نهاية تمرد بابا ذو النون. وتمّ إخماد التمرد على يد بيري بك والي أضنه في منطقة هويوكلو، وتم إعدام بابا ذو النون وعصابته. كان عبد السلام شلبي مسؤول المالية يقول وهو جالس على أريكته تحت سماء الليل: «يا مولاي، عندي شكوك عميقة حول مظالم يقوم بها الكتاب». كان يرتشف مشروباً ساخناً مصنوعاً من الموالح، ويلعق شفتيه باستمتاع لأنه لم يشرب مثله من قبل. «بعض التجار يتعاونون مع الجنود بالرغم من أن دخولهم التجارة ممنوع، ويبيعون القمح الذي أخذوه من الشعب - ويخزنونه في مخازن الموانئ التي استولوا عليها من الأجانب بالإكراه - إلى الفينيسيين بأسعار باهظة. وعندما بدأت مجاعة القمح هذه المرة، اضطر القرويون لشراء القمح الذي باعه التجار بسعر أعلى من التسعيرة بما يقابل ضعف ثمنه، ممّا تسبب في المجاعة، وارتفاع الأسعار بشكل مبالغ فيه. كنتم قد أمرتم بعد حملة رودوس بتجديد رخصات الأراضي لكي تكون مصدراً جديداً وإضافياً لإيرادات الخزانة، وكان ذلك في عهد مسؤول المالية سنان باشا، لكن نتيجته كانت أن بعض كتاب الأراضي لا يخجلون من تسجيل أرض مساحتها هكتار واحد على أن مساحتها هكتاران، وبهذا تزداد الضرائب التي يأخذونها إلى الضعف، كما أنهم يتشاركون العوائد بلا خجل. والأسوأ من ذلك كله يا مولاي هو الإهانات التي يتعرض لها المتقدمون

بشكاوى لتصحيح هذا الوضع...». وظهر كبير الخدم الأخرس جعفر أفندي بلباسه الأحمر كالعادة، وأخبرنا أن الصدر الأعظم السابق بيري باشا قد جاء في زيارة كعادته.

دخل إبراهيم باشا في هذه الأثناء المجلس، ولأن الخلاف الذي كان بينه وبين بيري باشا قد زال، فاجتماع الديوان سيكون لطيفاً ووديّاً. قال عبد السلام جلبي محاولاً أن ينهي كلامه: «إن بابا ذو النون واحد ممن حاولوا دخول تلك اللعبة يا مولاي، فعندما تمّ قياس أراضيه مرة أخرى، صغرت الأراضي على أيدي الكتبة؛ ووجود الشرفاء في تلك المنطقة أدى إلى ذلك التمرد. فلم يكن القرويون يشبعون بسبب ألاعيب الإداريين، وبسبب انخفاض التسعيرة، ولم يبقَ أمامهم حلّ سوى التحول إلى مهاجمة المزارع، وأعمال السلب والنهب.. والأراضي التي تركها القرويون الآن أصبحت مرعى لحيوانات قطاع الطرق. ويشاركهم فيها من ليس لهم عمل، وتزداد المخالفات في الوطن لدرجة أنها تصل إلى استخدام طلاب الكتاتيب؛ وهو أمر يجب مناقشته باستفاضة».

بينما كان السلطان سليمان خان يستمع بتركيز، استأذن بيري باشا ودخل المجلس، فقابله واقفاً واحتضنه: «تفضل يا بيري باشا لترى الأعباء التي لا زلنا نتعرض لها». فقال بيري باشا: «يا الله! ومتى رأت هذه الدولة الرفاهية التي تراها في عهدكم يا مولاي؟!». هل كان في هذا الكلام كناية من نوع ما؟ نظرت إلى البرغالي لكي أفهم إذا كان يفكر مثلي أم لا، لكنه كان يجلس هادئاً مبتسماً كعادته وكأن بشرته السمراء قد احمرّت قليلاً وأصبحت ضاربة إلى الرمادي. فمد الصدر الأعظم رقبته وضحك قائلاً: «أنت محق يا بيري باشا، فقد توج سلطاننا أحدهم ملكاً ثم عاد إلى الوطن. وأصبح حاكماً سابقاً لعصره، وسلطان كل السلاطين». وتذكرنا جميعاً بمن فينا الملك جوناس زابوليا وهو يغرق في دمه وضحكنا.

قال السلطان: «ولهذا، إن هدفنا الآن هو القيام بخطوات هائلةٍ

لإصلاح حالة الدولة الاقتصادية المتردية؛ خطواتٍ هائلة لدرجة أنني لا أدري كيف أعبر عنها أيها الأصدقاء؟». وفي هذه اللحظة، حدث ما لم يكن أحد يتوقعه.

فقد ارتمت حرّم وكأنها قذيفة مدفع وسط مجلس الديوان، فكنا جميعاً كمن ابتلع لسانه من شدة الدهشة. كانت خلفها حاشية ضخمة تتكون من النديمات والحريم، إلا أنها بدت كسيدة شابة أصابها الجنون، إذ لم تستمع إلى أحد. نهض السلطان وقال: «أي عبث هذا؟». ونهضنا معه، وانقطعت كل الأصوات في الداخل فجأة، وكان المسموع هو صوت لهاثها فقط.

قالت السيدة الشابة ودموعها تنهمر: «لقد حاولوا قتلي وقتل ولديّ محمد ومهريماه». كانت ترتدي ملابس رمادية، وتعتمر قبعة أرجوانية داكنة فوقها ريشة. وكان شعرها الأحمر يبدو كموجات من النار، وكنا كأننا في حلم يقظة. اقترب منها زوجها السلطان وسألها: «من؟». وأمسك حرّم من كتفيها ونظر إلى عينيها متسائلاً بصوت هادئ: «من يجرؤ على أن يضرّك يا حرّم؟». فساد صمت رهيب عقب هذا السؤال. فأفصحت فجأة بصوت يشبه العاصفة الدوارة التي تمزق عنان السماء عن الفاعل برأيها، فيما كان صوت السلطان سليمان خان قلقاً وضجراً بوضوح هذه المرة. نظرت حرّم إلى وجوهنا واحداً واحداً، وقالت بتعبير حاد فيما شعّ الغضب من عينيها الزرقاوين اللتين اتّسعتا: «ومن يمكن أن يكون غيره؟». وأشارت إلى إبراهيم. فأغمض السلطان عينيه ثم فتحهما وأخذ نفساً عميقاً، وقال بطريقة تشير إلى صعوبة تحكمه بصبره: «عودي إلى غرفتك فوراً». فهمست حرّم بصوت لا يزال هادئاً لكنه كسحابة مليئة بالمطر: «أنتم لا تصدقونني...». واستطردت بصوت حزين: «لا تصدقونني لكنكم تصدقون كل ما يقوله...». «من فضلك يا حرّم لا تفعلي هذا الآن...». كانت السيدة الشابة متزنة وقالت: «فلتأمروا أطباءكم بفحص

كوبي... فلتجعلوهـم يفحصون أواني الطعام والشـراب الخاصة بأولادكم لتعرفوا...». «مـا معنى هذا كلـه يا حرّم؟». فأشـارت إلـى إبراهيم وقالت صائحة: «إنـه يريد أن يسـممنا جميعاً». وحـان الآن دوري، فقلت بشـكل حاد لا يتماشـى مع هدوئي المعتاد: «يا مولاي، لقد رأيت إبراهيم باشا في وقت متأخر مـن الليلة الماضية، كمـا رأيت مجموعة من التتار يعسـكرون قريبـاً من قصره وأمـرت بإحضارهـم. وكان أحدهـم يحمل سـموماً كثيرة على شـكل بودرة أو سـائل، واعترف أنـه يبيعها وما يشـبهها إلـى إبراهيم باشـا منذ سـنوات». نهض إبراهيم باشـا وقال: «مولاي!». كانت الدهشـة تبدو واضحة على وجهه الأسمر الوسيم: «أنا لا أعلم شيئاً عن هذا». لكنه صمت عندما نظر إليه السلطان بنظرته التي تطلق ناراً.

كان أصدقائي الجواسـيس المقربون من رئيس اتحـاد قوارب الصيد على علاقـة بجواسـيس القـرم؛ وقـد أمسـكوا بالتتري فـي أثنـاء عمليات التهريب التي كانـت تمر عبر ميناء ينـي كابي، وأخبروني بذلـك منذ الأيام الأولى.

كان التتري الذي ضبطت معه كمية من المخدرات من زهرة اللوتس قد اعترف فـوراً أن لديـه الكثير مـن العملاء في إسـطنبول وعلى رأسـهم إبراهيم باشـا. وكنت أحتفظ به كورقـة رابحة هامة منذ ثلاث سـنين. كنت أخطط مع حرّم لتوريط إبراهيم فـي المكيدة التي نصبها هـو، وكنا نحتفظ بهذه المعلومات وأولئك الشـهود منذ فترة طويلة. وكانت أدلتنا ستؤثر في قرار السلطان سـليمان خان بسـبب حبه الشـديد لحرّم؛ لدرجة أن إبراهيم كان سـيدفع ثمنـاً باهظاً بسـبب الخطـوات الجريئـة التي خطاهـا ضدنا أنا وهي.

لكن، لو حدث غير ما أتوقعه، فلن أسـتطيع أن أنجو بنفسـي من هذا الأمر مطلقاً. وشـعرت بندمٍ مصحوبٍ بالدهشـة في داخلي لم أشـعر بهما قط فـي حياتي. فقد كنت منغمسـاً في أمرٍ كبيـرٍ هذه المـرة، وإن لزم الأمر

فإلى متى ستتمكن حرّم من الدفاع عني؟!

وفي هذه الآونة، دخل سليمان أفندي ورمضان جلبي وبعض أفراد الحماية الخاصة إلى حضرة السلطان. فقلت وأنا أحاول أن أدفع بذكائي إلى أقصى درجاته:

- مولاي، هذا التتري الفقير هو أحد المسؤولين عن تجارة تهريب الأشخاص إلى داخل الوطن، وهو من باع السم إلى إبراهيم باشا.

فأجاب إبراهيم: «أنا لا أعرف هذا الرجل، ولا يوجد عندي سم أو ما شابه... فالسم يا مولاي لا يوجد إلا عند طبيب القصر».

فقلت: «لديه نوع خاص من السم، لكنه كان سيظهر كما لو أنه سرق من خزانة الطبيب صنع الله أفندي. وكان قد مهد للأمر حتى تقع المسؤولية علي أنا ورجالي بسرقة شيء خطر كهذا، وعرض رشوة كبيرة على الرجال الذين أثق بهم كثيراً، ومنهم عمر فهمي وأرطغرول أفندي لكي يشهدوا ضدي».

فصاح إبراهيم برعب واضح: «لا يا مولاي، إن هذه مكيدة. أنا أسقط في مكيدة الكلب وهيمي هذا. من فضلكم لا تسمحوا بهذا يا سلطاني...».

فاستطردت من دون أن أتخلى عن هدوئي: «سوف يدعي شراكتي مع السيدة حرّم في التخطيط لذلك، وسيحاول أن يقنع سموكم أنكم تطعنون في ظهركم من أقرب الناس إليكم».

- «سأحاسبك على ما تفعله يا وهيمي». كانت عيناه حمراوين كالدم بكل ما للكلمة من معنى، وتحول لون وجهه إلى لون التراب.

تبسمت بخفة مقتنعاً أنني ألعب دوري بمهارة كالمعتاد وقلت: «لكن هناك تفصيلاً صغيراً لا يعرفه أحد يظهر هنا. فقد غير التتري اعترافه في أثناء التعذيب، واعترف أن السلطانة ماهي دوران هي من رتبت كل ذلك».

وأمرت التتري أن يتحدث.

فاستطاع الرجل بصعوبة أن يقول: «نعم». بعد أن أصبح لا يرى الجلادين أمامه، ولا يسيل الدم من وجهه وشفتيه.

فضحك السلطان سليمان خان بألم، وقال: «إنها ماهي دوران إذاً. وفي هذه الحالة، يجب أن تكون وإبراهيم شريكين، ما دام إبراهيم قد عرض رشوة على رجالك».

فسبقتني حرّم قائلة: «لقد كان يحقد عليّ وعلى أبنائي منذ مدة طويلة». وأضافت وكأنها لا تعلم شيئاً: «لم يستطع أن يتقبل كوني زوجتكم... وفي النهاية، دبر ذلك ضدي أنا وأولادكم».

سيطر على المجلس جو من الغموض والسكون في ذلك الوقت. كنا ننتظر الحكم الذي سيصدر من بين شفتي السلطان اللتين ارتسمت عليهما ابتسامة مصحوبة بالألم. فقال بصوت هادئ:

- هيا، فليذهب كل إلى عمله. استقبلوا بيري باشا بأفضل شكل ممكن فهو ضيفي على العشاء. لا أريد أن أفقد سعادتي بعد انتصارنا العظيم. افعلوا كل ما تريدونه، لكن لا تنسوا أن روحي وأرواح أولادي ملك لله وأمانة عنده. فلتتذكروا هذا جيداً وأنتم تحفرون القبور لبعضكم وبالتالي لي أيضاً. أعلم أنه ليس بينكم بريء. أنتم تحاولون أن تخنقوا بعضكم بعضاً من أجل الحصول على السلطة لبضعة أيام في هذه الدنيا الفانية. لكنني أريدكم أن تفكروا: هل كنتم تستطيعون أن تلعبوا هذه الألاعيب لو كان والدي حياً؟ كلمتي الأخيرة هي: لا تجبروني على اتخاذ تدابير متشددة مثل والدي، ولا تجعلوني ضحية لرحمتي، لا تفعلوا هذا...».

الكلمة الأخيرة
(السلطان سليمان خان)

أتقدم متأرجحاً وأنا أسير فوق خيط رفيع يمتد بين حلم وآخر من أحلامي. تكبر الاحتمالات في ذاتي، وتعرض ذكريات تخص وجوهاً وأقوالاً قديمة داخلي؛ مشهداً مشهداً. وأحمد الله لأنني قادر على كبح ألم وحدتي الموجودة خلف هذه الجدران العملاقة المنسوجة من ألف خيانة وألعوبة في مثل هذه الأوقات. لكنها الحقيقة أيضاً، إنني لم أطلب هذه الوحدة بل أكرهت عليها.

كلما ازدادت قوتي، لم تسمع أذناي شيئاً غير غمغمة الضباع المتعالية ممن حولي، تصاحبها خطوط وجهي في إطار المرآة القديم، تزداد شيئاً فشيئاً. لكن، بالرغم من أن الذئاب يريدون أن يقطعوني إرباً إرباً وأنا حي، فأنا أشعر أنني أسمو متمسكاً بالاحتمال السعيد الذي يكبر داخلي، وأقول لنفسي: «ما دمت مكرهاً على الحياة فهذه هي. يجب علي أن أكون شخصاً يستطيع التأقلم بوعي مع التنافر الذي تولده الحياة؛ تماماً مثل أسطورة سيزيف».

أمامي جبل عظيم، وأنا مجبر على أن أرفع صخرة كبيرة إلى قمته. والأسوأ من ذلك، أن الصخرة لا تستقر على قمته، بل تسقط في كل مرة إلى الأسفل ويجب عليّ أن أتحمل ذلك. إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يتوجب عليّ أن أكافح للصعود إلى القمة ويداي ملطختان بالدماء وظهري مغطى بالعرق؟ كيف لي أن أتأقلم مع هذا الصراع الذي لا يعرف نهاية؟ أما الجواب، فكان في أعماق وعيي، بما أنني استطعت أن أدرك أن الحياة الدنيا مكان صراع قصير ومؤقت لأقصى درجة، فأنا أشعر في أعماق

قلبي بتفاهة هذا الصراع، وأحمل الضغينة ضده. وهذا هو سبب الابتسامة المرتسمة على شفتي، والتي تركها صراع من حولي الذين يكادون يخنقون بعضهم بعضا من أجل السلطة. وها أنا أذكر الآية العشرين من سورة الحديد في مثل هذا الموقف:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

وقبل أن أغطّ في سبات عميق قصير، هناك مكان أخضر يمكن أن ألوذ إليه في الفاصل بين النوم واليقظة؛ مكان ذو مياه شفافة تغسل الشواطئ المرجانية بلطفٍ. وهنا عالم مختلف بدرجات الضوء ولون السماء الخيالي يربط يومي بغدي... وأكبر دليل على وجوده أنه ساكن عميق مثل المحيط.

الغريب في الأمر أنني هنا أيضاً وحيدٌ للغاية، لكنني أشعر داخلي بالحب، وقلبي ووحدتي مفعمان هذه المرة بالحب. هذا هو الحب الوحيد الصافي بلا أكاذيب، وهذه الدنيا الواقعة فوق الرمال الذهبية التي أنشرها تخلد إلى ركن في قلبي وتدور رويداً رويداً... تسخن من حرارة الشرارات، فأرتعش بدهشة لأن جزءاً مني لا يزال مرتبطاً بالدنيا. لكنني أشعر فقط... أشعر فقط بحبّهحتى النخاع...

أوقاي ترياقي أوغلو

ولـد فـي مرسـين عـام 1972، وأمضـى طفولتـه فـي (أرن كـوي – إسـطنبول)، تفتحـت عيناه فـي عالـم الأدب من خـلال القصـص... ترك جامعة بلكنـت عام 1994 قبـل أن يتم دراسـته فيهـا ليتفرغ لعالـم الأدب. أحب دائماً العيش في البلاد الأجنبية البعيدة والغامضة.

كانت **دعوة الظلام** من إصدارات دار بيان أولى رواياته الأدبية، والتي نال عنها جائزة أفضل رواية لعام 2002. وصدرت روايته الثانية **الظلال** عام 2004، أعقبها برواية **ليالي ألف عـام** 2005، كما لقيت روايته **حصار** 1453 عـام 2009 مع روايتيـه الأخريين **القانوني** و**يـاووز** اهتماماً كبيـراً لدى قراء الروايات التاريخية.

مؤلفاته:

القائد (2009).
الحصار 1453 (2009).
ياووز (2009).
مراد الرابع (2010).
مولانا (2011).
عبد الحميد (2011).
القانوني السلطان الأول (2012).

القانوني

القانوني: سلطانُ العدالـة الـذي اتَّخذَ من قولـه: «وما الدنيا إلا خيالٌ» شعاراً له.

خُرَّم: عاشقة القانوني التي روت بدماء عشقِها رسائِلَها وحبَّ السلطة.

ابراهيم البرغالي: خبيرُ الدَّسائِسِ الذي يضعُ نُصْبَ عينيهِ كل أنواع الغَدْرِ في طريقه من العبودية إلى تولي منصب الصدر الأعظم.

وهيمي: الجاسوس القويُّ المُحَنَّك. اشتهر بصراعِهِ مع عملاءِ الفاتيكان في شَتَّى أنحاءِ العالم.



فَتْحُ بلغراد التي وقَفَ «الفاتِح» أمامَ أسوارِها وحاصرها، وسبعة أَشْهُرٍ في حصار رودوس، وأشهرُ ميدانِ قتالٍ في العالم... «موهاج!».

.... والكثير غيرُها من الأحداث والشخصيات التاريخية التي أثارت الفضول، وشغلت اهتمام المؤرخين ستجدونه في هذه الرواية (القانوني)، التي كتبت بأسلوب رائعٍ وبخيالٍ مدهشٍ يحبس الأنفاس للروائيِّ الحائز على الجوائز «أوقاي ترياقي أوغلو».

TIMAŞ

ISBN 978-614-01-0637-6

9 786140 106376

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق

ثقافة THAQAFA للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution L.L.C.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com